بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب اخترته لكم ليطلع عليه شباب المسلمين ورجالهم الأغيار ليتعرفوا على جانب من جوانب أولئك الأقزام الذين يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ولكن يأب الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون،عنوان هذا الكتاب هو:

سيرة " بالتازار كوسا "

البابا يوحنا الثالث والعشرون

حياته وأعماله

تأليف " أليكسندر باراديسيس

ترجمة " بسام اسخيطة "

هذا الكتاب تولت طبعه (دار طلاس) للدراسات والترجمة والنشر
دمشق – أوتستراد المزة
ريع الدار مخصص لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري
الطبعة الأولى 1985

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر
عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة
عن رأي الدار.

مقدمة المؤلف

عندما اختار مجمع الكرادلة في خريف عام / 1958 / الكاردينال " رونكالي " لعرش البابوية ليترأس بذلك الكنيسة الغربية، اتخذ لنفسه اسم " يوحنا " وقد دخل التاريخ تحت هذا الاسم مضافاً إليه الثالث والعشرين.

لكن قلائل – ربما – يعرفون حتى أيامنا هذه أنه كان قد وجد بابا بهذا الاسم أيضاً (يوحنا الثالث والعشرون).

ترى هل يمكن اعتبار ما حصل نتيجة جهل أو عدم اطلاع؟ بطبيعة الحال لا، إذ أن كل الشخصيات العليمة بخفايا الأمور، والمقربة من الكرسي المقدس، تعلم أنه وردت في أسفار التاريخ المدونة للفاتيكان أسماء ثلاثة وعشرين من الباباوات تحت اسم " يوحنا " باستثناء البابا المنتخب في حينه.

لماذا قرر رجل الدين الأخير إذاً أن يسمي نفسه (يوحنا الثالث والعشرين) وليس يوحنا (الرابع والعشرين)؟ لماذا انتحل اسم سلفه البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي عاش قبل خمسمئة وخمسة أعوام تقريباً وكأنه لم يوجد؟

من المعروف أن " يوحنا الثالث والعشرين " الأول قد أقصي عن العرش، واضطر في نهاية المطاف للتنازل عنه، بعد أن اعترفوا به وعلى مدى خمس سنوات بابا يقف على رأس الكنيسة الغربية، وكان ذلك إثر دعوة وجهها لكاتدرائية القسطنطينية لعقد اجتماع ترأسه هو نفسه.

وجاء هذا الاعتراف من شعوب غرب وشمال ووسط وشرق أوربا (بولندا) وإمبراطورية ألمانيا، وحاكم إيطاليا، وقد خاصم يوحنا الثالث والعشرون خلال تسلم مقاليد البابوية ملوكاً عظاماً فرض عليهم اللعنة الدينية والحرمان من الكنيسة.

يكون من الممكن إذاً أن يحصل بعد خمس سنوات من الجلوس على كرسي البابوية وإقصائه عنها، والحفاظ بعد ذلك ولمدة أربع سنوات من حياته على رتبة "كاردينال " أن يحاولوا إنكاره والإيهام بأنه لم يكن؟ إنهم يستندون في ذلك على أن اسمه أدرج خطأً في عدادا الباباوات، لأن انتخابه لم يكن شرعياً.

لكن وقفة عند وجهة النظر هذه تقودنا إلى أن انتخاب سلفه البابا " الكسندر الخامس " (بطرس فيلارج من جزيرة كريت) لم يكن شرعياً أيضاً، لأنه تم من قبل نفس مجمع الكرادلة الذي انتخب يوحنا الثالث والعشرين.

ونتساءل مرةً أخرى لماذا سموا " رودريكو بورجيا " بِـ " الكسندر السادس " بعد مرور ما يقرب من مئة عام على تسلم " الكسندر الخامس " مقاليد الأمور في الفاتيكان، ولماذا سمي بعده البابا " فابيو كيجي " بِـ " الكسندر السابع " والبابا " بطرس أوتوبوني " بِـ " الكسندر الثامن "؟ لماذا كان انتخاب " الكسندر الخامس " و " يوحنا الثالث والعشرين " معترفاً به في حينه، وأعلن عدم شرعيته الآن فقط؟ ألم يخطئ الباباوات في إصدار أحكامهم على سلف "يوحنا الثالث والعشرين " الحالي؟ وإذا لم يكن قد أخطؤوا فكيف ومتى بدأ الحديث عن عدم الشرعية؟

لم يكن ذلك ليحدث إلا في عام / 1958 / حيث صدر في هذا الوقت كتاب " قائمة الباباوات" يغفل اسم " يوحنا الثالث والعشرين الأول ".

أما بقية الكتب التي تتناول تاريخ الكنيسة الغربية التي كان كافة مؤلفوها من التقاة المشهورين الموالين للكاثوليكية، أمثال " فليري والتسوغ " والقس " موريه " والفيلسوف " آيمر " فقد أتت في سردها للأحداث التي جرت قبل / 505 / خمسة وخمسمئة عام على ذكر البابا " يوحنا الثالث والعشرين " وكتب أحد أقدم المؤرخين للكنيسة الكاثوليكية وهو "كاميلو دو فيوريجو " في مقدمة كتابه " تاريخ البابوية ": منذ وفاة يسوع المسيح وحتى السنة الحالية 1740 تم بصورة شرعية اختيار مئتين وست وأربعين من الباباوات.

ويحصي المؤلف " الكسندر الخامس " على أنه البابا الخامس بعد المئتين يليه البابا " يوحنا الثالث والعشرون " السادس بعد المئتين.

إن التاريخ يعرف بابا واحداً تحت اسم " يوحنا الثالث والعشرين " هو " يوحنا الثالث والعشرين الأول " وإن كافة محاولات طي اسمه في صفحات النسيان محكوم عليها بالفشل، حيث لا يمكن على الإطلاق محو آثار وأعمال حياة صاخبة لشخصية سيئة السمعة، كانت

سلسلة من الفضائح بعد أن تمكن من شق طريقه إلى كرسي البابوية والتأثير على سير الأحداث التاريخية على مدى خمس سنوات من شغله لها.

وإذا ما تسنى النجاح لمثل هذه المحاولة يتعين عندئذٍ طمس آلاف من الحوادث الأخرى لا تقل عنها خزياً وعاراً في تاريخ الكنيسة الغربية.

مدخل

في التاريخ الذي سنتناوله من الغرابة ما يجعل معظم القراء – وهم على حق – يتساءلون: ترى هل صحيح أن يقدم أعلام الكنيسة على مثل هذه الأعمال؟ إذ إن صور الأحداث التي تتعرض لها تبدو في معظمها غير قابلة للتصديق، حتى على فرض أن من ارتكبوها هم أناس يمثلون حثالة المجتمع.

لكن وبمقدار ما يكون التاريخ موضع ثقة – والحقائق الواردة هنا قد حدثت فعلاً – فإنه يمكن إقناع أكثر القراء ارتياباً وسوء الظن بالمقتطفات التي نستشهد بها من أعمال مؤرخي الكنيسة سواء من عاصر بطلنا " يوحنا الثالث والعشرين " أو من عاش بعده، أو بما تم اقتباسه أيضاً من مصادر العصر الحديث.

في الوقت الراهن وعندما يقرأ الناس العديد من الكتب التاريخية تبدو بعض الحوادث بعيدة الاحتمال، وتظل مبهمة ولغزاً محيراً.

إن التاريخ يكشف أسرار هذه الحقائق المرعبة، بحيث تصبح روايات أكثر المؤلفين الرومانسيين – بالمقارنة معها –كتباً مسليةً للأطفال.

ولكي نساعد القارئ على فهم الأحداث التي سنتناولها لا بد أن نوضح في هذه المقدمة بإيجاز ما سبقها من قضايا وأمور، ونقصد بهذا كيف استولى " يوحنا الثالث والعشرين الأول " على كرسي الرسول البابوي بطرس؟وستمر أمامكم كما في شريط سينمائي نماذج لعديد من خلفاء الرسول البابوي " بطرس " تماماً كما قدمها لنا معاصروهم ومؤرخون مشهورون للكنيسة الكاثوليكية.

وحيث إن قائمة أسماء من سبق بطلنا عريضة جداً نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقصر الحديث على بعضهم، بحيث نتناول نماذج من ذلك العهد الذي حصل فيه الانقسام بين الكنيستين الغربية والشرقية.

كتب " آيمر " الخبير بتاريخ الكنيسة الكاثوليكية ما فحواه أن:(البابا " أدريان الثاني "كان متزوجاً وله ابنة، وإن إحدى الشخصيات الدينية الرفيعة المقام والمقربة من الفاتيكان أراد أن يصاهره فطلب منه يد ابنته، لكن هذا الطلب قوبل بالرفض من البابا، عندئذٍ قرر نتيجة الإهانة التي لحقت به الانتقام، فقام بخطف زوجة البابا وابنته وقتلهما، وتمكن البابا من معرفة الجاني وإلقاء القبض عليه فكان مصيره الخنق في السجن البابوي).

وقد خاض البابا الذي تلاه وهو " يوحنا الثامن " طوال سني اعتلائه كرسي البابوية صراعاً مع الأسقف الداهية " فورموزا " الذي ترقى إلى درجات الخدمة، وكان معروفاً عنه إحاكة الدسائس، فحاول عن طريق الرشوة دق إسفين بين الكنيسة الشرقية وبعض الأبرشيات والأقطار وفصلها عنها، وأصاب عمله كثيراً من النجاح، وإن لم يوفق مرتين في إلحاق بلغاريا بالكنيسة الغربية وتنصيب نفسه بطريركاً عليها.

وكانت مناصبة " فورموزا " العداء شاقّة، إذ كان يقف إلى جانبه شعب " روما " فاضطر البابا للهرب إلى " فلورنسا " وتمكن بعد ذلك من استدراج " فورموزا " إليه واصطحابه في الترحال معه من مدينة إلى أخرى، حتى هدأت الانتفاضة في " روما " وسرعان ما قتل البابا العائد إلى " روما " على يد أقاربه الذين تسللوا إلى القصر محاولين الاستيلاء على الكنوز المخبأة هناك، فأجبروه على تناول سم زعاف، لكن السّمّ لم يأخذ مفعوله فقرروا التعامل معه بطريق أخرى، فأقدم أحدهم على تحطيم رأسه بمطرقة.

هكذا يصف المؤرخ "كارل جوزيف فون هيفليه " موت " يوحنا الثامن " في كتابه " تاريخ المجامع الدينية ".

ويروي الكاردينال " باروني " – الذي اطلع على أرشيف وسجلات الفاتيكان في كتابه المكوّن من عدة مجلدات " تاريخ الكنيسة منذ ميلاد المسيح وحتى عام 1198 " – قصصاً وروايات عن هذه الحقبة، ويلتمس من قرائه بطريقة مقنعة ألا ينحو عليه باللائمة إذا ما انتصب شعر رؤوسهم رعباً عند قراءة مؤلفه، ويستطرد قائلاً:(إلا أنني ملزم أن أقص على المسيحيين البؤساء الإهانات التي ألحقها

القائمون على الكنيسة بالدين وعار القديسات)، وفي الختام يقول الكاردينال:(إن المآسي التي ألحقها بالشعب نفر من الوحوش المرعبة تربعت على الكرسي المقدس قد أسبغت عليه عاراً أبدياً).

وسار البابا " أدريان الثالث " على درب أسلافه، إذ تمكن خلال المدة القصيرة من تربعه على كرسي البابوية أن يفعل شيئاً ما، تجلى – على سبيل المثال – في اعتقال أحد أنصار " فورموزا " وسمل عينيه. (52[1]).

وخلف " أدريان الثالث " إنسان ذكي حاذق هو البابا " فورموزا " الذي كان يحالف هذا الحاكم ويناصب العداء ذاك أو يقطع صلته بهم إذا ما اقتضى الحال ذلك، لكن نجاحه لم يطل، إذ سرعان ما أدرك أنصاره السابقون أنه يخدعهم الواحد تلو الآخر، فوقف الجميع ضده في نهاية الأمر، فضلاً عن أن جماهير " روما " لم تكن راضية عنه، وبعد أن شعر بأنه أصبح وحيداً تَمَلَّكَهُ الرعب فأصيب بالشلل إلى أن مات.

وبعد موت " فورموزا " انتخب لكرسي البابوية خصمه المتعصب " ستيفان السادس " الذي سارع فور تنصيبه إلى دعوة المحكمة الكنسية العليا لمحاكمة البابا المتوفَّ " فورموزا " فأمر بإخراج جثة سلفه من القبر وإحضارها إلى القصر.

ومثلت الجثة المتعفنة – حيث كانت قد رقدت في التراب حوالي عشرين يوماً – أمام البابا الجديد مسجاةً يلفها الرداء البابوي وبدأت المحاكمة بتوجيه أسئلة من الأساقفة أعضاء المحكمة:

لماذا وافقت على هجر أبرشية " بورتو " والتربع على كرسي " روما "؟

ألم تعط عهداً للبابا " يوحنا الثامن " بألا تغادر " بورتو " وألا توافق على هذا الاقتراح؟

وتابع أعضاء المحكمة الأساقفة طرح أسئلتهم:

ألم تقسم بقسمٍ أمام البابا على أنك سرعان ما ستتخلى عن خدمة الكنيسة إلى الأبد؟ 104

وعلى اعتبار أنه لم يكن للميت من يدافع عنه ولم يجر تحقيق فيما ارتكبه فقد صدر الحكم بإقصائه عن كرسي البابوية، وأمر " ستيفان السادس " نزع رداء البابوية عنه ثم أمر ببتر ثلاثة أصابع من يده اليمنى وإلقائه في نهر " التيبر ".

ويصف الأسقف " لواتباراندیت " في مؤلفاته عن هذه الحادثة – التي تعرض لها جميع مؤرخي الكنيسة الغربية تقريباً – فيقول:(ورأى صيادوا الأسماك الذين انتشلوا الجثة من النهر عند مرورهم بالقرب من مجمع القديس " بطرس " معجزة حيث نكس قديسون على شكل أيقونات رؤوسهم إجلالاً لجثة البابا السابق الممزقة).

وهب مواطنو " روما " الذين استثارهم جور وطغيان البابا " ستيفان السادس " فألقوا القبض عليه وأودعوه السجن، ثم أقدموا في إحدى الليالي على خنقه هناك.

وقام بدفن " ستيفان السادس " أحد أدعياء الكرسي البابوي هو " سيرجي " الذي كان خصماً لِـ " فورموزا " أيضاً، فألقى قصيدة رثاء أثنى فيها على مزايا البابا الفقيد، ولم يفوّت فرصة التشهير بِـ " فورموزا " والتنديد به.

حاول " سيرجي " قديماً الاستيلاء على كرسي البابوية ، وأخفق في ذلك مرتين ولما لم يفلح وجد لنفسه مأوى لدى أحد الإقطاعيين، الذي كانت حفيدته وهي ابنة أحد شيوخ " روما " المشاهير " تيوفيلاكت ماروتسيا " عشيقة لِـ " سيرجي ".

وفي غضون ذلك تقلب على الفاتيكان عدة باباوات، منهم " ليف الخامس " الذي لم يطل به الوقت أكثر من شهر، فقتل في السجن على يد "كريستوفر " رجل الكنيسة الشهير الذي حلَّ مكانه وسمى نفسه بِـ:البابا "كريستوفر الأول " الذي تسلم الأمور بدوره لأقل من عام، إذ عاد " سيرجي " مرةً أخرى من ملجئه في " توسكانيا " فاعتقل البابا "كريستوفر " وأودعه السجن واعتلى كرسي البابوية تحت اسم "سيرجي الثالث".

ولم تكن عشيقته " ماروتسيا " أقل جمالاً وذكاءً من أمها اللامعة " تيودورا " بل ربما فاقتها في ذلك، وكان لهاتين السيدتين علاقات صداقة مع مشاهير رجال الكنيسة، وتمتعتا بحظوةٍ كبيرة لديهم، فقد نَصَّبَتَا خلال حياتهما الطويلة وخَلَعَتا أيضاً حوالي عشرة باباوات.

---

[1] - **الأرقام التي سنوردها هنا اعتباراً من هذه الصفحة تدل على رقم المرجع في ثبت المراجع في آخر الكتاب (المترجم).**

وتزوجت " ماروتسيا " التي كانت أذكى وأكثر جرأةً من أمها من الدوق الكبير " البيرو كاميرنيو " وأبقت على علاقاتها الغرامية مع " سيرجي الثالث "، وبفضل ارتباطاتها مع رجالات كنيسة يحتلون مناصب رفيعة استطاعت زيادة ثروة أسرتها بشكل فاحش، فألحقت بها القصور والقلاع والعقارات الأخرى. (38 – 42 – 62).

وتختلف آراء المؤرخين في تقرير أعمال " سيرجي الثالث " الذي آلت إليه الأمور سبع سنوات من التحكم بمقاليد الكنيسة الغربية، إذ يؤكد " فلود واردو " – على سبيل المثال – في مؤلفاته التاريخية أن " سيرجي الثالث " كان طيباً للغاية وأن وصوله للكرسي المقدس كان مدعاةً لسرور وسعادة كافة المسيحيين، فيما يذهب الكاردينال " باروني " إلى تبني رأيٍ مغاير إذ يقول:(لم يترك هذا البابا السافل جريمة إلا وارتكبها، ولم يدع سلوكاً شائناً إلا ولطخ اسمه به، كان خسيساً – سفاحاً – ومغتصباً لكرسي البابوية) وينكر عليه " باروني " أن يكون بابا فلم يعترف به.

أما " آيمر " المؤرخ المعاصر للكنيسة الكاثوليكية فيتحدث عنه قائلاً:(كان البابا " سيرجي " حبراً من الأحبار الأفاضل وفناناً موهوباً، وإنساناً على درجة كبيرة من المعرفة والعلم).

واصلت " ماروتسيا " و " تيودورا " استغلال تأثيرهما في عهد " سيرجي الثالث " كان السن قد تقدم بِـ " تيودورا " ورغم ذلك فقد حافظت على مسحة من الجمال الغابر وحيوية الشباب، وفي غضون ذلك قصدها إلى " روما " قسيس شاب رسول من لدن المطران " رافينا " الذي أراد أن يتوسل عن طريقها في طلبٍ ما من " سيرجي " لكنها سرعان ما وقعت في حبه من النظرة الأولى.

هكذا أصبحت الابنة أثيرة قلب البابا العجوز، فيما أصبحت الأم العجوز عشيقة القسيس الشاب، والتي سعت في سبيل الحفاظ عليه إلى إيصاله لرتبة أساقفة " بولونيا[1] " .

واستمرت في دفعه على سلم الترقيات إلى أن مكنته من احتلال كرسي المطران " رافينا " وقد ترددت عليه هناك مرات عديدة.

وعندما توفي " سيرجي الثالث " دبرت " تيودورا " و " ماروتسيا " تقديم الكرسي المقدس لعديد من الباباوات، وواصلتا بذلك التحكم في شؤون الكنيسة، وبعد أن أجلستا على كرسي البابوية عجوزين أمضى الأول وهو " انستاسيا الثالث " سنتين فقط، ولاقى من بعده " لاندون " نحبه بعد نصف عام، فقد برز سؤال: من سيتربع على كرسي البابوية؟

فكرت " تيودورا " بعشيقها الذي أرادت أن تشعره أكثر فأكثر بحاجته إليها فضلاً عن رغبتها في أن تحافظ عليه قريباً منها، فكاشفت ابنتها قائلةً:

- ماروتسيا ..... يجب أن يصبح البابا صديقي.
- حسناً ..... ليكن ذلك.

قالتها " ماروتسيا " على مضض إنهاءً لحديث مملّ.

بهذه الكلمات أوصلت الأم آخر عشاقها " بطرس " إلى كرسي البابوية ليصبح راعي الكنيسة الغربية لمدة أربعة عشر عاماً تحت اسم " يوحنا العاشر ".

وفي السنة الأخيرة من تسلمه مقاليد الأمور تخاصم مع ربيبته – ابنة زوجته – بعد أن فارقت " تيودورا " الحياة قبل أن تشهد ذلك، وأصرت الابنة التي ما زالت في عنفوان الشباب ألا تخضع لرغبات زوج أمها، فأثارت ضده شعب " روما " فجرى – وعلى مرأى البابا – شنق أخيه وبأمر منه، ومن ثَمَّ ألقي القبض على البابا نفسه وأودع السجن، وبعدها وجد مخنوقاً بوسائد سريره.

على هذا النحو كانت خاتمة " يوحنا العاشر " – 52 – وبعدها دفعت " ماروتسيا " باثنين من رجال الدين للوصول إلى كرسي البابوية، لكنها ارتأت عند وفاة الثاني أن الأوان قد آن لأن يعتلي هذا الكرسي إنسان مقربٌ جداً منها، وأفلحت في أن تجعل من ابنها الأصغر (" يوحنا " الذي ولد لها من علاقتها بالبابا " سيرجي الثالث ") رئيساً للكنيسة الغربية وحمل اسم " يوحنا الحادي عشر ".

---

[1] - مدينة تقع في إيطاليا وليست الدولة المعروفة الآن في زماننا.

كان " أوكتافيان " – حفيد ماروتسيا – فتىً يافعاً يبلغ السادسة عشرة عندما توفي أبوه "البيريخ" الابن الثاني لِـ " ماروتسيا " (حاكم وشيخ روماني) بعد أن أوصى له بسلطته الدنيوية في " روما " واستطاع كخليفة لأبيه بعد نصف عام أن يستميل إليه أناساً لهم تأثيرهم ويقنعهم في انتخابه، وأن يتربع بعد ذلك على كرسي البابوية تحت اسم " يوحنا الثاني عشر "كان مراهقاً فاسد الأخلاق فاجراً، وليس أدل على ذلك من الكلمات التي وجهها الرومانيون إلى الإمبراطور " أوتون الأول " يشكون إليه البابا الثاني:

– يا له من شيطان، يحقد على الرب، ظالم لا يعرف العدل، دنس المقدسات وجمع حوله النساء اللواتي لا يتوانى في سبيل اقتنائهن عن ارتكاب الجرائم، مغتصب ومتعطش للدماء.

لقد فر من " روما " جميع نسائها عذارى أو متزوجات حتى لا يصبحن من ضحاياه، وحوَّل قصر " لاتيران " الذي كان له في السابق حرمة مقدسة إلى بيتٍ للدعارة، ومن بين النساء اللواتي يحتفظ بهن هناك الخليلة السابقة لأبيه والتي أصبحت الآن عشيقته.

بعد الاستماع إلى هذه الاتهامات أوصى الإمبراطور بدعوة مجلس خاص يحضره رجال الكنيسة البارزون، للحكم على سلوك البابا الشاب، فكان منهم العديد من الإيطاليين والفرنسيين والألمان.

ووجهت للبابا في البدء تهماً غير خطيرة، دارت حول أنه لم يشاهَد على الإطلاق والصليب على صدره، وأنه كان يظهر أمام المؤمنين بزيّ القتال، مرتدياً الدّرع والخوذة، وكثيراً ما توجه إلى الصيد برفقة أصحاب مشبوهين، وأنه كان يفحش في القول، ويلعب الورق، ويطلب من الآلهتين الوثنيتين " زفس " و " أفروديت " أن تساعداه في التغلب على أقرانه، وبعدها وجهت للبابا تهمة أكثر جديّة، حيث اتهم بأنه شرب في صحة الشيطان، واعتمدوا على شهادات من تواجدوا[1] آنذاك، وأفاد البعض أن البابا – طلباً للمال – قام برسم (تسمية) طفل في العاشرة من عمره برتبة " أسقف ".

وجرى بعد ذلك طرح أمثلة على انحرافات البابا وسلوكه الذي لا يدل على الاحترام للمقدسات، وبالأخص علاقاته الغرامية المتعددة مع نساء متزوجات، وتليت قائمة بأسماء بعضهن من بينهن قريبات له.

ومروا باتهاماتهم على ذكر جريمة قتل بحق أحد الكرادلة، أنه وبأمر من " يوحنا الثاني عشر " تمّ جدع أنفه، وقطع أذنيه، وبتر يديه، وساقيه، فمات من جراء الآلام المبرحة.

كل هذه الحقائق يوردها " لوتبراندیت " في مؤلفاته، ويضيف أن جميع من أسهموا في تدوين هذه الأسفار التاريخية، من البطاركة والقساوسة وعامة الناس، أقسموا أنهم مستعدون للاكتواء بنار جهنم للأبد إنْ هم تجنّوا عليه ولو بزيادة كلمة واحدة.

صادق المجمع على كل هذه الاتهامات وقرر خلع البابا، واختير بدلاً منه – بتعليمات من الإمبراطور – رجل من عليّة القوم، وفارس خدم البلاط الإمبراطوري، فجلس على كرسي البابوية تحت اسم " ليف الثامن " والحقيقة أن الكنيسة الغربية حتى ذلك الوقت لم تعترف به بابا شرعياً، واعتبروا انتخابه مناف للتقاليد البابوية وأن " يوحنا الثاني عشر " هو البابا الشرعي.

ما إن غادر الإمبراطور " أوتون " إيطاليا حتى اقتحم " يوحنا الثاني عشر " – الذي انقطعت أخباره – " روما " من جديد واحتل الكرسيّ البابويّ وانتقم لنفسه من كافة خصومه بقسوة، فأمر بأن يقطعوا لسان " ليف الثامن " وأصبعه، وأن يجدعوا أنفه، وأمر ببتر يد الكاردينال "جيوفاني" وجلد الأساقفة الذين شهدوا ضده في المحكمة بالسياط.

ودعا " يوحنا السابع " مجمعاً جديداً للاجتماع أسفر عن إصدار حكم يعلن أن المجمع السابق كان جمهرةً من الخلائق المأجورة وأن " ليف الثامن " منشق وخائن ومغتصب للكرسي المقدس.

وألحق المجمع باسم " يوحنا " نعوتاً وأوصافاً مثل: صاحب الغبطة – والمبجل – والرؤوف، غير أن كل هذه الأمور لم تطل من عمر " يوحنا " إذ سرعان ما مات في ظروف غير عادية وغامضة.

واستناداً لما كتبه " لوتبراندت " فإنه كانت للبابا في أواخر أيامه علاقة مع إحدى الرومانيات الجميلات، وبعد أن علم زوجها بذلك تربص به إلى أن واتته الفرصة، فانهال عليه ضرباً بلا هوادة، مات على إثرها بعد أسبوع دون أن يتمكن من أداء القربان المقدس.

---

[1] - **لا يجوز في اللغة العربية التعبير عن الوجود بالتواجد: فأنا موجود ..... شيء، وأنا متواجد ..... شيء آخر. (الناسخ).**

وورد في كتاب " الأحبار " أن البابا الذي خلفه، كان " بينيدكت السادس " الذي لاقى مصير كثير من أسلافه، حيث أودع السجن ومات فيه، وخلفه المطران " فرانكو " تحت اسم "بونيفاس السابع " إلا أن الفوضى التي عمت " روما " أرغمته على اللجوء إلى " القسطنطينية " دون أن ينسى أن يأخذ معه كنوز الفاتيكان.

وتسنى له بعد ذلك العودة إلى " روما " بعد عشر سنوات فاعتقل الجالس على الكرسي المقدس وهو " يوحنا الرابع عشر " وألقى به في غياهب السجن حتى مات هناك جوعاً، وبعد عام توفي " بونيفاس " نفسه، وعند إجراء مراسيم دفنه انقضَّ سكان " روما " على جثته، حيث ساءتهم أطماعه الشرهة فسحبوها من التراب وجروها حتى الكابيتول، ثم مزقوها إرباً إرَباً أمام تمثال " ماركوافريليو " وبعد ذلك جمع الكهنة أشلاءها وواروها التراب باحتفال مهيب.

لم يعترف معاصروا البابا " بونيفاس السابع " به باباً شرعياً، إذ يصفه " سليفيستر الثاني بِ: وحشٍ شرس مرعب، والكاردينال " باروني " بِ: قاطع طريق ذائع الصيت وقاتل اثنين من الباباوات.

أما الآن فإن الكنيسة الكاثوليكية – ولأسباب غير معروفة – تعتبر " بونيفاس السابع " باباً شرعياً (52).

وقبل البدء في سرد حياة وأعمال بطلنا البابا " يوحنا الثالث والعشرين " لا بد من الحديث عما كان عليه بقية رجال " الأكليروس " من قساوسة وبطاركة ورؤساء أديرة ورهبان، لكي يتوفر للقارئ تصور ما.

كانت طبقة " الأكليروس " في الغرب خلال عصور الظلام من القرون الوسطى، أكثر الناس ثقافة وعلماً، لكن على القراء أن يستنتجوا بأنفسهم طبيعة ما كان عليه هذا (العلم).

لقد كانت اللاتينية بالنسبة لكافة الرهبان تقريباً الذين يؤدون صلواتهم بها لغة غير مفهومة، حفظوا التراتيل التي يرددونها عن ظهر قلب، وبصورة آلية دون إدراك ما تنطوي عليه من معان وأفكار، وأحياناً كان يؤدي ذلك إلى أمور تثير الدهشة والاستغراب.

ولم يخف على الباباوات ما كان يطرأ من تحريف على معاني الصلوات والابتهالات، لكنهم تغاضوا عنها، متعللين أن الكهنة يرتكبون الأخطاء عن طيب نية وعدم اطلاع، وليس عن قصد أو مزاج خاص، مما يبقي على الإيمان نقياً طاهراً.

وكان الشيء الوحيد المطلوب من الكهنة إتقانه هو صلاتي " أبانا " و " آمين " وحفظ التواريخ التي تصادف أعياد الكنيسة، وكذلك الصلوات التي تتلى خدمة للرب في المناسبات.

وحين أصدر البابا " إيفيجيني الثاني " أمراً بإقصاء الكهنة والأساقفة الذين لا يجيدون بشكل كافٍ القيام بالخدمات الدينية، وأساؤوا فهم محتوى الصلوات من الخدمة، لقي هذا الأمر معارضة من جانبهم ووجهوا له رسالة ضمنوها:(إنك تستعبدنا، ولكن من أين لك أن تجد من هم أكثر منا معرفة وعلماً؟) (58).

وحتى الكتب الدينية التي دونت في تلك الأيام كانت تنطوي على أخطاء فاحشة كثيرة منها، على سبيل المثال لا الحصر: ما ورد في أحد الكتب من أنه يتعين على الكهنة عند توجيه مراسلات معينة أن يذكروا القديسين " أوريل " و " رانجويل " و " دامبيل " وذلك قبل أن يقرر المجمع الحادي عشر في " روما " أن أسماء هؤلاء أدرجت خطأً في عداد القديسين، وما هم إلا " شياطين سارت بالجنس البشري على طريق الغواية والضلال ".

ووجدت مثل هذه الأخطاء في مؤلفات كتاب كبار، أمثال القديس " أوغسطين " والقديس " أفريم " والبابا " فيليكس ".(64).

وتذمر ملك إنكلترا " ألفريد الكبير " من أنه لا يوجد في أرجاء مملكته كلها كاهن يتمتع بنذر يسير من العلم، وأن لا أحد منهم يعرف حدود واجباته ويفقه دوره في أداء الطقوس الدينية.

هذا عن الجانب الديني، أما عن الجانب الدنيوي من حياة رجال " الأكليروس " فيمكن كتابة مجلدات حوله، لكننا نكتفي لإشباع فضول القارئ بمقتطفات موجزة.

من المعروف أن على رجال دين الكنيسة الغربية أن يعطوا عهداً بعدم الزواج، وأن ينذروا أنفسهم للشؤون الدينية، ومرت فترات سمح لهم فيها بالزواج، وتطلب ذلك موافقة الأسقف فقط، وعلى ألا تكون زوجة المستقبل قد طلقت مرتين أو امرأة طائشة.

وعندما أعيد وأقر قانون العزوبية بدأ رجال الدين يتخذون لأنفسهم خليلات، فاصطحبوا معهم إلى بيوتهم فتيات جميلات بحجة إما أنهن من قريباتهن أو " قهرمانات " لإدارة شؤون المنزل، أو من الخدم (وقد ارتضت النساء لأنفسهن ذلك طواعية، وخصوصاً الفقيرات منهن لأن رجال " الأكليروس "كانوا ميسورين يعيشون حياة رغيدة).

ولم يعتبر الكهنة حتى البغاء إثماً، فكان اقتناء العشيقات مظهراً من المظاهر الخاصة التي تدعو للتباهي، وعليه فقد كانوا يتوجهون إلى المعابد لأداء واجباتهم الدينية تجاه الرب من أحضان العشيقات مباشرةً، وبالرغم من إصدار المجالس الدينية لأوامر تحظر الزنى والفجور فقد تجاوزها وتحايل عليها رجال الدين.

وغالباً ما كان يتم ذلك بعلم ومساعدة الأسقف، الذي كان يكفيه مبلغ مناسب من المال ليغضّ الطرف عن الجميع.

ومع الأيام اعتاد الأساقفة الكاثوليك الحصول على مثل هذه المكافآت، بحيث أصبحوا يطلبون المال ليس من الذين يتخذون لأنفسهم عشيقات وحسب وإنما من أولئك الذين تعففوا عن اقتنائهن أيضاً. (أن يكون لك خليلة أو لا يكون فهذا من شانك، المهم أن تعطيني مالاً).

وتهكم الشعب على فرض الإتاوات هذه من جانب الأساقفة بعبارات:(لك الخيار في أن تعشق أو لا تعشق، أما أن لا تدفع فلا ....).

ويستشهد " أغريبا فون نيتسهايم " بكلمات أحد الأساقفة الذي تباهى بأن هذه " الضريبة " عادت عليه بالثروة والغنى، حيث دفع له كل قسّ عنده محظية عشر قطع ذهبية كل سنة، فكانت عائداته من جراء ذلك أحد عشر ألف قطعة كل عام.

وثمة إجراء آخر يشكل مادّةً للدخل، وهو أن باستطاعة كل امرأة غاب عنها زوجها إلى حين (في السفر أو المشاركة في الحملات) الحصول بناءً على رغبتها على عشيق دون أن يشكل ذلك إثماً، إن هي دفعت مبلغاً زهيداً للأسقف.

ووفر ملك نابولي " روبرت أنجوي " بهدف استمالة رجال الدين إلى جانبه تسهيلات مختلفة لهم، ثم راح ينظر من خلال أصابعه إلى خلاعتهم وفسقهم.

ومن وجهة نظر السلطات الدنيوية فإن الأمر لم يكن يعنيها من قريب أو بعيد، إذ سبق في عهد البابا " بونيفاس الثامن " إقرار أن رجال الدين هم خارج اختصاص القضاء مهما كان سلوكهم وأياً كانت فعلتهم.

وذهب الملك إلى أبعد من ذلك عندما أصدر مرسوماً ينص على أن قوانين السلطة الدنيوية لا تسري أيضاً على النساء المحظيات اللواتي يعشن في كنف رجال الدين ويشاركنهم مخادعهم، على اعتبار أن (مستخدمة رجل الدين تقوم بواقع الحال بخدمة الكنيسة) وتجاسرت تلك النسوة إلى الحد الذي رحن فيه يطالبن بمزيد أكبر من التسهيلات والامتيازات، إلا أن عددهن كان كبيراً للغاية مما دفع الدولة والكنيسة إلى رفض النزول عند هذه المطالب بعد حساب ما قد يجره ذلك عليهما من خسائر في الإيرادات.

بعد ذلك سن الملك " الفونس " قانوناً بتحصيل الضرائب الإلزامية من محظيات رجال الدين، وجعل لهذا القانون مفعولاً رجعياً، وعمم منشوراً ألحقت به قائمة لا نهاية لها تضم أسماء صديقات لرجال الدين الملزمات بدفع الضرائب.

وأعلن البابا " بينديكت الثاني عشر " لرجال الدين أنهم قد حولوا المعابد، وهي الأماكن التي يجب أن يسودها الصلاح والعفاف، إلى أوكار لممارسة الحب الحرام.

وكتب "كليمانجي " عالم اللاهوت الشهير في تلك الفترة:(إن الذين انخرطوا في سلك رجال الكهنوت هم أولئك الكسالى الذين كان ينتابهم الشعور بالفزع لمجرد التفكير بالعمل، وأولئك الذين سعوا وراء اللذة والمرح دون بذل أي جهد، وما إن كانوا يبدؤون في السجود لم يكن سجودهم للرب ويسوع المسيح وإنما لِ " أبيقور[1] " ويقضون بعد ذلك أوقاتهم في الحانات بلعب " البلياردو " و " النرد " و " الورق " وتناول الطعام بنهم، والإسراف في شراب النبيذ إلى أن تلعب الخمرة برؤوسهم فيدخلون في عراك ومشاجرات، وينهالون بالشتائم والسباب على الخالق والقديسين، وبعدها يرتمون طوال الليل في أحضان عشيقاتهم ثم يتوجهون منها مباشرةً إلى أماكن العبادة لتأدية الطقوس الدينية).

[1] - **أبيقور: فيلسوف إغريقي وصاحب مذهب أن اللذة هي الخير الأسمى.**

وكان "كليمانجي " من معاصري " " يوحنا الثالث والعشرين " بل أحد أترابه المقربين، وقد درس اللاهوت في معهد " جيرسون " الشهير، وأمضى فترةً طويلةً سكرتيراً للبابا " بينيديكت الثالث عشر " ثم عمل فيما بعد بتدريس اللاهوت في باريس.

أما فيما يتعلق بالأساقفة والقساوسة، ومن قام على رعاية الأديرة – يضيف "كليمانجي " – فإن معظمهم جهلة جشعون، ومن الوشاة المحبين للتظاهر والوجاهة، متسامحون جداً تجاه أنفسهم، وصارمون للغاية نحو الآخرين، ثرثارون وأصحاب عقلية سطحية.

وكان لدى الجميع خليلات لهم منهن أولاد، لا شيء مقدس عندهم، همهم الوحيد تلبية شهواتهم الدنيئة، ومع ذلك لم ترفع أية شكوى ضدهم، إذا كانت تبعيتهم للبابا فقط، ومن ذا الذي يستطيع من البؤساء – والحال كذلك – أن يتسلل إلى قصر البابا ويقص عليه ما كان من أمرهم؟...

ويتحدث "كليمانجي " بعد ذلك عن الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان فيقول:(أم هؤلاء فكانوا ذئاباً كاسرة بجلود حملان وديعة، وُعُوْلٍ لا تعرف الشبع، يلتهمون هبات وهدايا المؤمنين، وبعد أن يملؤوا بطونهم وينتشوا بالشراب ينغمسون في كافة أنواع الفسق والفجور ليطفئوا نار شهواتهم وعواطفهم المتأججة .....) ، (وأخشى مجرد الكلام عن الراهبات، لأنه يمكن للقراء أن يخطئوا تفسير كلماتي ويظنون أني أتحدث عن بيت الدعارة، حيث تنزل نساء رخيصات متهتكات ومعروضات للبيع وحيث حوادث الاغتصاب وسفاح ذوي القربى، إن أديرة عرائس المسيح لا تمثل عندنا أماكن لعبادة الرب، إنها بؤر للعهر وممارسة الرذيلة، يقصدها الفاسقون المتعطشون للجنس إطفاءً لشهواتهم حيث لا فرق بين فتاة بثياب راهبة وعاهرة تعتبر بيع جسدها عملاً !!!!!!!).

وهكذا كان رجل الدين كلما ارتقى درجات سلم الرتب الكنسية وأصبح في مقام أرفع كلما ازداد عهراً وخلاعةً.

ويقارن " دانتي " في " الكوميديا الإلهية "كرادلة قصر الأغنياء الفاسقين – في نهاية القرن الثامن – مع الحواريين الأوائل البؤساء المتواضعين، ويشير خاصةً إلى حب الحواريين للعمل وهزالهم، وإلى كسل الكرادلة وترهل أجسامهم من السمنة، بحيث لم يكن باستطاعتهم التنقل إلا على صهوات الجياد والثياب الفاخرة تغطي الحصان وراكبه (بَهيمَتان[1] في إهاب واحد).

ويقول " بينفينوتو أيمولنسي " – أول شارح لأعمال " دانتي " – بعد أن خشي من أن كثيرين من القراء لن يفهموا ما ذهب إليه " دانتي " موضحاً أن (البهيمة الأولى المستخدمة لحمل الأثقال هي الحصان، أما الثانية التي ترتدي الثياب فهي الكاردينال، البهيمة التي لا فائدة منها على الإطلاق).

ويعبر " إيمولنسي " لاحقاً عن رأيه في لو أن " دانتي " عاش بعد مئة سنة لكتب (ثلاث بهائم في إهاب واحد) وهو يشير بهذا إلى عشيقة الكاردينال، ويعيد بذلك إلى الأذهان صورة أحد الكرادلة المعروفين الذي كان يشاهَد يتنقل حيثما كان وعشيقته خلفه على الحصان.

ولا يجوز الحديث عن أخلاق القساوسة والأساقفة والكرادلة دون أن يتناول أيضاً سلوك "آباء الكنيسة" لقد ذاع صيت " بينيديكت الثاني عشر " على أنه واحد من أكثر الناس المتمسكين بالفضيلة، وركن من أركان الأخلاق الرفيعة، لقد راقت لهذا العجوز الفاضل شقيقة " بترارك " الشاعر الذي عاش في كنفه، وهي فتاة رائعة الجمال في الثامنة عشر من عمرها، وعرض البابا على " بترارك " أن يزوجه من أخته مقابل وعد بأن يجعل من الشاعر كاردينالاً.

كان رد " بترارك " المستاء أنه يعتبر الحصول على قبعة الكاردينالية بهذه الشروط عاراً وسلوكاً شائناً سيظل يذكر فظاظته طوال حياته، لكن رفض " بترارك " لم ينقذ شقيقته حيث أقدم أخوه الذي أغراه عرض البابا على تزويجه إياها، وغادر " بترارك " قصر البابا بعد شعوره بالإهانة وتسنى لأخيه فيما بعد أن يلتحق بأحد الأديرة تحت وطأة تأنيب الضمير.

وقد أتى على ذكر هذه الحقيقة كاتب سيرة " بترارك " " سكفار تشيفيكو " والمؤرخون "دوبليسي" و " مورني " ثم " ديبوتي " أيضاً، فيما فضل مؤرخون آخرون للدين (متواضعون) السكوت على هذه الحقيقة فلاذوا بالصمت.

نتوقف عند هذا الحد من مقدمة هذه السيرة بعد أن قدمنا – وعلى عجل – صوراً لطباع بعض الباباوات ونماذج من حياة رجال الدين وهو ما فيه الكفاية لحصول القارئ على بعض التصور والأفكار عن حياة " رجال الدين الروحيين " للكنيسة الغربية والقائمين عليها.

---

[1] – **بهيمتان: مثنى بهيمة.**

. . . . . .

في القرن الرابع عشر وعلى وجه التحديد في نيسان عام 1385 ميلادية، تناهى لأسماع المارّة على الطريق الممتدة على طول الضفة اليسرى لنهر "آرنو" ضجيجاً صادراً من حانة صغيرة تقع خارج مدينة (بيزا) كان يعلو باب هذه الحانة- وبشكل ظاهر للعيان – شعار برونزي حفرت داخله وبلون أبيض ناصع – أخذ مع مرور الزمن يميل إلى السواد – صورة حَمَلٍ وفوقه لوحة تحمل بحروف كبيرة اسم حانة "الحمل الوديع" ووسط هذا الضجيج ومن بين كافة رواد هذه الحانة في ذلك الوقت، كان واحد فقط يلفت إليه الأنظار دون رهبة من التطلع إليه، رغم ما كانت تنم عيناه من ميل للخداع والاحتيال وأثر لجرح بارز من طعنة خنجر في عنقه، وما كان يرتديه من ثياب مغيرة ونعلين لطخهما الطين.

ترى من هم أولئك الرجال الذين بدا من مظهرهم وملابسهم الرثة أنهم رُوّاد أدمنوا على حانة " الحمل " والذين تحلقوا حول الفتى الشاب، بعضهم جلوس والآخر وقوف، وقد تعالت أصواتهم طالبين بإلحاح استفسارات عن معلومات تقلقهم.

كانت وجوههم المشوهة – التي تنم عن أناس احترفوا القتل – تبعث على الرعب، فمنهم معوقون استبدلوا أرجلهم بأطراف خشبية، وآخرون ظهرت على وجوههم وبشكل بارز نُدُوْبٌ دميمة وآثار جروح قديمة، بحيث يمكن الاشتباه فيهم على أنهم بَحّارة عاطلون عن العمل، أو مجرمون فارّون من أعواد المشانق، أو متسوِّلون، أناس من حثالة المجتمع، وضاقت الحلقة حول الفتى الشاب شيئاً فشيئاً وراح الجميع من كل جانب يسألون باضطراب وصوت عالٍ:

- ترى من يكون هذا الذي تتحدث عنه؟ أين هو؟ ومتى سيأتي؟
- كيف تسنى له الإفلات؟ ألم يكن مطارداً؟ وكيف لم يقبضوا عليه؟
- ما نوع السفينة التي يملكها؟ على كل حال هذا لا يهمني فقد وجدت قبطاناً آخر أعمل لديه.

جاءت الكلمات الأخيرة من رجل فظ أعرج، عملاق بعين واحدة وفم معوجّ، مجدور الوجه، وعلا صوته فوق أصوات الجميع، وفيما راح البقية يؤيدونه حاول الفتى الشاب الذي يحمل أثر جرح في عنقه تهدئة خواطرهم:

- سيكون هنا عما قريب، اجلسوا وانتظروا وسيوضح لكم كل شيء .....

وقبل أن يحل الظلام، وفي الوقت الذي كان فيه يجري هذا المشهد داخل الحانة، إلى الشمال قليلاً من " بيزا " وعلى الطريق المؤدية إلى بلدة " لوكا " كان يسمع وقع حوافر خيل، وسرعان ما ظهر أربعة أو خمسة من الخيالة، يغذون السير ناحية " بيزا " حيث وصلوها في اللحظة التي بدأ الحراس فيه بإغلاق بوابات المدينة، فاندفعوا في شوارعها بنفس السرعة مارين بالمقبرة الشهيرة وبالمجمع عند " البرج المائل " ثم بالقرب من قصر رئيس الأساقفة وبعدها، ومن ناحية جامعة المدينة التي لا زالت قائمة حتى الآن في " بيزا " انحرفوا نحو الطريق الموازية لضفة نهر " آرنو " ليتوقفوا بعد ذلك عند حانة " الحمل الوديع ".

ترجَّل الخيالة وكان أول من قفز عن ظهر جواده شاب طويل أسمر عريض المنكبين في حوالي الخامسة والعشرين من العمر، وفيما كان أتباعه يترجلون عن ظهور أجيادهم رفع يديه يساعد شخصاً في النزول إلى الأرض كان طوال الطريق يجلس خلفه على ظهر الحصان.

كان هذا الشخص أنيقاً يرتدي بنطالاً ضيقاً ومعطفاً ظهر من تحته قميص رقيق ناصع البياض، وقد بدا شاباً يافعاً للغاية، بدا كذلك، لأن محيّاه الجميل ذا البشرة البيضاء وعنقه وأذنيه كانت تختفي كلها تقريباً تحت قبعة من تلك القبعات التي كانوا يرتدونها في ذلك العصر.

دخل الجميع إلى الحانة وأفسح لهم جمهور المحتشدين ذوي الثياب الرثة الطريق فيما أخذ ضجيج الأصوات يهدأ شيئاً فشيئاً.

كان الشاب الطويل ذو السحنة السمراء يبدو زعيماً للقوم الذين وفدوا لِتَوَّهِمْ، وبعد أن أجلس صاحبه الفتى وجد لنفسه مكاناً، ثم تناول من حقيبة جلدية معلقة على كتفه إحدى الأوراق، وشرع في قراءتها بصوت عالٍ:(كل ما سنغنمه في عملياتنا سيقسم فوراً إلى أربع حصص: اثنتان منها – أي النصف – ستكون من نصيب الطاقم يتقاسمونه فيما بينهم، ويذهب الربع الباقي لأصدقائي الأوفياء

الشجعان: رينيري – جيوفاني – أفانتو – بيراردو – وبيروردو – والربع الأخير سأحصل عليه أنا بوصفي قبطان السفينة والمشرف على العمليات).

انفجر جمهور الحاضرين بالضجيج، وبدؤوا بانفعال يتناقشون فيما بينهم ما تناهى لأسماعهم، فانتهرهم الشابّ بصوت جهوري ودعاهم للحفاظ على الهدوء والسكينة، ثم تابع تلاوة الشروط:

- كل من يفقد عيناً واحدة خلال العمليات يحصل على تعويض قدره خمسين قطعة ذهبية، دوقات أو فلورينات، أو مئة سكودو أو ريال، أو أربعين أوقية[1] إصدار مدينة " صقلية " أو عبداً مغربياً إذا كان يفضل ذلك.
- وكل من يفقد عينيه الاثنتين يحصل على ثلاثمئة قطعة ذهبية أو دوقات أو مئتين وأربعين أوقية صقلية أو ستمئة سكودو أو ريال، إصدار نابولي، أو ستة عبيد إذا شاء.
- كل من تبتر يده يحصل على مئة قطعة ذهبية فلورين أو دوقات أو مئتي سكودو أو ريال إصدار مدينة نابولي أو / 160 / أوقية صقلية أو يتملك عند رغبته عبدَيْن.
- إن من يفقد يديه الاثنتين يحصل على تعويض قدره ثلاثمئة قطعة ذهبية أو دوقات أو مئتين وأربعين أوقية صقلية أو ستمئة سكودو أو ريال أو ستة عبيد.

بعدها صمت الشاب وألقى من تحت حاجبيه المقطبين نظرة فاحصة على مستمعيه ثم قال:

- هذا كل شيء، هل يرضيكم؟

عَلَت من جديد ضجة وضوضاء، وعلى غير ما هو متوقع، تقدم العملاق الأعرج ذو العين الواحدة باتجاه الشاب الذي كان يتطلع إلى الجميع بكبرياء وقال:

- إيه أنت أيها الدعي المزهو بنفسه، أنا " غونيداتشو بواتاكورسو " لا أطيق هذه الحيل والألاعيب ..... أين سفينتك؟ أرنا إياها أولاً.

واقترب أكثر فأكثر من الشاب فيما كان بقية الحضور يهبون من أماكنهم ويحيطون بالرجل الغريب الذي واصَلَ الجلوس بهدوء وأخيراً قطع صمته قائلاً:

- السفينة ..... سنحصل عليها بأنفسنا.

أثار هذا الجواب ثورة غضب العملاق الذي رفع يده مشيراً إلى الباب وهو يصرخ:

- اغرب عنا ..... ليس عبثاً عندما قلت إنك لا تساوي درهماً.

لم يحرك الشاب ساكناً ولم يرفّ له جفن.

- إيه ..... أنت.

صاح " غويندا تشو بواناكورسو " بصوت أعلى وقد حملق بعينه الوحيدة لدرجة أنها بدت وكأنها ستخرج من محجرها وتابع يقول:

- وأكثر من ذلك تريد أن تكون قبطاناً ..... ولا سفينة لك ..... ثم أمسك بيده الثقيلة الشابَّ من سترته الجلدية وصاح به:
- والآن ... اخرج أنت وصحبك من هنا.

وحدث على حين غرة ما أجبر " غوانيداتشو أبوانا كورسو " على التزام الصمت لهول المفاجأة، إذ قفز خصمه على أحد المقاعد، ثم جمع قبضة يده ووجَّه من عَلٍ ضربة ساحقة إلى صدر العملاق لم يستطع معها حتى أن يرفع يده دفاعاً عن نفسه.

كانت الضربة قويةً ترنح منها " غوانيداتشو كورسو " فارتد إلى الوراء ليهوي على أثرها على الأرض محدثاً دوياً عالياً بعد أن جر معه أشخاصاً كانوا يجلسون خلف طاولة قرب الجدار.

هَمْهَمَ الحشدُ وبدأ الجميع يلقون نظرات من حين لآخر إلى الشاب الذي راح يتطلع إليهم برباطة جأش، ثم قال:

---

[1] - **الأوقية تساوي 29.8 غراماً ذهبياً.**

- قاربان صغيران وآخر كبير بانتظارنا عند ضفة نهر " آرنو " على مقربة من المدينة، فعلى من لا يرغب في الجلوس مكتوف اليدين جائعاً ودون كأس نبيذ، في الوقت الذي تمخر فيه سفن عديدة عبابا البحر بحمولاتها أو ترسو فيه القوارب بالغنائم على ضفاف الأنهار أن يأتي غداً، سنبحر في الصباح الباكر، وإذا ما تسنى لنا فسنستولي على أول سفينة تصادفنا.

نهض الشاب الغريب، ووقف بعده صديقه الفتى ثم بقية صحبه، وخرج الجميع من الحانة إلى حيث كانت تقف جيادهم قريباً من نزل صغير عزموا على قضاء ليلتهم فيه.

وقبل أن يحين صباح اليوم التالي ويتوجه معظم الأشخاص الذين تواجدوا في الحانة إلى الموعد الذي حدده القبطان ويجروا في عرض البحر للانقضاض على أية سفينة، والاستيلاء عليها لتكون وسيلتهم الرئيسية في العمليات القادمة، لا بد من الإجابة على عديد من الأسئلة التي قد تخطر على بال القارئ:

- من هو هذا القبطان؟
- ومن عسى أن يكون صديقه؟
- ومن هم صحبه؟

صحيح أن بعض القراء أدرك سر العمليات القادمة على أنها قرصنة، إلا أنه لا زالت هناك حاجة لنرى لماذا قرروا وبصورة مفاجئة اللجوء إليها؟ وما سبب عَدْوِهِم السريع على الطريق فوق جيادهم كما لو كانوا مطاردين؟ وما هي الأسباب وراء تعقبهم وملاحقتهم؟

سنتعرف في البدء على زعيم الخمسة، الذين وصلوا للحانة، والذي سيترأس فيما بعد أعضاء الشرف منتدى " الحمل الوديع " في " بيزا " أولئك الذين كان عليهم أن يُبْحِروا معهم لسلب السفن والإغارة على المدن الساحلية ونهبها، ثم نتعرف على صديقه الفتى الذي لم يكشف عن وجهه.

الزعيم هو " بالتازار كوسا " بطل قصتنا هذه والذي سيصبح فيما بعد البابا " يوحنا الثالث والعشرين " ، " يوحنا الثالث والعشرون الأول " ، أما مرافقته وصديقته الفتية فهي " ياندرا كابيسترانا ديلاسكالا " الشابة الحسناء و " العرَّافة " القادرة على التنبؤ بالمستقبل، والتي ذاع صيتها قبل أن تثير اهتمام محاكم التفتيش التابعة للكنيسة الغربية.

لقد عانى "كوسا " البالغ من العمر حوالي خمس وعشرين سنة كثيراً في حياته عندما التحق وهو في سن العشرين بالجامعة الشهيرة لمدينة " بولونيا " للدراسة في كلية اللاهوت، وينحدر "كوسا " من عائلة عريقة، إذ كان أبوه أحد إقطاعيي جنوب إيطاليا، يملك جزيرة " إيسيكيا " مع أربعة أخماس القرى الواقعة بالقرب من " نابولي " وإلى الشمال الغربي من خليجها.

ويعود أصل عائلة "كوسا " إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، فقد ورد اسم "كورنيللي كوسا " في عام / 294 / من تأسيس " روما " القديمة كقائد روماني شهير، وهي حقيقة تؤكد أن بطلنا ينتسب لإحدى أعرق عائلات لإيطاليا في القدم.

وكان " غاسبار كوسا " أخو بالتازار الذي يكبره بعدة سنوات بحاراً قديماً، ليس ككل البحارة الذين يعملون على المراكب التجارية أو السفن التي تحمل البضائع والمسافرين الذين دعتهم الضرورة للانتقال من مكان إلى آخر، وإنما ذئباً عجوزاً محترفاً قرصاناً وقبطاناً لأسطول قراصنة اشتهر بغاراته وغزواته المتعددة، لدرجة أن كثيراً من الدول سعت لجذبه إلى جانبها وكسب وُدِّه لِيَشُلَّ أو يقضي نهائياً على تجارة الدول الأخرى المنافسة لها.

وحصل " بالتازار " في إحدى العمليات البحرية مع أخيه وهو ما يزال في الثالثة عشرة على الخبرة القتالية الأولى في " التعميد بنيران الحرب " فطلب " غاسبار " أن يحبسه في عداد طواقم أسطول القراصنة العائد له، كان " بالتازار " فتىً قوي البنية، له السبق الأعلى دائماً في العراك والقتال، ولا يحب إلا منازلة مَنْ هم أكبر منه سناً، وتحلى فضلاً عن القوة الجسدية الهائلة هذه ورباطة الجأش بدهاء فطري، وأتقن فيما بعد على يد بحارة مَهَرَة في " نابولي " المبارزة بالسيف وانتصر دائماً على أشجع الخصوم.

استهوت القرصنة " أدميرال " "(قبطان) الأسطول كوسا حيث عادت عليه بفوائد كثيرة غير متوقعة من أموال وبضائع، غير أن ملذات أخرى أغرت " بالتازار" الشاب فقد كان القراصنة يأخذون من بينهم عدداً غير قليل من الفتيات الجميلات، وتميز وهو لا يزال حدثاً صغيراً بالاهتمام بكتب العشق والغرام إذ انْكَبَّ على قراءتها فور صدوها وقبل أن تصل إلى أيدي الكبار.

وشارك بما عرف من جرأة وجسارة في كافة العمليات الكبيرة في البحر وعلى الشواطئ، وكان يجد نفسه في البيئة التي خلق لها عندما يتسنى له ولصحبه سلب السفن وإحراقها وسوق الأسرى أمامه وخصوصاً النساء والفتيات، وكان القرصان الشاب يختار لنفسه عشيقات منهن، ويستبدل باستمرار من يضجر ويمل منها، أو يعتق البعض مقابل فدية.

وهجر " بالتازار " في يوم من الأيام البديعة هذا النمط من الحياة بفضل تَدَخُّلِ والدته:

- يا بُنَيَّ ..... قالت السيدة "كوسا " لابنها " بالتازار " عندما عاد ذات مرةٍ لجزيرة " إيسيكيا " وزار في طريقه بيت والديه:
- لقد أصبحت شاباً في العشرين، وحان الوقت لأن تسلك الطريق التي اخترناها لك أنا وأبوك، الطريق التي توصلك للمجد والثروة وهي الالتحاق بسلك الكهنوت، وبدلاً من هدر وقتك في غارات القراصنة مثل أشقائك الثلاثة تستطيع وبسرعة الوصول إلى مرتبة قسيس وبعدها تصبح مطراناً ثم كاردينالاً فتفوز ودون عناء بخير وصلاح العالم.

أصغى " بالتازار " لنصيحة أمه واستجاب لها، فهجر القرصنة وسافر إلى مدينة " بولونيا " للالتحاق بكلية اللاهوت في جامعتها الشهيرة، وليكرس نفسه لدراسة قوانين الكنيسة شأن المتنورين في البلدان الأوربية في ذلك الحين الذين توفرت لهم حماية الكنيسة الغربية المهيمنة.

أحرز " بالتازار " في " بولونيا " تفوقاً على أقرانه في الدروس وكافة أنواع النشاطات الأخرى بفضل ذهنه المتوقد، فأعجب به الطلاب وسعوا إلى كسب وده، واعترفوا زعيماً ليس على صعيد كلية اللاهوت وحسب، وإنما على طلاب كافة كليات الجامعة أيضاً، ولم تكن هذه الشهرة بالشيء القليل، خصوصاً وقد عززها المال حيث كانت تصله وباستمرار الريالات النابولية، فعاش ببذخ يبذر الأموال ذات اليمين وذات الشمال، بسبب ودون سبب.

وفي عصر لا يكون فيه النفوذ إلا للقوة والدهاء، برز بابا المستقبل " يوحنا الثالث والعشرون " كظاهرة فريدة، حيث كان في أوج شبابه ذكياً لامعاً ويتدفق حيويةً، ولم يتعرض لأية هزيمة في صراع فردي، وهو يحسن تطوير الأساليب التي توصله للغلبة والانتصار.

كانت هذه الخصال كافية لتجعل منه معبود الطلبة والشباب الذين وفرت لهم استقلالية الجامعة في القرون الوسطى الإحساس بالحرية، فسمحوا لأنفسهم القيام بأعمال طائشة كتلك التي جرت في " بولونيا "، وتَرَأَّسَ بطلنا عشرةً من الطلاب هم أكثر الجميع وَلَعاً وتعلقاً بالفضائح فشكلوا بذلك " أركانه " وحاشيته، وعرفوا بين السكان باسم " الشياطين العشرة " (41).

كان " بالتازار " حديث الجميع في مغامراته الغرامية، فهو شاب جميل رقيق وثريّ، فأحبت النساء هذا الفتى الطويل الأسمر الذكي الداهية، وعرفت الفتيات المراهقات وربات البيوت الناضجات " بالتازار " من وجهه فَرُحْنَ ينظرن إليه برقة وتحبب، بعضهن بخلسة وبوجل، والأخريات جهاراً وبنظرات جريئة، فتعرف على مدى خمس سنوات من الدراسة في كلية اللاهوت على كثيرات منهن، وأقام علاقات مع فتيات وسيدات من أسر ثرية وأخرى متواضعة على حد سواء.

إن الدخول في تفاصيل هذه الغراميات يحتاج لصفحات عديدة لا يتسع لها المجال هنا ونكتفي القول: إن العديد منهن أقمن علاقات مع أصدقائه لمجرد التقرب منه فقط، من بين هذه النسوة (ريناتا فيوروفانتي – بيانكا ديتايوشا – جيلدا بوبوليس – لواندوميا كافالكامبو – وكونستانزا دوفوليانو).

ومن أصدقاء " بالتازار "كان " زينيري غوينتشي " (طالب لاهوت ذو عينين مخادعتين وهو ما سبق وتحدثنا عنه عندما كان بانتظار " بالتازار " في الحانة بمدينة " بيزا ") ، و " جوفاني فيسكي " من " جنوه " وهو طالب طب، و" أفانتو أومبالتيني " من " فلورنسا " وهو طالب حقوق، و" بيوردو فيتيليسي " طالب طب أيضاً، وقد أقدم هؤلاء جميعاً وعن طيبة خاطر على إقامة علاقات مع العشيقات السابقات لزعيمهم.

واحدة فقط أحبت " بالتازار " أكثر من سواها ولم تنحط في إقامة علاقات مع أي من أصدقائه، الوحيدة التي سلكت هذا السلوك فكبت عواطفها في أعماق نفسها، هذه الفتاة هي "إيمادا فيرونا" حسناء، ثرية، في الحادية والعشرين من العمر، راحت تراقب " بالتازار " وهو يتردد في ساعات متأخرة من الليل على حي فقير في " بولونيا " حيث يلتقي مع فتاة بسيطة من عامة الشعب هي " ساندرا جوني ". وسارت الأمور في مجرى آخر مغاير مع عشيقة ثانية لِ"كوسا " هي " مونا أوريتا " زوجة النبيل الغني " لادزارو بينفينوتي " فبعد أن هجرها ولم يطفئ نار شهوتها بعد، حيث لم تدم علاقته معها أكثر من شهر، لم تصبر عليه أو تتساهل معه وتملكتها غَيْرَةٌ جنونية لدرجة أن أوغرت صدر زوجها عليه وحَرَّضَتْهُ على قتله فكاشفته ذات ليلة:

– لاوزارو ..... هل تدري أن أحد الطلبة يلاحقني وبعث لي برسائل غرامية مع بعض العجائز، لم أطلعك عليها حتى لا تهتز وتثور، إلا أنه تمادى بعد أن يئس في الوصول إلى ما يبغي، فاعترضني اليوم في الشارع وأهانني بتوجيه أقذع الشتائم والكلمات النابية الوقحة، لم يسمعه أحد لأنه انفرد بي في مكان منعزل، لقد احتفظت برسائله وإليك إياها.....

ثم أجهشت في البكاء وهي تقول: آه لقد أهانني ....

والحقيقة أن " مونا أوريتا " تصادف وأن التقت مع " بالتازار " في ذلك اليوم، وتوسلت إليه أن يحدد موعداً للقائها، لكنه نصحها بأن تنساه.

لم يضع " لاوزارو بينفينوني " الوقت، فقابل في نفس الليلة أحد القتلة المحترفين في " بولونيا " تلتف حوله عصابة من المجرمين – كما كان شائعاً في المدن الأخرى – وعقد صفقة معه ... في الليلة التالية، وفيما كان " بالتازار " ذاهباً كعادته إلى الحيّ الذي تقطن فيه " ساندرا "كان القاتل يكمن له في ناصية مظلمة وطعنة في ذراعه بخنجر دقيق، لكن ولحسن حظه لم تكن الضربة قوية.

كانت مفاجأة لِ " بالتازار " أربكته فلم يمسك بالقاتل الذي اختفى فارّاً دون ترك أية آثار.

وراح "كوسا " يتساءل في نفسه من الذي دفع هذا الجاني للإقدام على مثل هذا العمل؟ وتوصل لاستنتاج أن ذلك لا بد إلا وأن يكون من فعل أحد أقارب عشيقاته الأخيرات، وقد يكون ابناً أو أخاً أو زوجاً، وقد يكون أباً، وحامت ظنونه حول " مونا أوريتا " لكن ذلك لم يتعد مجرد الظن ولم يصل إلى حد اليقين.

عرض أصدقاء " بالتازار " – وخصوصاً الشياطين العشرة – أن يرافقوه ليلاً لتوفير الحماية له، لكنه رفض بإباءٍ، وأبدى سخريةً من عرضهم وأصر على أن أحداً سواه لا يستطيع القبض على الجاني، وفي وقت متأخر من الليلة التي تلت ذلك وقبل أن يصحو الناس على صوت الديكة معلنةً عن بزوغ فجر يوم جديد، وجهت طعنة خنجر أخرى لِ " بالتازار كوسا " الذي كان يتدثر بمعطف يقيه المطر وهو في طريق العودة من أحضان " ساندرا "كانت الضربة هذه المرة بذراعه اليسرى التي رفعها دفاعاً عن نفسه عند سماعه وقع خطوات خلفه.

انطلق " بالتازار " والدم يسيل من ذراعه كالبرق الخاطف وراء القاتل الذي لاذ بالفرار، فأدركه على مسافة بضع خطوات بعد أن تمكن بدافع الخوف من إلقاء خنجره أرضاً، أمسك "بالتازار" بالجاني فأطبق على خناقه وراح يسأله بغضب وانفعال:

– من غَرَّرَ بك؟ تكلم وإلا أجهزت عليك.

كانت لنظرات "كوسا " التي يتطاير منها الشرر وعزمه الأكيد على تنفيذ تهديده، ما أرغم الرجل على أن يجيب بصوت مختنق من الخوف:

– لا أعرف اسمه، لكنني أستطيع أن أدلك على بيته.

سار "كوسا " وهو ممسك بالرجل باتجاه كنيسة القديس " دومينكان " (القديس الإسباني الذي سبق ذكره ومات هنا في " بولونيا " قبل حوالي مئة وخمسين عاماً، وقد تم منذ عهد قريب تشييد كنيسة تحمل اسمه) وعلى مسافة قليلة إلى الشرق منها توقف الرجل، فأدرك " كوسا " على الفور الدافع الذي يكمن وراء محاولة القتل.

وبعد أن طرح بعض الأسئلة على الرجل ركله على قفاه ثم تركه لحال سبيله، وسار "بالتازار" وهو غارق في هواجسه وظنونه في الشارع العريض حيث تقوم الآن كنيسة " سان ليوتشيه " مُيَمِّماً شطر قصر " بيفينوني " وتسلق كقطٍّ بريٍّ سور القصر ثم قفز منه راكضاً نحو

الغرفة الوحيدة التي يعرفها، والتي كان يتسلل إليها كل ليلة للقاء " مونا أوريتا "، وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه أمام بابها فصرخ بأعلى صوته ليوقظ المرأة .....

- مونا أوريتا .... أين ينام زوجك السعيد ..... ولمح على ضوء مصباح ليلي " بينفينوتي " راقداً إلى جانب زوجته " الوفية " فاقترب من السرير وهو يقهقه:
- إذن .... هذا أنت أيها الهانئ السعيد، راعي القتلة ..... لقد جاء شبحي يشكرك ....

ودون أن يلتفت لصرخات " مونا أوريتا " واستغاثتها أغمد خنجره في عنق " بينفينوتي " ثم أمسك بالمرأة التي راحت ترتجف رعباً لهول المشهد، ولوى يديها، وبعد أن عراها وبكل هدوء دون أن يعير أي اهتمام لوقع خطوات كانت تقترب منه ضم إليه " مونا أوريتا " بقوة وشطب بخنجره شكل نجمة على الصدر الأسمر للمرأة وهو يتمتم بغضب:

- هكذا سأظل في ذاكرتك إلى الأبد.

ظهر في الباب المشرع خادمان اندفعا في الحجرة للدفاع عن سيدة القصر، لكن "كوسا " – وقبل أن يتمكنا من التعرف عليه – نزل إلى الحديقة وقفز من السور ليصبح في الجانب الآخر فيما كان الخادمان يفتحان البوابة لملاحقته، وأسرع "كوسا " هارباً في الشارع المعروف الآن باسم " فياكلاري " باتجاه الحي الذي توجد فيه الآن أيضاً كنيسة " سان جوفاني مونتيه ".

أحسّ " بالتازار " بمطارديه يتعقبانه فقرر أن يلجأ للقفز على جدار حجري عال رآه على يمينه فتسلق شجرة ملاصقة له ومنها نزل فوق الجدار ليهبط بعد ذلك إلى الطرف الآخر وهو يفكر بمطارديه ويتساءل هل شاهداه أم لا؟

وفيما كانت الخيوط الأولى للفجر تظهر توغل بطلنا في بستان حتى وصل بوابة عريضة منخفضة تزيد على طول قامته بقليل ففتحها دونما أدنى صعوبة، وتقدم بكل هدوء ورباطة جأش –كما لو كان صاحب البيت – خلسة وعلى غير عجلة من أمره في ممر طويل وهو ممسك بخنجر احتياطاً لكل طارئ، ورأى في نهايته باباً غريباً ظهرت من خلال درفته اليمنى التي كانت نصف مفتوحة امرأةٌ في متوسط العمر – أغلب الظن أنها خادمة، تحمل قنديلاً، ولاح له على ضوء هذا القنديل مشهداً " مثيراً " لحسناء تصحو في حينه من نومها.

اقتربت الخادمة وطرحت الغطاء عن سيدتها الشابة التي رفعت بحركة رشيقة ودون اكتراث رداءها عالياً فتكشف عن ساقين جمليتين تركتا لتوهما دفء الفراش وأخذت تتحسس بقدميها نعلها الزاهي بالألوان على أرض الغرفة.

راح "كوسا " – الذي رأى وتمتع بحسن وبهاء نساء عديدات يمعن النظر إلى الجمال الفريد لهذه الحسناء التي صعقته، غير قادر أن يرفع عينيه عن الشعر الكستنائي والقد الممشوق والبشرة البيضاء المتوردة والعنق المرمري والنهدين الصلبين اللذين برز أعلاهما من فتحة القميص عند الصدر، وبهرته عيناها اللوزيتان وحاجباها المنحنيان كالسيف، وأهدابها السوداء الكثيفة الطويلة الملائمة لعينيها الساحرتين وأنفها الدقيق المستقيم.

لم يتمالك "كوسا " نفسه من اللهف والوجد، فتمتم بصوت مسموع ..... آية في الجمال... .... معجزة.

وحاول أن يتذكر إن كان قد سبق له رؤية هذه الفتاة خلال إقامته الطويلة في " بولونيا " والتي قاربت خمس سنوات، فلم تسعفه الذاكرة، ففكر عندئذ أنها ربما كانت متوارية عن الأنظار طوال الوقت في هذا المكان.

ارتد " بالتازار " إلى الخلف بحركة سريعة ليتوارى في مكان ما عندما هبت الفتاة التي كانت حسب تقديره في العشرين أو الحادية والعشرين من العمر واقفة عند طرف السرير الذي كانت تجلس عليه وهي تطرح على جسمها الرائع حاشيته من الفرو، وتوجهت نحو الباب، ثم تقدمت في الممر بعد أن اختفت الخادمة، واضطر " بالتازار " إلى الارتداد أكثر فأكثر نحو الخلف فتراجع دون أن تصدر عن حركاته أية أصوات، وهو يرقب الفتاة التي كانت تقترب شيئاً فشيئاً وهي تحمل قنديلاً.

أعجبته مشيتها الرشيقة الخفيفة التي بدت له وكأنها نسمة لا تطأ أرض الغرفة بقدميها ووصلت إلى باب غريب في مظهره أدارت فيه مفتاحاً، وفيما كانت تهم بالدخول إلى غرفة الباب الذي فتحته لفت انتباهها حفيف غير متوقع لحركة ثياب أجبرها على الالتفات حولها، لم يظهر عليها أدنى خوف وبدا كأنها تبحث فقط عن مجرد مكان تضع عليه القنديل.

تساءل "كوسا " .... ترى هل انتبهت لوجوده أم لا؟

أعادت الفتاة إغلاق الباب وهي واقفة أمامه وصفقت بيديها منادية:

- لورينزا .....

وارتجف " بالتازار " للنظرات المتلألئة نحوه باستغراب، وبدا على الفتاة أنها أدركت ما هو عليه من حال وهي تمعن النظر إليه، ثم جاء صوتها الرقيق الملائكي:

- يطاردونك .....

لم يكن باستطاعة "كوسا " أن يدرك إن كان هناك مجرد سؤال أم أنها على يقين فيما تقول؟

اقتربت الخادمة " لورينزا " وهي تطلع بدهشة إلى الدخيل الذي اقتحم عليهم البيت وأصغت لصوت سيدتها الآمر بنبرته:

- الرجل جريح ..... اغسلي له جرحه.

وفتحت الفتاة الباب القريب من جديد، وتناولت القنديل وهي تدخل الغرفة ..... وانصفق الباب خلفها.

وشرد "كوسا " بتفكيره فيما كان ينحني فوق وعاء من الماء تغسل الخادمة له جرحه منه، وراح يفكر في ما تسنى له ملاحظته في الغرفة القريبة التي دخلتها مرتين، وبالأشياء غير المألوفة التي تملؤها، كانت جدرانها قاتمة تميل إلى السواد وقد رسمت عليها أشكال بوجوه بشعة تبعث على الرعب، وتحتها ومن حولها إشارات أشبه ما تكون بالخطوط الهيروغليفية، وشاهد رسوماً لطيور خرافية ببراثن هائلة جداً، وتقابلت على طاولة جمجمتان تبتسم الواحدة للأخرى بخبث، وقد انبعث بصيص ضوء أحمر من مصابيح صغيرة ثبتت في محاجر عيونها، وانتصب في نهاية الغرفة هيكلان عظيمان فيما حطت على الأرض تقريباً من الموقد طيور محنطة وخفافيش غريبة كالطيور التي يرد ذكرها عادةً في الأساطير والخرافات، وتسنى لِ "بالتازار كوسا" أن يلحظ على أرض الغرفة أيضاً رسومات لأشكال هندسية غير مألوفة، وحروفاً وكلمات وصوراً من ورق لعب مبعثرة هنا وهناك، وخنجراً مغمداً في مركز دائرة مرسومة، وعلى طاولة أخرى برزت هاونات تظهر منها مدقات ولعلها كانت مملوءة بشيء ما، وقد ارتمت حولها ثلاثة قلوب مصنوعة من المعدن أو الخشب أو الحجارة ..... لا يدري، كل ما يدريه أن هذه القلوب كانت ملطخة بلون أحمر، فبانت له وكأنها تنزف دماً.

غرق " بابا " المستقبل وسط هذه الدوامة من الأفكار والظنون وراح يتساءل بينه وبين نفسه ترى من تكون هذه الفتاة؟ وكيف تقوى على العيش في هذا الجو المخيف؟

لم يكن بودِّه أن يستفسر من الخادمة أو أن يطرح سؤالاً على أحد، كما لم يكن باستطاعته في نفس الوقت أن ينسى التفكير في أنه شاهد العجب في هذه الغرفة الغامضة التي تمثل بالنسبة له لغزاً محيراً، وكان آخر ما فكر فيه هو كيف لم يعثر عليها أعضاء محاكم التفتيش ورسل البابا الذين يجوبون أقطار أوربا طولاً وعرضاً بحثاً عن أمثالها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكنيسة الغربية في عصور الظلام أي في القرون الوسطى كانت تعتبر كل باحث عن الحقيقة مرتداً عن الدين وتطارده بقسوة، وكان يكفي أن يتهم كل من يقوم بأعمال غير مفهومة لعامة الناس بأنه ساحر يستحضر الأرواح والجن والشياطين.

وهكذا فقد كان الجهل سيفاً مسلطاً على المتنورين الذين لوحقوا بتهمة الهرطقة، وهي مفارقة عجيبة وقع في حبائلها حتى البابا " سيليفستر الثاني[1] " الإنسان المثقف المتعلم الذي كرس حياته لرفع مستوى علوم ذلك العصر فاتهموه بممارسة السحر والشعوذة ووسموه بصديق الشيطان.

---

[1] – هو " هربرت " المولود في " أريباك " والذي عاش في سنة الألف الميلادية، كان عالماً كبيراً تفوق على جميع معاصريه في غربي أوربا، أتقن الرياضيات بشكل لم يعرفها سواه، وكتب عنه " مالمسبيري " في " سفر التاريخ " بنى هربرت في مدينة "رين " – وكان إقطاعياً من شامبانيا – نوافير آية في الجمال تصب ماءها في روضة غناء فتصدر عنها أصواتاً إيقاعية منسجمة، تعيد للذاكرة لحناً ما، وفيما بعد نصب هذا الشخص بابا واشتهر باسم " سلفستر الثاني " لكن تبين أنه يتقن الفيزياء أكثر من إتقانه القيام بواجبات البابا، فاتهمه رجال الكنيسة بأنه يقوم على خدمة الشيطان.

وقد ورد على لسان كاتب سير الباباوات المعروف بلاتينا أن البابا " سيلفستر الثاني " كان يقضي الليالي بانتظام وهو يتحدث إلى الشيطان، ويرون فيما يصفونه إدانة له – أنه اعترف قبل أن توافيه المنية، بأنه كثيراً ما تحادث مع الشيطان وطلب أن تسجى جثته بعد موته في مركبة مصنوعة من خشب

ثاب " بالتازار كوسا " إلى رشده وحيره سؤال: كيف لم تتوصل محاكم التفتيش إلى هذه الجميلة؟

لشجرة اقتطعت لتوها، وأن يشد إلى المركبة حصانان أحدهما أسود والثاني أبيض، وأن يطلقونهما يعدوان بحرية في الشوارع، ثم يقومان بدفنه حيث يتوقفان، وهذا ما حصل بالفعل، فقد انطلق الحصانان يجران المركبة في عديد من شوارع روما وأمام كنيسة لاتيران، وهو المكان الذي دفن فيه البابا " صديق الشيطان " وسط هتاف الآلاف الصاخبة من سكان روما.

وثمة حادثة أخرى تم فيها وصم إنسان بأنه ساحر وكان هذا هو شارل مارتيل رجل البلاط ذائع الصيت والإقطاعي صاحب النفوذ الذي أوقف تقدم العرب في فرنسا.

لم يكن شارل مارتيل بالرجل الذي يمكن أن يوصف بالمتدين وورد في الأسفار التاريخية التي تناولت حياته بأنه كان مكروهاً من الرهبان ورجال الكنيسة الذين اتهموه بالفظاظة ويروون عنه أنه لم يشاهد مرةً واحدةً وهو يصلي، وفرض على الكنائس والأديرة دفع أموال استغلها في الإنفاق على تجهيز القوات، وكان أكثر ما يشغله عادةً تدل على عدم التقوى وهي تقديم الهدايا لأصحابه القدامى، وإطلاق الحرية ليديه في التدخل بقضايا وشؤون تهم الكنيسة وحدها دون غيرها.

ونحدث الرهبان عنه أيضاً فقالوا أنهم لم يتذكروا أنه خسر معركة واحدة، ولم يكن ليتقرب من الرب حيث (كان يقف قبل كل معركة ساعات أمام الشباك التي تنسجها العناكب يعد خيوطها ويحضر لعملية سحر لاحقة ..... وبفضل هذا وحده ربح المعركة.

ويروي القديس " إيفغيري " أسقف أوربان أنه كثيراً ما رأى في منامه " شارل " وهو يحترق في نار جهنم، وإن ملاكاً قال له: إن القديسين حماة الكنيسة الذين ابتزهم شارل هم الذين حرموه دخول الجنة، وطلبوا أيضاً إلقاء جثته خارج القبر.

وكتب " إيفغيري " إلى القديس " يونيفاتسيا " مطران أبرشية " موغونتي وفولرادو " الذي يعيش في بلاط الملك " بيبان " ابن شارل يعلمه بما رآه في منامه، وقام رجال الدين بفتح القبر لكنهم لم يعثروا على الجثة وإنما وجدوا فقط ملابس شارل البالية، وانبعثت من القبر رائحة نتنة كريهة جداً، ثم سمعوا فحيح أفعى هائلة وهي تطل منه.

هذا ما قاله رجال الكنيسة بحق هذا القائد وهو غيض من فيض.

واتهموا بممارسة السحر والشعوذة فيلسوف القرن الثالث عشر " البرت الكبير " لأنه استطاع أن يبرز في علوم عديدة، فقد أوتي قدراً كبيراً من المعرفة بالكيمياء والفيزياء وعلمي النبات والحيوان التي كانت معارف نادرة في ذلك العصر، فبدا في مخيلة عامة الناس أنه كبير السحرة، وجاء في بعض الأسفار أن " البرت " اكتشف حجر الفلاسفة، وورد في غيرها أنه نجح في صنع إنسان آلي يعمل ويتكلم ويجيب على كافة الأسئلة التي توجه إليه، وأن " توما ألاكويني " معاصر " البرت الكبير " الذي أرَّخَ الكنيسة قد حطم في ثورة غضب الإنسان الآلي هذا بعصا غليظة بعد أن عجز عن فهم طبيعة تكوينه.

كانت محاكم التفتيش شبحاً رهيباً خيم على أوربا سنين طويلة، وقد شكلتها الكنيسة الغربية في القرون الوسطى لتقوم بملاحقة المارقين على الدين من الهراطقة، لكنها وقبل عدة سنوات من تاريخه راحت تطارد السحرة أيضاً. لم يتعرض المارقون على الدين حتى هذا التاريخ للملاحقة، ولم يمثل السحرة أمام المحاكم، وبمجرد أن أصبحت الظروف سانحة بالنسبة للكنيسة وتهيأت فرص ملائمة بدأت بملاحقة الهراطقة وشنقهم، وكان ذلك في القرن الذي نتحدث عنه وهو القرن الرابع عشر حيث راحت تطاردهم، وظهر نتيجة ذلك في أوربا أعداد كبيرة من المحاكم، وأصبحت مشاهد أعواد المشانق وعمليات الإعدام مظاهر عادية مألوفة =

= وكان أول من نادى بضرورة تقديم السحرة والمشعوذين للمحاكم وشنقهم هو البابا " يوحنا الثاني والعشرين " ويعزو المؤرخ " ب موريل " ذلك إلى جبن البابا نفسه والوساوس التي انتابته من خصومه، إذ كان يشكو على الدوام أنهم يهددون حياته بأعمالهم السحرية، فأمر عام 1317 في البدء بملاحقة أعداد كبيرة من القائمين على خدمة الكنيسة والكرسي المقدس، واضطر الناس تحت ألوان التعذيب الرهيبة إلى الاعتراف بذنوبهم والإدلاء بما يمليه عليهم القائمون على تعذيبهم، وسرعان ما أوكل " يوحنا الثاني والعشرون " لديوان التفتيش في الفاتيكان مهمة الكشف عن كل ما يمت للسحر والشعوذة بصلة، وإصدار إرادة بابوية حملت اسم " سوبر الليوس سبيكولا " نصت على تشريع يقضي بضرورة إعدام من يمارسون السحر، وعلى أن تنطبق عليهم الأحكام والقوانين النافذة بالنسبة للمارقين على الدين، أي الشنق أو الحرق ومصادرة ممتلكاتهم.

ونورد – على سبيل الذكر لا الحصر – مقتطفات من إرادة هذا البابا السيئ الذكر، والتي كان من نتائجها أن أودت وبشكل مريع بحياة الآلاف من البشر: ((هناك أناس لا يمتون للمسيحية بأية صلة إلا بأسمائهم التي يكنون بها، أنكروا المعجزات والحقائق الإلهية وعقدوا في الخفاء صفقات مع قوى شريرة، يركعون للشيطان ويقدمون له القرابين، ويرسمون بأنفسهم أو يحصلون من غيرهم على صور تمثل قديسين ودوائر ومرايا ليدخلوا بعد ذلك وبفضل فنونهم السحرية بخلوة مع الشيطان يطلبون منه الإجابة على أسئلة مختلفة، وأن يمد لهم يد العون في تنفيذ أفكارهم المناهضة للمسيحية، ليتحولوا بفعلهم الخسيس هذا إلى عبيد وأتباع لهم)).

ويشير الأخصائي " لي " الذي تركزت أعماله حول تقصي أخبار مطاردة الفاتيكان للهراطقة، إلى أن تشريعات البابا " يوحنا الثاني والعشرين " التي ألزمت محاكم التفتيش بالتخلص من المشتبه بهم بالمروق على الدين، قد أسفرت عن نتائج مناقضة تماماً لما كان يتوخى منها، إذ عملت أكثر فأكثر على الترويج للسحر بين الجماهير الذين ظهرت لديهم قناعات بأنه يمثل في الواقع شيئاً جدياً يستحق الاهتمام في الوقت الذي أصبحت فيه المراسيم البابوية للكنيسة الغربية عقيدةً " دوغماتية " جامدة.

سار بطلنا في الممر وهو غارق في التفكير وقد تملكه شبح الحسناء واتجه نحو الباب الخارجي، لم يكن يدري في ذلك الوقت بعد كل ما حصل له في تلك الليلة، بدءاً من محاولة الاعتداء على حياته وجريمة القتل التي ارتكبها وما أعقبها من ملاحقة والمأوى الذي وجده في هذا البيت ولقاؤه مع هذه الحسناء.

لم يكن يدري أن كل هذه الأحداث كانت مصيرية بالنسبة له، وأنها ستكون نقطة تحول ليس في حياته فقط وإنما في التاريخ أيضاً، وأنها ستكون بحد ذاتها ذريعة وسبباً في عدم اعتراف خلفاء القديس " بطرس " اللاحقين بسلفهم " يوحنا الثالث والعشرين " ويتخذوا منها حجة لإنكاره والتبرؤ منه.

قد يكون من الجائز أن يصبح القرصان فيما بعد قسيساً، ثم كاردينالاً وبعدها بابا معترفاً به، ولكن يصعب علينا أن نفهم الآن كيف أمكن لقاتل ولص شهير مارس السلب والنهب على اليابسة وفي البحر – كما سيرى القارئ – أن يصبح " بابا " هكذا مرةً واحدةً دون توبة ولو لأيام، لمجرد أن الصدفة وحدها قد قادته إلى هذه الفتاة؟

سار " بالتازار " على مهل في الممر تجاه الباب الذي تسلل منه وهبط إلى الحديقة، ثم أطلّ برأسه وألقى بحذر نظرة فاحصة على المكان خارجاً، ولما اتضح له – وكان الفجر قد انبلج- أنه لا يوجد أحد خرج إلى الشارع، توجه ببطء نحو الغرب باتجاه قلب المدينة وتوقف في أحد الأحياء (وهو الحي الذي شيد فيه قبل خمس سنوات في بولونيا أكبر مجمع للقديس بيترونيا) حيث كان ينتصب أمامه قصر صديقته السابقة الوفية " إيما دافيرونا " في هذا الصباح الباكر شعرت الفتاة ولأول مرة بعد وفاة والديها بإحساس الحرية التامة والسعادة عندما أفاقت لترى "بالتازار كوسا" عند سريرها.

لفتت انتباهها الذراع المجروحة لبطلنا، الذي راح يحدثها عن محاولتي القتل اللتين تعرض لهما وكيف أمسك بالجاني الذي اعترف له بذنبه، وكيف قاده إلى بيت من دفعه إلى القتل وانتقامه منه بقسوة وكيف قادته الصدفة لبيت حسناء رآها للمرة الأولى.

ابتسمت الفتاة ابتسامة مريرة، وقد أدركت غاية "كوسا " فقالت:

- إنني أفهم يا " بالتازار " الدافع لمجيئك هنا ..... إنك تود أن تعرف من تكون هذه الفتاة؟ يبدو واضحاً أنك نسيت " ياندرا " .... نم الآن وعندما تصحو سأعرف منك كل التفاصيل، لقد توصلت لشيء ما لكنني أريد أن أكون على يقين من ظنوني، وعندما أوقظك بعد أن تنام وتستريح سأشرح لك كل شيء.

ابتسم بطلنا بارتياح ونام في الفراش الذي لا زال يحتفظ بدفء جسم " إيما " بعد أن أرسل لها قبلة في الهواء وهي تقف بالباب.

لقد قالت " إيما " الحقيقة، فهي تعرف الفتاة التي سيطرت على أفكار "كوسا " وملكت عليه عقله، ولو أمعن في التفكير بعض الشيء لتذكر أن " إيما " سبق وأن حدثته – عندما كانت لا تزال عشيقته – عن فتاة شابة من أترابها وصلت من مدينة " فيرونا " حيث ولدت هي أيضاً اسمها " ياندرا ديلاسكالا ".

كانت " ياندرا " أغنى فتاة في " فيرونا " فقد كان أبوها " أنطونيو " وجدها "كانيه ديلاسكالا " حاكمَيْن لهذه المدينة، مثلما كان كذلك أجدادها الأقدمون، وقُتِلَ أبوها منذ عدة سنوات على يد أخيه "بارتولوميو ديلاسكالا " الذي يحكم " فيرونا " الآن، فاضطرت " ياندرا " البالغة من العمر سبعة عشر عاماً سنة / 1381 / - أي قبل أربع سنوات – للهرب خلاصاً من عمها المجرم.

تعرفت " إيما دافيرونا " على " ياندرا " فور وصولها إلى " بولونيا " – وقد أدهشتها بسعة اطلاعها وقدراتها الفذة العالية، كان كل من يعرف " ياندرا " يعتبرها ظاهرة غريبة للغاية واستثناء لم يعرفوا لها مثيلاً، وسرت شائعات مفادها أنها ساحرة وعرافة قادرة على استجلاء الغيب والتنبؤ بالمستقبل، وآمن بذلك – على الأقل – سكان " فيرونا " و " بولونيا " وفي ذلك العصر كان السحر والفلك وكل أنواع البحث والتقصي وحتى قراءة الكتب الوثنية باستثناء مؤلفات "أرسطو طاليس" التي اعترفت بها الكنيسة، يعتبر من أعمال الشيطان ولا يجوز للمسيحي أن يشغل نفسه بها، وإذا ما حامت الشبهة حول أي إنسان يقوم بذلك ألقي القبض عليه لا محالة ليقدم إلى محاكم التفتيش الغيورة على حماية " نقاوة الإيمان المسيحي ".

حدثت " إيما " " بالتازار " عندما أفاق من نومه بعد بضع ساعات بكل ما تعرفه عن "ياندرا" وهو يستمع إليها بكل حواسه، وعندما أنهت حديثها هَمَّ بالخروج، فأسرعت إلى الباب لتحول دون ذلك وقالت له بتوسل:

- بالتازار ..... لا تتردد على " ياندرا " أنت تخاطر بحياتك.

وسألها "كوسا ":

- ..... بسبب " لاودزارو بينفيننتي "؟
- لا ..... لا دخل له في الأمر ..... إنه حي ..... لم يمت، ولن ينتقم منك ..... عليك ألا تذهب إلى " ياندرا ".

وابتسم "كوسا " فيما واصلت " إيما "كلامها بإصرار:

- يجب ألا تذهب إليها ..... ستتحمل عواقب وخيمة إن أنت ذهبت إليها اليوم.

لمست " إيما " عزمه وإصراره وأنها لن تستطيع ثنيه عن رأيه، عندها صرخت بانفعال:

- البيت الذي كنت فيه وحيث تعيش " ياندرا " ليس بيتها، لقد أرسلها إلى هناك الكاردينال "دي سانتاكيارا " وهو على علاقة غرامية بها ويحبها .....

ورفع "كوسا " حاجبيه باستغراب فيما كانت " إيما " تواصل الحديث:

- أخفاها الكاردينال هناك لإنقاذها من محاكم التفتيش التي عادت لملاحقتها، إنك لا تدري ما حدث قبل نصف عام عندما كنت في " بولونيا " لقد ألقوا القبض عليها ودفع الكاردينال رشة لِ " ألبيرينغو جوسيانو " الذي تواطأ معه فسهل لها الهرب ثم واراها الكاردينال عن الأنظار في البيت الذي رأيتها فيه.

اكتفى " بالتازار " وهو يخرج بالقول:

- يا للمسكينة .....

وصرخت " إيما " بيأس:

- " بالتازار "..... لقد قال لي " بوديستا " أن محاكم التفتيش سترسل اليوم من يلقي القبض عليها ..... منذ يومين عرفوا أين تسكن ..... عد أدراجك ولا تخاطر بحياتك.

كانت محاولات " إيما " عبثاً ذهبت أدراج الرياح، واكتفى "كوسا " بأن استدار نحوها مبتسماً وهو يودعها، لقد بدا لها أنه لم يأخذ كلامها على محمل الجد وساورته الظنون في صدق كلامها.

.....

عاد "كوسا " من جديد إلى البيت الذي كان فيه عند الفجر، وانتظر ربة البيت في صالة صغيرة فاخرة تبهر الأنظار بما حوته من أثاث وزخرفة، فحلق بعيداً في تأملاته وراح يفكر بعائلة " ديلاسكالا " في " فيرونا " وبحاكمها الحالي عم " ياندرا " الذي كان وراء هروبها حيث ساقته الأقدار للتعرف عليها.

أحس " بالتازار " فجأة برعشة تسري في كيانه وأن شيئاً ما يجذبه نحوه، وعندما استدار شاهد " ياندرا " والتقت عيناه بنظراتها الهادئة الفاحصة والنفاذة لأعماق النفس، فقال بصوت رخيم:

- سيدتي ..... ألتمس العذر لاقتحامي عليك البيت ليلاً، أو بالأحرى في الصباح الباكر..... أنا " بالتازار كوسا " أمير " بيلانت " ومالك " إيسكيا " و " بروستينتا " جئت أُعَبِّر لك عن عظيم امتناني، إني أشكر القَدَرَ الذي قادني في اللحظة المناسبة إليك وعرفني بأطيب وألطف مخلوقة صادفتها في حياتي.

رفت الرموش الطويلة الكثيفة السوداء للفتاة ووجهت بعينيها الواسعتين السوداوين لتوها نظرة تحمل شيئاً من التهكم، وقالت بصوت رقيق حزين:

- سيد "كوسا " ..... إن أصدق وأوفى مشاعر الرجال لا تمس قلوب النساء، إذا ..... وواصل "كوسا "كلامها متنهداً .....:
- إذا كانت غارقة في حب آخر ..... آخر محظوظ .....

أغمضت " ياندرا ديلاسكالا " عينيها معبرة عن عدم الرضا، وقالت تصحح كلامه:

- لست غارقة بالحب ..... بل غارقة بالامتنان والشعور بالعرفان والجميل تجاه من أنقذني وخلصني من أبشع نهاية هي الموت حرقاً ..... أشعر بالامتنان نحو من بفضله لا زلت على قيد الحياة حتى الآن.

جاءت الكلمات الأخيرة – لا زلت على قيد الحياة حتى الآن – حزينة مؤثرة وكأن صاحبتها تترقب الموت في كل لحظة ولا أمل بالنجاة.

وفكر "كوسا " والهمُّ بادٍ على وجهه ((لماذا لم أكن هنا لإنقاذها بنفسي)).

وفجأةً انتفض في مكانه وهب واقفاً عندما لاحت له ثلاثة أو أربعة رؤوس من فوق جدار الحديقة، فهرع نحو النافذة ليستطلع بشكل أوضح حقيقة هؤلاء الأشخاص، فشاهد غيرهم أيضاً، ومرت في مخيلته سريعاً تحذيرات " إيما " التي استخف بها ولم يصدقها، ثم توجه إلى " ياندرا " صارخاً:

- اهربي يا سيدتي ..... بهذه الطريقة وحدها يمكنك النجاة ..... أسرعي فإن جلادي محاكم التفتيش يطوقون المكان.

تنهدت " ياندرا " وقالت بيأس:

- هيهات .....كنت واثقة أن هذا اليوم ليس ببعيد، لكنني لم أتوقعه أن يكون الآن.
- اهربي سيدتي .....

لاحظ "كوسا " الحديقة من النافذة وقد غصت بالرجال، ثم التفت نحو " ياندرا " التي ابتسمت بمرارة دون أن تبرح مكانها فأمسك بيدها بقوة وجرها نحو الباب، وفكر في أي طريق يسلك، بعيداً عن أنظار الحراس، تباطأت الفتاة وتطاير الشرر من عيني "كوسا " بغضب وحشي وصرخ:

- حان وقتي أن أنقذك ..... وسأنقذك.

أمسك بها ورفعها بين يديه كريشة وراح يهبط الدرج بسرعة، على أمل الوصول إلى البيوت المجاورة والدخول في زحمة المارّة، وما أن وطأت قدماه أرض الشارع حتى فقد كل أمل له بالنجاة إذ أطبق عليه العشرات من جلادي محاكم التفتيش، أنزل " بالتازار " الفتاة أرضاً وأشهر خنجره ودون جدوى طعن اثنين منهم قبل أن يلقوا القبض على " ياندرا ديلاسكالا " و " بالتازار " نفسه.

.....

وفي قلب " بولونيا " وفي قصر " بوديستا " حاكم المدينة الذي يعلوه برج جلس بطلنا في غرفة مظلمة وموصدة تحت حراسة مشددة من أفراد فرقة القديسة " مريم " شبه العسكرية الذين يرتدون الدروع المعدنية وشارات بصلبان حمراء على الصدر (25).

لم يستطع أصدقاء "كوسا " المقربين زيارته رغم محاولاتهم المتعددة، وأخيراً نجحت " إيما دافيرونا " التي توسطت لدى كثيرين من معارفها بما فيهم حاكم المدينة " بوديستا " من الحصول على إذن بالتحدث إلى " بالتازار " لبضع دقائق مساء اليوم العاشر من اعتقاله، فقامت بزيارته، وبعد أن همست له:

- " بالتازار " .....كن مطمئناً فإن مصيرك سيتقرر بعد ثلاثة أشهر، ولن يفعلوا بك شيئاً خلال هذه المدة.
- ويا‌ندرا؟

- أيضاً لن يحصل لها شيء، إذ أن كبير قضاة ديوان التفتيش سيصدر حكمه عليكما مع معتقلين آخرين في يوم واحد.

كان هذا الواقع هو قرار " دومينيكو برنتالينو "كبير قضاة ديوان التفتيش في إيطاليا بعد مضي ثلاثة أيام على اعتقالهما.

وفي اليوم التالي على زيارة " إيما " لِـ " بالتازار " جاء من " فيرونا " أمر هذا القاضي بإحضارهما للمثول أمامه كل على حدة، وقام بنفسه بعملية الاستجواب، بحضور المشرف العام على أعمال التحريات وكاتب وقائع الجلسة، فسأل الفتاة:

- هل تخليت عن الدين وتنكرت للمسيح؟
- لا.
- والسحر ..... أليس زندقة؟ ألم تركعي للشيطان، تصلين له وتتوسلين إليه؟
- لا.
- ألم تقدمي للشيطان أطفالاً كقربان؟ حتى أنهم كانوا أطفالاً لم يعمدوا؟
- لم أقدم كقربان حتى حشرة.
- ألو تقومي بغواية الناس لعبادة الشيطان؟ وكم مرة وقعت في إثم سفاح القربى؟ (احمرَّ وجه الفتاة ولم تجب).
- ألم تُؤدي بحياة الناس؟ ألم تأكلي أعضاء مسلوقة لآدميين؟ ألم تقتلي بشراً بالسم وبتعاويذ سحرية؟ ألست المسببة للجائحة التي أصابت الحيوانات؟ ألم تجلبي داء العقم للنساء؟ وعملت على أن تسقط ثمار الأشجار قبل نضوجها؟

جاءت الأسئلة الأخيرة على شكل حوار فردي " مونولوج " حيث لاذت الفتاة بالصمت، غير أن هذا لم يمنع القاضي من طرح سؤال تقليدي على كل من يتعامل بالسحر.

- ألم تكن لك علاقة جسدية مع الشيطان؟ وإذا لم يكن ذلك يومياً فكم من مرة نمت معه؟

تولدت لدى كبير القضاة بعض القناعات وهو يرى وجنتي " ياندرا " الوردية تزداد احمراراً، ثم وجه لها تهمة رسمية جديدة:

- إن إحدى النساء من ضحايا سحرك انتفخت لدرجة أن غطى بطنها وجهها، وراحت تسمع منه أصواتاً مختلفة تشبه صياح الديكة، وقرق الدجاج، وثغاء الأغنام، وخوار البقر، ونباح الكلاب، وقبع الخنازير، وصهيل الخيل، وقال الذي وشى بك: إن بطن هذه المرأة أصبح أشبه ما يكون بزريبة مواشي.

فوجئت " ياندرا " بكل ما سمعت فأسقط في يدها ولم تنبس بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسها، فاستدعى كبير القضاة أحد الحراس وأوصى بوضع الفتاة في زنزانة، وأمر بإعادتها مع الطالب " العشيق " المدافع عنها إلى " بولونيا ".

كان كبير القضاة على علم بأن الفتاة هي عشيقة الكاردينال " دي سانتاكيارا " ولكي لا يدخل في متاهات ماضي العشيق الحقيقي، وهو أحد أعلام الكنيسة، فقد آثر التغاضي عن ذلك وأن يدخل في روع المؤمنين أن الساحرة أفقدت "كوسا " صوابه فعشقها.

ويتعين على القراء أن يكونوا على علم بأن مدير ديوان التفتيش، حتى وإن كان راهباً بسيطاً، لم يكن ليخشى أحداً ولو كان كاردينالاً بفضل الصلاحيات المخول بها من السلطة الدينية المقدسة، وكان يتبع مباشرةً للكرسي البابوي، ومن هنا لا يجوز الاستخفاف بالأخطار الرهيبة التي تنتظر بطلنا والفتاة وكل الذين يقعون بيد محاكم التفتيش.

قد تبدو التّهم التي أشرنا إليها مدعاة للضحك في الوقت الراهن، إلا أن عقوبة مثل هذه الاتهامات في ذلك العصر هي الموت المحقق والشنيع على يد محاكم التفتيش (سيف الكنيسة الغربية)[1]

---

[1] – كتب " دي بوتي " المؤرخ الشهير الذي عاش في القرن التاسع عشر في مؤلفه " تاريخ المسيحية " كان يتعين على الكاثوليكية أن تلجأ إلى استخدام السلطة والقوة والتعذيب والإرهاب وإلا توقفت عن الاستمرار في الوجود، وهذا ما يفسر ظهور القوانين الجائرة في المحاكم المقدسة، فقد نصت إحدى المواد أنه (يجب المصادقة على تهمة الهرطقة حتى لو شهد على ذلك واشي واحد فقط).

وفي بداية القرن الثالث عشر ظهرت في إيطاليا وفرنسا أولاً، ثم في إسبانيا وألمانيا فيما بعد محاكم التفتيش التي شرعت في ملاحقات لا سابق لها استهدفت المارقين على الدين، ويعود سبب ما أصابت أعمالها من نجاح إلى أنها كانت تتم تحت شعار مكافحة الزنادقة والسحرة " شركاء الشياطين في الجريمة " طبقاً لتشريع قوانين الفاتيكان التي قام على إعدادها خيرة " رجال الكنيسة حكمة وتفكيراً " ولم يكن تنظيم الملاحقات من اختصاص سلطات

تطلع بطلنا الموقوف الآن في أحد أقبية القلعة في قصر " بوديستا " بانتباه إلى " إيما " صديقته القديمة التي حملت له الأخبار، وفكر أن عليه أن يقول لها الكثير قبل أن يأتيها الحراس (أتباع الكنيسة) فهمس لها:

- إيما ..... أرجو أن تبلغي رغبتي، للشياطين العشرة، وليكن لاثنين أو ثلاثة منهم كل على حدة، في أن يذهبوا إلى " نابولي " فيسألوا عن أخي " غاسبار " هناك، ويحدثوه بما جرى، وليبحثوا أيضاً عن زعيم المرتزقة " ألبير جوسيانو " ويخبروه أيضاً، آمل أن يفعلا شيئاً ما هناك ..... المهم أريد إنقاذ " ياندرا " ..... أسرعي في نقل ما قلته لك لِ " رينيري " و " جيوفاني " و" آفانتو " و " بيراردو ".

حاولت الفتاة المسكينة " إيما " أن تخفي قدر المستطاع أساها المرير عندما جاء " أصدقاء الكنيسة " لجرها معهم بعد انقضاء موعد الزيارة، لكن بدا واضحاً على أساريرها – رغم محاولاتها – إخفاء مدى ما تعانيه، كانت تعلم أن ليس بوسع أحد إنقاذ حياة من " ارتكبوا الآثام " وخرجوا على قوانين الكنيسة وأن ليس بمقدور حاكم أو سلطة مهما علا شأنها أن تغير من الواقع في شيء، وهو مصير الموت حرقاً، فراحت تعد نفسها لتقبل هذه المأساة.

كان أقارب وأصدقاء من يتم إعدامهم يحرمون من كافة الحقوق، ويجري حجرهم وكأنهم مصابون بالجذام، ثم يجبرون على ارتداء ثياب " الفضيحة والعار[1] " وتؤول كافة أموالهم إلى حوزة الكنيسة.

كانت " إيما " على يقين أن الموت نفسه لا يعفي المتهمين من الإعدام، ففي مثل هذه الحالات يتم نبش قبورهم وحرق جثثهم.

شيء واحد فقط يمكن الإبقاء على حياتهم هو " الاعتراف المخزي والمهين[2] ".

الكنيسة المحلية، أو أساقفة كل منطقة على حدة، أو السلطات الدنيوية للأقطار، وإنما كانت مركزية في الفاتيكان يشرف عليها البابا نفسه، وقد قامت بتنفيذ كافة عمليات الملاحقة والمطاردة (جمعية الأخوة الرهبانية للقديس دومينيكان) التي أظهرت الولاء والإخلاص للكرسي المقدس، وكان أعضاؤها وكلاء مفوضين من قبل البابا في جميع البلدان، فلجؤوا إلى استخدام كافة الوسائل لتأمين سيطرته على الشعوب، وراح الرهبان "المساكين" يجوبون القرى والمدن يجمعون الصدقات والحسنات التي يعيشون عليها، لكنهم وإلى جانب ذلك كانوا يجمعون الأخبار عن الأشخاص الباحثين عن الحقيقة (وقد اعتبر ذلك سحراً) وعن أولئك الذين يتجرؤون على الشكوى من استهتار البابا وأتباعه ويعيبون حياة الترف والفسق التي يحياها من يقفون على رأس الكنيسة الغربية، واستناداً لهذه المعلومات قدم للمحاكم الأشخاص الداعون إلى إصلاح الكنيسة والعودة بها إلى بساطة الحواريين. ويعلو على الوصف نشاط أعضاء " جمعية الأخوة الرهبانية للقديس بطرس " التي انتشرت في أوربا الغربية تتعقب المارقين على الدين والسحرة الذين خانوا وغدروا بالكنيسة الأم، ولم يتوقف سعي الرهبان للثأر وحبهم للانتقام عند حد، فأحرقوا بيوت ومزروعات المرتدين عن الدين وعبيد الشيطان.

وقد أوعز البابا غونوري الثالث إلى الأساقفة بتسهيل أعمال أعضاء هذه الجمعية الذين وصفهم بالمبشرين الملهمين لتعاليم الكنيسة ورسلها في جميع الأقطار، فقامت السلطات الدينية والدنيوية بتقديم الدعم لهم فشكلت العديد من جماعات الوشاة والمخبرين عن المشتبه بهم =

= وجدير بالذكر أن الملوك والأباطرة اعتبروا أن من صالحهم مساعدة الكنيسة حليفتهم في الكفاح، فسعوا إلى قمع كل فتنة دينية وبسطوا حمايتهم على الرهبان الباحثين في المدن والقرى عن عصابات المرتدين والسحرة، وأمروا بإلقائهم في السجن وتمكين أتباعهم من القبض على المشتبه فيهم (25).

وفي بداية عام 1483 أسند ديوان التفتيش للأب " توما " وعلى مدى ثمانية عشر عاماً من شغله هذا المنصب أحرق في بلد واحد فقط عشرة آلاف إنسان، وقد أقيمت في الأيام التي كانت تجري فيها عمليات إحراق المناهضين لأفكار الكنيسة احتفالات كبيرة تقاطر إليها عشرات الآلاف من البشر من كل صوب وحدب إلى الساحة الرئيسية حيث يقف على كومة من الحطب المحكومون بالمروق من الدين، ولكي يلفتوا انتباه النظارة في هذا " الاحتفال الرسمي " كانت تتم دعوة مسؤولين كباراً من الكنيسة وممثلي الطبقات الراقية وأحياناً الملك نفسه، وكان رجال الكنيسة ينتهزون أمثال هذه الفرص فيتوجهون إلى الأعداد الغفيرة من الجماهير بخطب نارية ضد المرتدين عن الدين، ثم يقدمون في النهاية للحشود التي طال انتظارها هدية هي منظر ومشاهد أناس يحترقون وسط اللهب المتعالي.

ويتسلى الدهماء وهم يتأملون ذلك المشهد الحي، فتزوغ أبصارهم في حيرة ..... إلى من ينظرون وإلى من يتطلعون ثم يهتفون بصوت واحد لخلاص البشرية من أعداء الكنيسة والسلطة السياسية.

[1] – كان يرسم على مقدمة هذه الثياب عند الصدر وعلة خلفها عند الظهر صليب كبير بلون أسود.

[2] – وقع / 17000 / إنسان في إسبانيا عام 1482 فقط " اعترافاً " حيث آثروا هذه الإهانة على الموت وتفادياً للتعذيب الذي يسبق المحاكمة والآلام الرهيبة التي يتعرضون لها لشهور عديدة حتى يتم " انتزاع " اعتراف منهم.

وفي صباح يوم باكر من أيام شباط عام 1385 عَمَّ مدينة " بولونيا " هرج ومرج كأنه يوم النشور، وقد ساد معظم الاضطراب والهيجان قلب المدينة قريباً من قصر " بوديستا " حيث غصت الساحة الممتدة أمامه بأعداد غفيرة من البشر تحركت أشباحهم وسط ظلمة لم ينبلج صبحها، فيما راح خيالة يعدون على صهوات جيادهم هنا وهناك، وعلا المدينة ضجيج اختلطت فيه صيحات الهتافات من مئات الحناجر وقعقعة السلاح وصراخ الرجال مع زعيق وولولة النساء.

ولاحت وسط الجموع الثائرة التي اقتحمت المدينة دون رحمة وجوه مشوهة لرجال مسلحين بالرماح والسيوف والخناجر والهراوات خليط من " قوات " استدعيت على عجل يتزعمها أشخاص لوحت الشمس والرياح سحناتهم فاندفعت للمعركة كالذئاب الجائعة المتعطشة للدماء.

كان أحد قادة هذه الجماعات شاب جميل أسمر في الخامسة والعشرين من العمر يندفع بانفعال ظاهر وهو يفسح الطريق أمامه بسيفه ويصعد الدرج بسرعة، وتمكن في أن يكون أول من يصل إلى الطابق الثاني من برج قلعة القصر، بعد أن وجَّه ضربةً قاتلة لأحد أتباع الكنيسة من الحراس الذي اعترض طريقه ووقف أعلى الدرج صارخاً والسيف بيده يقطر دماً:

– أين ياندرا ديلاسكالا؟.....

منذ شهر بالتمام على هذه الحادثة وبطلنا طليق (وقد تخفى بعض الوقت في بولونيا)، حيث تسنى له الهرب حتى دون أن يستفيد من مبرد دقيق أوصلته له " إيما " خلسةً مع خنجر، وقد واتته الفرصة في اليوم التالي على زيارتها أن يمسك بأحد رؤساء " حرس القديسة مريم

وتم في السنة الأولى لظهور محاكم التفتيش في إسبانيا حرق وقطع رؤوس حوالي ألف إنسان على منصات الإعدام، فيما اعترف سبعة آلاف شخص بذنوبهم وطلوا الغفران فأبقوا على حياتهم، ثم حرقوا هياكل لهم على شكل " فراعات " لإرهاب الآخرين، أما الأشخاص أنفسهم فقد ألقوا في غياهب أقبية سرعان ما لاقوا حتفهم فيها وصادروا بيوت وأملاك أقاربهم وطردوهم من مدنهم وقراهم.

وجرى في إسبانيا ويأمر من الكنيسة تعميد اليهود والمسلمين في الديانة المسيحية، وطرد الملك " فرديناند " الكاثوليكي عام 1492 من إسبانيا كافة اليهود الذين رفضوا اعتناق المسيحية، وقد بلغ عددهم حوالي سبعة ألف أسرة، أي حوالي مليون إنسان، مات الآلاف منهم نتيجة اليأس والجوع والعطش والبرد خلال العواصف في البحر الأبيض المتوسط ومن معاملة البحارة المسيحيين لهم الذين غالباً ما كانوا يلقون بهم في البحر ليستأثروا بما تبقى من طعام يسير لديهم، وكان أسوأ من ذلك معاملة محاكم التفتيش لمسلمي إسبانيا الذين اعتبرتهم " خارجين على الدين " وبكلمات أخرى المحكوم عليهم بالموت والذين ينتظرون عمليات التعذيب الرهيبة ثم الحرق.

وحدث أن بسطت الحكومة حمايتها عليهم، فوافقت الكنيسة على " التسامح " معهم شريطة أن يغادروا إسبانيا إلى الأقطار الإسلامية، وتم بالفعل تحميلهم على السفن.

لكن كيف تسنى لهؤلاء الوصول إلى البلدان الإسلامية، فمن المجموعة الأولى البالغة / 140000 / مات بتأثير العطش / 100000 / ومن المفارقات أن المسلمين أنفسهم كانوا يعتبرون المغاربة – مسلمي إسبانيا – من الكاثوليك الأوربيين، غير أن الكنيسة قضت عليهم بالموت فطردهم الملك من البلاد بوصفهم مسلمين، وباستثناء الذين لاقوا حتفهم نتيجة الأسباب التي ذكرناها فقد مات العديد منهم على يد طواقم السفن التي حملوا عليها حيث كانوا يقتلون الرجال أمام أعين نسائهم ويأخذون الزوجات والبنات كمحظيات وخليلات إلى أن تمل نفوسهم منهن فيلقون بهن إلى البحر ليختاروا غيرهن من جديد.

وهكذا كانت حصيلة مجازر المسلمين واليهود في إسبانيا حوالي ثلاثة ملايين إنسان (63).

وثمة قصة مشهورة في التاريخ هي قصة فرسان المعبد الفرنسيين من جمعية " الأخوة الرهبانية للقديس تامبلر " فقد أقدم الملك والبابا " كليمنتو الخامس " على التخلص منهم للاستئثار بثرواتهم، وذلك بتلفيق تهم سخيفة ضدهم هي الركوع للشيطان والتبرؤ من المسيح والفسق وسفك دماء الأطفال، فثارت عليهم ثائرة السلطتين الدينية والدنيوية وتنادى الجلادون أساقفة " أبرشيات سينا ورونا وروان ، وأساقفة الأرياف إلى اتخذ القرار، فكان ما توصلوا إليه هو إذا أنكر المذنبون اعترافاتهم التي أدلوا بها بعد التحقيق أي " تحت التعذيب " اعتبر ذلك إدانة جديدة لهم في الوقوع بالشرك بالله وارتداد عن الدين والتبرؤ من المسيح وفي الحالتين يجب أن يحرقوا.

وتم رفع الفرسان بمعدل كل خمسة عشر فارس على أكوام من الحطب، ثم أحرقوا أحياء واعتبر الشعب ذلك قصاصاً عادلاً، وبعد دفنهم سرت أقوال بأن جثثهم دنسة فنبش الدهماء قبورهم وأحرقوها من جديد وذروا رمادها في الهواء.

ويروون أن " ياكوف موليه " كبير فرسان الجمعية توجه إلى البابا قبل أن يأتي عليه لهب النيران، فدعاه للمثول أمام الرب بعد أربعين يوماً، والملك بعد عام.

ترى ..... هل كان قضاء وقدراً أن يموت البابا بعد أربعين يوماً من حرق " ياكوف موليه " وأن يلحق به الملك بعد سنة... أليس في هذا من الغرابة ما يكفي؟

" الذي جاء يتفقد حجرته بعد أن كمن له خلف بابها، وأطبق "كوسا " عليه عندما أطل برأسه من نافذة صغيرةً وطَوَّقَ عنقه بسرعة بإحدى يديه وكَمَّ أنفه باليد الأخرى، ثم ضغط بقوة على حنجرة السجان إلى أن فقد وعيه، فتناول منه المفاتيح وفتح الباب، ثم قام بسحب الجثة إلى داخل الحجرة وراح ينزع عنها ثوب الحرب ليرتديه ويتخفى به، لكنه فوجئ بسماع وقع خطوات وصوت ينادي على رئيس الحرس.

فكر بابا المستقبل أن لا وقت للتردد فاندفع من الحجرة وهو يستل خنجراً أغمده في قلب الوافد الجديد وجرَّه إلى الحجرة، ثم طرح عن نفسه وبكل هدوء الثياب التي ألبسوه إياها لشهر كامل وارتدى الزيّ المسيحي.

هبط " بالتازار " الدرج بخطىً ثابتة وهو يخفي خنجراً في ثنايا ملابسه وأنزل القلنسوة التي يضعها على رأسه حتى جبهته، وتحاشى المرور بصالة القصر الكبيرة – وهي الصالة التي عقد فيها بعد خمسة وعشرين عاماً اجتماعاً سريّاً حضره الكرادلة وتم فيه انتخابه بابا– وخرج إلى الساحة الرئيسية ليتوارى بعدها وبسرعة عن الأنظار في شوارع " بولونيا ".

عرج " بالتازار " على بيت " إيما " ليزف لها نبأ فراره وحسب، حيث لم يمكث فيه لعلمه أنه سيكون في أوليات أماكن البحث عنه من قبل محاكم التفتيش، لقد كان يعرف كثيراً الأماكن الآمنة المنعزلة، وعلى الرغم من ذلك لم يكن ليطمئن في المبيت ليلتين متتاليتين في بيت واحد، فأخذ في التنقل صباحاً ومساءً وليلاً من بيت إلى آخر وقد وفر له ذلك آلاف من أشياعه ومحبيه في أوساط جامعة " بولونيا ".

وتسنى لِ "كوسا " أن يلتقي في أحد الأيام مع أخيه الأدميرال " غاسبار " فتعانقا وراح أخوه يحدثه ساخراً، كيف استطاع وقراصنته (كان معه 120 قرصاناً فيما كان آخرون ينتظرونه على السفن في ميناء فياريجو) خداع الحارس والدخول إلى المدينة بعد أن جمعوا في طريقهم إليها قطيعاً من الأغنام والأبقار والماعز، وساقوها بعد أن عرفوا من الرعاة لمن تعود هذه الماشية، وأحكموا وثاقهم في أحد الأكواخ، وأطلقوا خيولهم بين القطيع ثم توجهوا إلى المدينة فدخلوها قبل حلول الظلام وإغلاق بواباتها وأرسلوا القطيع إلى مالكه.

رتب " بالتازار " اجتماعاً بين ممثلين عن الطلبة وأخيه، وفي نهايته التفت " غاسبار إليه متسائلاً:

- هل يمكن وضع حد لهذا الأمر الليلة؟

فأجابه:

- سيحضر " البيرنيغو جوسيانو " مئة شخص لعشر ساعات مقابل ألفين من القطع الذهبية الصغيرة.
- ليكن ..... سيحصل على ما يريد.

تناول " بالتازار " من جيبه خطة كان قد أعدها وأطلع " غاسبار " عليها موضحاً:

- يجب أن تحتشد مع رجالك ليلاً في الساحة أمام قصر " بوديستا " حيث يقع سجنها هناك في البرج، وسيلحق بنا إلى الساحة حوالي ألف طالب مسلح وهم من الشجعان الأقوياء، فيما سيقوم حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف طالب آخرون بالتظاهر غير بعيد عن الساحة لإشغال حراس المدينة والاشتباك معهم إذا استنجد بهم حراس القصر، إن " جوسيانو " على ثقة من أن لا " بوديستا " الحاكم ولا رئيس بلدية " بولونيا " سيتدخلان لوقف ذلك، لأنهما يتمنيان من الصميم أن يقذف أتباع الكنيسة بعيداً عن بلديتهم ..... فالكل يمقتهم.
- حسناً ..... ليشدد زملاؤك الحراسة على أسوار المدينة وخصوصاً عند البوابات الشمالية، حيث سنغادر " بولونيا " منها بعد الانتهاء من هذه القضية.
- أين الفتاة؟

صاح "كوسا " وهو عاقد العزم على إنقاذ الفتاة مهما كلفه الأمر، وهوى بسيفه على أحد أتباع الكنيسة فأصابت ذراعه التي هوت على الأرض دون حراك، ثم عادت صرخاته الغاضبة تدوي في أرجاء القصر:

- أين "ياندرا ديلاسكالا "؟

وواجهه عدد كبير من حراس السجن حائلاً بينه وبين التقدم أكثر فأكثر، فأمسك بسيفه الثقيل بكلتا يديه وراح بحنق يهوي به على الجانبين فتعالت صرخات الألم من اليمين ومن اليسار تشهد على أن ضرباته كانت موجعة وقد أصابت أهدافها، وفجأةً شعر بطلنا بألم قوي في كتفه لم يشاهد الدم لكنه أحس به يسيل.

وأخيراً جاءه الفرج من القراصنة وأصدقائه القدامى الذين تراكضوا يصعدون الدرج كالشياطين، فهجم "كوسا " على رئيس الحراس، وأطبق بيديه على حنجرته، وصرخ في وجهه من شدة التأثر وهو يضغط أكثر فأكثر:

- أين هي؟ أين ياندرا؟

رفع يديه عن عنق رئيس الحراس بعد أن رأى عينيه تجحظان، وشعر بقواه الخائرة فتركه يسقط على الأرض جثةً هامدة، واندفع من الباب الذي حطمه القراصنة وتوجه للفتاة التي مدت إليه يديها وقد انفرجت أساريرها عن ابتسامة ملائكية، وذعرت لرؤية الجرح في كتفه فراحت تمسح عنه الدم بحنان فقال لها:

- ياندرا ..... هل جننت، لا وقت لهذا الآن.

رفعها بين يديه وهبط بها الدرج مسرعاً تحت حراسة عدد من القراصنة ساروا على يمينه ويساره، فوصل بها إلى الشارع ونادى (غاسبار – البيرينغو – جوسيانو – بيودرد – بيراردو – أوفانتو – ريتييري –) يا أعزائي العفاريت أيها الأصدقاء الطلاب قُضِيَ الأمر .. الجميع إلى الجياد ..... هيا إلى البوابات الشمالية.

أسرعت كوكبة الخيالة تعدو على الطريق مبتعدة عن " بولونيا "، فاجتازت قمة جبل " ابنين " التي ترتفع حوالي ألفي متر، ووصلت ظهيرة اليوم التالي إلى مشارف مدينة " بيستو " وهنا فقط ترجَّل بالقرب من مجمع القديس زيتون الشهير قائلاً:

- هل ستأتي معي؟ أو قررت أن تعمل بمفردك؟ وعندما مرا قرب الكاتدرائية تابع قوله: بما أنك قررت العمل مستقلاً سأقدم لك كبداية سفينة وثلاثة قوارب ترسو عند مصب نهر " آرنو " قريباً من " بيزا " وسأترك لك ثلاثين من رجالي، شد " بالتازار " على يد أخيه وقال:
- سأتدبر أمري.
- عد عندما تستطيع.

رد عليه " بالتازار " معارضاً:

- لا ..... سأحصل على كل ما أريد، أما القوارب فسآخذها.

كتب " غاسبار " بضع كلمات على ورقة ناولها لأخيه:

- هذا بصدد القوارب .... سنفترق الآن .... أنا إلى مدينة " بيارجو " وأنت عبر " لوكا " إلى " بيزا ".

. . . . . .

وهكذا ..... وبعد المشهد الصاخب في حانة " الحمل الوديع " الذي سبق وأن تحدثنا عنه توجه بطلنا وصحبه للنوم.

أفاقوا بعد مضي عدة ساعات وتركوا النزل الصغير حيث قضوا ليلتهم قبل أن ينبلج الفجر، وغادروا المدينة مع الخيوط الأولى للفجر متوجهين صوب الغرب وهو يعدون على خيولهم على طول ضفة نهر " آرنو " لا يحيدون عنها، والفتاة " ياندرا ديلاسكالا " ابنة حاكم "فيرونا" السابق بثياب الرجال خلف "كوسا " على حصان واحد، وهي لا تصدق أنها استطاعت الخلاص من السجن بفضل جرأة " بالتازار " في وقت استسلمت فيه لليأس.

لقد فكرت البارحة وهي تقضي الليل في " بيزا " بما سيؤول إليه مصيرها فأحست بالإحباط، وما إن أفاقت صباح اليوم التالي حتى كانت إنسانة أخرى يصعب التعرف عليها، فقد أشرق وجهها وهي تستقبل فجر يوم جديد فأحست بسعادة غامرة بعد كابوس رهيب عاشته ليال طوال في غرفة مظلمة بقصر " بوديستا ".

شاهد " بالتازار " وهو يتطلع إلى الأفق البعيد قوارب أخيه التي خلفها له على مقربة من مصب " آرنو " في بحر أزرق لا متناه ولاحظ ثمة شيئاً هناك، فالتفت نحو أصدقائه وهو يعدون إلى جانبه على خيولهم:

- انظروا أيها الأصدقاء ..... إن الرجال الذين لم يرغبوا في الاستماع إليَّ البارحة في الحانة ينتظرون هناك، لقد جاؤوا ليلاً خشية أن نذهب بدونهم.

وما إن وصل الجميع حتى اقترب من " بالتازار " الرجل ذو العين الواحدة والفم المعوج وهو يجر جسمه الثقيل وتوجه إليه بالحديث:

- طالما أن أصدقائي يذهبون ..... لن أتخلى عنهم.

وبصعوبة منع "كوسا " نفسه من الابتسامة وأصدر أمراً بصوت عالٍ:

- هيا أيها الأصدقاء ..... إلى المراكب.

.....

أربع سنوات وسفن " بالتازار كوسا " تشق عباب البحر الأبيض المتوسط تنقضّ كالعقبان على السفن والمراكب العابرة دون تمييز لمن تعود ملكيتها لمسلمين أم لحكومات أوربا المسيحية، وقَتَلَ هو ورجاله أو أخذوا في الأسر المسافرين والطواقم، ونزل القراصنة على سواحل أفريقيا وأوربا في المدن والقرى وعلى الجزر، ينهبون الفيلات الجميلة والبيوت والأكواخ، ثم يخلفونها طعماً للنيران، لقد استولى "كوسا " ورجاله منذ اليوم الأول على سفينة شراعية ضخمة " أراغون " فكانت النواة لتشكيل أسطول قرصنة متكامل قام " بعمليات "كبيرة، وتجدر الإشارة إلى أن "كوسا "كان يفضل العمل في مناطق " البربر " حيث توجد الآن أقطار (تونس – ليبيا – الجزائر – المغرب) ولم يكن ذلك بدافع حقد على المسلمين، فقد كان أبعد الناس عن مثل هذا التعصب والآراء الباطلة، فقد أغار على مختلف مقاطعات إسبانيا وجزر الكناري وكورسيكا وسردينيا وصقلية، وحتى على المناطق القارية لإيطاليا موطنه الأصلي، والمكان الوحيد الذي لم يتعرض لغاراته هي مقاطعة " بروفانس " الفرنسية التي استمال حاكمها أخاه " غاسبار " وأسطول قراصنته، فتحاشى بذلك التطاول على مقاطعة بسط أخوه حمايته عليها.

وهكذا كان بطلنا يشن غاراته على سواحل الأقطار الإسلامية إذا أعياه البحث في عرض البحر عن المراكب التجارية، ويعود ذلك إلى أن سكان السواحل أنفسهم كانوا قراصنة عادوا إلى أوطانهم بالبضائع النفيسة والمجوهرات، فوفرت مدن البحر الأبيض المتوسط لِ " كوسا " الغنائم الوفيرة، ولم تسلم من شروره " بوزيتا ورافيللو " (القريبة من أمالفيا) وهي الأماكن المجاورة للجزيرة العائدة لأسرة "كوسا ".

لم يأخذ " بالتازار " في بداية أعماله أسرى من مدن الساحل الأفريقي، واتبع في ذلك نظاماً صارماً فرضه على أتباعه، وأفضل العائدات كانت تأتيه أثناء " الحملات " على الأقطار المسيحية من نهب الكنائس، فشملت غنائمه الأطباق والكؤوس الذهبية والفضية، وثياب القداس الموشاة بالفضة، وصناديق ذهبية بما حوته من هبات المؤمنين الميسورين، وبطبيعة الحال فإن محراب الكنيسة كان أول ما يتعرض لعملية الاجتياح والسلب.

وكانت البيوت في بلاد البربر عامرة بالممتلكات التي نهبها القراصنة المغاربة من أوربا، فعدا القطع النقدية الذهبية والفضية لمختلف دوقيات وإمارات وممالك أوربا، وجد "كوسا " فيها الألماس واللؤلؤ وملابس النساء الحريرية الفاخرة والدروع والخوذ الثمينة (لأن معظمها كان مرصعاً بالماس، وقد عثر على بعض الدروع وعليها خمسمئة لؤلؤة إضافةً لقطع من الياقوت الأحمر والأزرق) وثياب الحكّام المزينة بالدرر والجمان، وحصل "كوسا " من فيلات الأثرياء – التي اقتحمها ورجاله وأشعلوا النار فيها بعد ذلك – على أسفاط أو صناديق كبيرة حوت أواني وأطقم ذهبية وفضية، ولم يأت ذلك دون جهد أو عناء، فالمالكون كما يقال يتمسكون بأسنانهم فيما يخصهم، فقد حصلت مجازر رهيبة أقدم فيها رجال "كوسا " على قتل الناس بالجملة في الشوارع والبيوت التي تجمعوا فيها، لقد كانوا كالقطط البرية يتسلقون الأسوار

إلى أسطح المنازل ويحطمون الأبواب ويقفزون من النوافذ وهم يقتحمون البيوت على أصحابها، فسالت دماء كثيرة وصف ذلك بدقة " جوفينيللي " في كتابه " القرصنة ".

أودع "كوسا "كل ما استولى عليه من السفن التجارية في بيت والديه في جزيرة " إيسكا " وكانت معظم حملات هذه السفن القادمة من أفريقيا وآسيا من الملح والدقيق والأقمشة والجلود والسجاد والتوابل والمشروبات، وهي بضائع مفضلة لدى الأغنياء الذين أقبلوا على ابتياعها إلى جانب العبيد المسلمين، كانت كل المراكب في البحر الأبيض المتوسط ودون استثناء، تحمل في طريق العودة إلى أوربا خلال القرن الرابع عشر العبيد من أفريقيا وآسيا، وهي مراكب تعود في ملكيتها إلى المدن التجارية مثل: (فينيسيا – بروفانس – جنوة – نابولي ...) وغيرها، وكان العبيد يباعون في موانئ أوربا للأثرياء الذين يستخدمونهم في أعمال شتى بعد أن يعمدوهم لإنقاذ أرواحهم، وبعدها يقوم العبيد أنفسهم بالتكفير عن ذنوبهم التي ارتكبوها في حياتهم.

. . . . . .

وكان يوم وصل فيه " بالتازار " إلى " إيسيكا " في فترة بين عمليتين، وتوجه إلى بيت والديه فاستوقفته أمه تنصحه بحنان:

- " بالتازار " ..... كفاك ..... إن بيتنا على سعته قد ضاق بما جلبته ..... حتى مدينة "كاستيلو " لن تتسع له إذا واصلت السعي في هذه الطريق ..... ماذا ستفعل بكل هذه الثروة والخيرات؟ " بالتازار " كفاك جلب الأسرى والنساء فقد أصبح عددهن كبيراً، ماذا أفعل بهن وأنت لا تستطيع الزواج بواحدة حتى من فتاة " فيرونا " التي على ظهر السفينة؟ أي بني ..... يجب أن تخدم الكنيسة، من أجل هذا أنجبتك، فكر في الأمر ملياً، لا أريدك أن تعود إلى البحر ثانيةً، فلا حد للمخاطر التي تحياها، ثب إلى رشدك واهجر ما أنت عليه، ليكن هذا آخر ارتحال لك وعندما تعود ابدأ حياة جديدة، قد يقتلونك أنت و " غاسبار " و " ميخائيل " و " جيوفاني " ..... جميعكم انغمستم في هذه الحياة، قد تموتون ..... واغرورقت عيناها بالدموع.

كان "كوسا " يعد بالفعل لعملية كبيرة، فنظرت الأم بأسى إلى عيني ابنها الذي قَطَّبَ حاجبيه وبدا مشغول الفكر والبال، وأمسكت بيده وأجلسته إلى جانبها ثم تابعت:

- انظر لصحتك كيف تدهورت وأصبحت نحيلاً، بحق السماء كفاك عشقاً ونساءً ..... صحيح أنهن جميلات ولكل واحدة رقتها وفتنتها ..... ليس لهن حد ولا نهاية، أخشى عليك يا بني ..... كفاك واحدة، تكفيك " ياندرا " الجميلة، انظر إليها فالمسكينة تعاني من تجاهلك لها وارتمائك في أحضان الأخريات، إنها تدرك كل شيء، ليست غبية وإن لم تصارحك فما ذلك إلا من خجلها ..... انظر كيف تزداد المسكينة شحوباً يوماً بعد يوم وهي تكتم عواطفها وتكبتها.
- أماه ..... أنت مخطئة في هذا ..... الأمر عند " ياندرا " سيان ..... لم تحدثني بشيء ..... فضلاً أنني لم أقدم على شيء علانية ..... فأجابت أمه بإصرار:
- لا ..... لست مخطئة ..... فكر جيداً وإلا فقدتها، فنحن معشر النساء لا نغفر لمن نحب.

قَبَّلَ "كوسا " أمه مودعا ثم خرج.

. . . . . .

كان يوماً بديعاً من أيام الشتاء، غمرت فيه الشمس بأشعتها آفاق البحر الرحبة، سفن "كوسا " تشق بهدوء سطح الماء وقد فتحت أشرعتها على اتساعها عائدةً بحملها الثقيل من سواحل أفريقيا بعد عملية موفقة استهدفت البضائع المكدسة في بعض الموانئ، حملتها إليها آخر القوافل من الصحارى، فضلاً عن حوالي خمسمئة عبد أسود من الفتيان والفتيات كانوا مكبلين، استعداداً لعرضهم للبيع في سوق النخاسة.

ألقت " ياندرا " التي كانت ترتدي بنطالاً ضيقاً نظرةً سريعةً من تحت حاجبين مقطبين على فتاة حبشية أخذ "كوسا " لتوه في إمعان النظر إليها، ثم ابتسمت بتعالٍ وخبث متظاهرة أنها ترقب الشلَّة المرحة المكونة من البيرينغو – جوسيانو – رينيري – هويناتشو – بوناكوارسو الذين يلعبون الورق على ظهر السفينة.

وقف " بالتازار " بعيداً بعض الشيء، رفع رأسه إلى السماء يتطلع إلى الغيوم التي تجمعت منخفضةً قريباً من الأفق، وفجأةً قطع عليه تأملاته صوت قادم من لاعبي الورق:

– ..... خمسون ريالاً ..... سألعب بها كلها .....

التفت "كوسا " وعرف صوت العملاق ذي العين الواحدة المميز عن الجميع، فأيقن انه مهووس بالقمار، واهتم بمعرفة بمن يتحرش فرآه يوجه حديثه لِ " رينيري " محاولاً جره إلى لعبة قمار كبيرة، ولما لم يفلح توجه إلى " البيرينغو " محاولاً إقناعه.

" مقامر محترف " ..... همس بها "كوسا " ورفع عينيه من جديد إلى السماء فظهرت عليه علائم الرضا والارتياح وهو يرقب سحابة صغيرةً بعيدةً، فأيقن أنها ستهب عما قريب نسمة باردة، ومن جديد قطع عليه تفكيره صوت العملاق الذي راح يحدث مستمعيه كيف خسر في إحدى الليالي خمسمئة ريال، هي كل ما وفره في حياته من القرصنة ..... وواصَلَ القول:

– وجن جنوني فاقترضت مئتي ريال من أصدقائي وتابعت اللعب فضاعت هي الأخرى، ولم أجد طريقة لسداد الدين فكان عليَّ أن أعمل لحسابهم مدةً لا أذكرها، الآن وفيت فيها ديني وزاد لدي خمسمئة ريال، جلست في إحدى الليالي أقامر بها ..... فماذا كانت النتيجة؟ لقد ربحت ستة آلاف ريال ..... ثروة كاملة جمعتها وعقدت العزم ألا أعود للعب ثانية، وأن أرجع لِ " بيزا " وأقضي فيها بقية العمر بهدوء واطمئنان، عرجت وأنا في الطريق إلى " بيزا " على إحدى الحانات في " نابولي " لتناول الطعام فالتقيت هناك بمسافر يهودي ثريّ أنهى لتوه تناول الطعام، ولفت انتباهي بنظراته الغريبة التي تدل على رغبته في اللعب معي، لم أتمالك نفسي فعرضت عليه شخصياً أن نلعب الورق فوافق على الفور، ربحت من هذا اليهودي ستمئة وخمسين قطعة ذهبية صغيرة، وشحنة توابل قيمتها خمسة آلاف قطعة أخرى بالإضافة لطاحونة وستين عبدا.

استرعى هذا الحديث انتباه بطلنا فراح يسترق السمع ونسي ما يشغل تفكيره، وتابع "غوانداتشو" يقول:

– وطلب اليهودي مني أن أنتظره وأن لا أغادر المكان إن كانت بي رغبة في مواصلة اللعب، وبالفعل ذهب ولم يطل به الغياب إذ عاد ومعه ألف وخمسمئة ليرة ذهبية أغرتني على استئناف اللعب من جديد، خسرت ما ربحته منه .... وفوقها كل ما أملك ..... حتى قميصي، وعز ذلك على اليهودي فأعاده لي، أما كيف عدت إلى " بيزا " جائعاً لا أملك شروى نقير فهذه قصة أخرى.

أنهى " غوانداتشو " حديثه وعادت الجماعة إلى لعب الورق مضيعة للوقت، وقطب "كوسا " حاجبيه تعلق من جديد وهو ينظر للأشرعة المنتفخة وقد عبأتها الريح، فصدرت عنه شتائم وهو يصعد السفينة إلى برج القيادة بعد أن تناول البوق، وراح يصدر الأوامر لكافة السفن بِطَيِّ الأشرعة والحفاظ على اتجاه الشمال الغربي.

اشتدت الريح وظهر الزبد الأبيض في أعالي الأمواج فيما راحت سحب سوداء تغطي السماء ومع كل عصفة ريح كان يسمع صرير السفن وأنينها، وتمتم العملاق ذو الفم المعوج وهو يجمع أوراق اللعب:

– ما كان يجب أن نأخذ ما وجدناه في " لامبيدوزا " لقد أحسست أن الرب سيقتص منا ويعاقبنا على فعلتنا.

ترى ..... ما الذي كان يعينه هذا الوغد؟ وماذا حصل في " لامبيدوزا " وما هو سر هذا المكان؟

" لامبيدوزا " جزيرة تقع في منتصف البحر الأبيض المتوسط، تقريباً إلى الجنوب من صقلية، وإلى الغرب من " مالطا " بين جزيرة " بانتيلليريه " وميناء " مهدية " التونسي وهي أقرب إليه.

يوجد في منتصف هذه الجزيرة – الواقعة بين أفريقيا وأوربا والتي استخدمت كمنطقة محايدة لسفن القراصنة الأوربيين والعرب من المسيحيين والمسلمين، يوجد كهف واسع عميق علقت على أحد جدرانه صورة غريبة لِ " مريم العذراء " وعلى يديها المسيح وهو طفل صغير، فيما

انتصب بالقرب من الجدار المقابل ضريح لأحد الأولياء المسلمين المغاربة، وامتلأ نصفا الكهف بمختلف السلع والحاجيات، حيث تكدست عند جدار السيدة العذراء أكياس من البسكويت وقوالب كاملة من الجبنة وجرار مليئة بالزيت وأكياس من القهوة ونبيذ ونقود .....

ووجدت في الطرف المقابل قريباً من ضريح " الولي " نفس البضائع والحاجيات تقريباً إضافةً لصناديق حوت ملابس تركية وعربية وفارسية. كانت هذه كلها هبات ونذور خلفها أتباع الديانتين من طواقم السفن المسيحيين والمسلمين خصيصاً للعبيد الفارين إخوانهم في العقيدة الذين يتسنى لهم الخلاص من سفن شحن العبيد القديمة، إذ كان كل عبد يتحرر من السلاسل يقفز إلى الماء ويسبح إلى جزيرة " لامبيدوزا " حيث الكهف والمؤونة بانتظار سفينة هناك لترسو وتقل معها العبيد الذين هم من نفس ديانة أصحابها.

وتحدث القرصان الإسباني " الونزودي كونتريرا " في مذكراته عن هذه الجزيرة يؤكد أن أتباع الديانتين احترموا العادات والتقاليد التي درجوا عليها، ولم يجرؤ أي منهم على المساس بهذه الهبات والنذور، وتكلم "كونتريرا " عن أعاجيب كثيرة سادت الكهف بتأثير من صورة السيدة العذراء فيقول:(أليست عجيبة أن يضيء سراج على الدوام ليل نهار أمام السيدة العذراء حتى لو لم يكن في الجزيرة أي إنسان)؟.

وهكذا لم يجازف إنسان في أن يأخذ معه من الكهف حتى مجرد دبوس بسيط وهو يغادر الجزيرة.

هذه " الكبائر " التي لم يفكر مسيحي أو مسلم مجرد التفكير فيها، أقدم عليها بابا المستقبل " بالتازار كوسا " عند الوصول إلى الجزيرة، فقال وهو ينظر بدهشة إلى البضائع في هذا المكان المقفر:

- ما هذا ..... هيا انقلوها إلى السفن، لا تبقوا على شيء، وتجرأ " غوانداتشو " القرصان العتيق المحترف على أن يسرد على مسامع "كوسا " الأعراف والعادات المعمول بها ورافقه حيث صورة السيدة وروى له بعضاً من الأعاجيب هنا فرد عليه زاجراً ومؤنباً:
- أنت عبيط أبله ..... اشحنوها كلها إلى السفن.

..... هذا ما يتذكره " غوانداتشو " الحزين الآن وهو ينظر إلى السماء المكفهرة والأمواج العالية المتسارعة فتنهد وقد بدت عليه علائم الخوف .....

- آه ..... يا للمأساة ..... لماذا أخذنا الهبات والصدقات من " لامبيدوزا "؟ لو أننا بعنا الخمسمئة عبد والبضائع التي استولينا عليها في مجازر البربر لامتلأت جيوبنا ذهباً ..... ما فائدة هذه الصدقات؟ لقد جلبنا المصائب والويلات لأنفسنا، وجاء صوت "كوسا " أعلى من هوجاء العاصفة:
- بماذا تهذي؟ ..... ومم تتذمر؟
- ماذا يتعين عليّ أن أفعل أيها القبطان؟ أنا رهن إشارتك.
- ساعدهم على طيّ الأشرعة.

اندفع " غوانداتشو " لتنفيذ الأمر بعد أن كاد يهوي في البحر، ودوّى صوت "كوسا " في السفن يصدر الأوامر برفع الحبال وإنزال الأشرعة والحفاظ على اتجاه الشمال الغربي.

زاد هياج البحر وتسارعت الأمواج واشتدت الريح فتأرجحت السفن حتى بدت وكأنها تئن تحت عصفات الإعصار فتمسك "كوسا " بِصارٍ[1] ليتمالك نفسه من الوقوف على قدميه وعدم السقوط، والسفينة تتمايل وتصعد ثم تهبط، وشاهد – على النور الباهت للمشاعل – أشباح الرجال المنهمكين في تنفيذ أوامره وقد جثوا على الأرض يزحفون متشبثين بالحبال والصواري.

وصدرت من داخل السفينة صرخات وعويل استغاثة العبيد والنساء والرجال المكبلين بالسلاسل وقد تَمَلَّكَهُمُ الرعب والجزع، وجلست " ياندرا " على أرض القُمْرَةِ الكبيرة في مقدمة السفينة وهي تتشبث بأحد الأعمدة كأنها قيدت إليه، حتى الرجال الذين اعتادوا البحر ووهبوه

---

[1] – **صارٍ: جمع صواري.**

سنين من عمرهم انتابهم الذهول، فراحوا يبحثون عن أي شيء يتمسكون به فتعلقوا بالحبال والتصقوا بالصواري، وانبطح كثيرون منهم على ظهر السفينة، وقد أمسكت أيديهم بالأطراف البارزة للعنبر الكبير، حيث تكدس العبيد التعساء يتصارخون ويُوَلْوِلُونَ بيأس.

وفجأةً شقَّ بريقٌ السحب السوداء فأضاء المكان وتبعه هزيم رعد ارتعدت له الأوصال، وتساقطت قطرات ماء كبيرة، ثم سرعان ما انهال وابل غزير من المطر، وبدا كأن السماء انشقت عن طوفان هائل ينذر بالأخطار فجاشت على ظهر السفينة تيارات متدفقة من الماء فصرخ "كوسا " :

- إيه ..... لعل المصارف قد سدت ..... هيا نظفوها .....

ولم يستطع أحد أن يأتي بأية حركة.

توالى هزيم الرعد فاختلط بعويل العبيد الهالكين في العنبر مع أصوات تصدع السفينة عند ارتطام الأمواج الهائلة بجوانبها.

فَكَّرَ "كوسا " وهو ينظر إلى الأمواج التي تتقاذف السفينة في عدد الأفراد الذين سيلقون حتفهم غرقاً وفي المياه التي لن يطول الوقت بها حتى تستقر في قاع البحر ..... وفكر أن عليه أن يقوم بشيء ما لإنقاذها.

لم يكن باستطاعة أحد أن يتزحزح من مكانه، وراح الجميع يتطلعون بذهول إلى السماء والماء يتدفق منها، وجاءتهم أصوات العبيد الذين غصت حلوقهم وشرقوا المياه المالحة، وسمع "بالتازار" صوت " ياندرا " الرقيق يتوسل إليه أن يعمل على تحرير العبيد من السلاسل، فقطب حاجبيه وهو يلزم الصمت للاقتراب منها وتفكيره شارد في إنقاذ هذه السفينة على الأقل بعد أن يئس من السفن الأخرى التي لم يعد يرى أي أثر ولو لواحدة منها.

لم يتوقف الرعد واشتد هبوب الريح، وأحالت ومضات البرق المتواصلة الليل إلى نهار، وسكن الصراخ والعويل في العنبر، ولم يعد يسمع سوى صوت أنّاتٍ وبكاء ضعيف من العبيد، الذين بقوا على قيد الحياة يندبون من مات منهم ويتحسرون على حظهم ومصيرهم العاثر.

وتناهي إلى سمع "كوسا " من جديد صوت " ياندرا " المبحوح يسترحمه:

- بالله عليك يا " بالتازار " .....
- وقطع عليها توسلها فجأة عويل غريب أجبرها على التوقف عن متابعة توسلاتها، حيث اندفعت موجة هائلة عالية علو الجبال نحو السفينة من أحد جوانبها، وخرجت متدحرجة من الجانب الآخر تحمل معها صرخات ثلاثين من العبيد جرفتهم بعيداً عن السفينة وسط الأمواج الهائلة، وترنحت السفينة التي ارتفعت مع الموجة التي علاها الزبد، ثم هوت متصدعة وكأنها شقت إلى نصفين.

تسنى لِ "كوسا " الوصول أخيراً حيث توجد " ياندرا " التي بادرته بصوت مضطرب:

- " بالتازار " ..... ربما هلك العبيد جميعاً.
- " ياندرا " ... عم تتحدثين .... إن السفينة تغرق ولا أدري هل سننجو نحن أم لا....

كانت الأصوات الخائرة تستجير من داخل السفينة، والريح تصفر، والمياه تتدفق من الشقوق والثغرات التي أحدثتها فيها، وسمع "كوسا " من جديد تأوهات وشكاوى شخص قريب منه:

- آه ..... لقد حلت بنا الكارثة.

قطب "كوسا " حاجبيه بعد أن عرف صاحب الصوت وصرخ فيه:

- عدت للمواء يا " غوانداتشو " اخرس وهيا اتبعني.

اقترب " بالتازار " بحذر من جانب السفينة وأمسك بعارضة حديدية ثبت بها قارب نجاة صغير وشرع في حل حباله وإنزاله إلى الماء، وتبين له على وميض البرق أن من يساعده هو "رينيري" فيما كان " غوانداتشو " يقف جانباً يتطلع إليهما، ثم جاءت " ياندرا " يساعدها ثلاثة رجال وهبطت إلى القارب ووقف خلفها "كوسا " ولحق به من لحق وصرخ بعدها:

- إلى القارب أيها المتشردون الأنذال.

ولما لم يتلق جواباً عاد فصرخ:

- أما مِنْ حَيٍّ هناك ..... هل جرفتكم المياه جميعاً ....؟

وراعه الصمت من جديد، فلم يسمع سوى هدير الأمواج، فالتفت حينذاك إلى "رينيري " و " غوانداتشو" وأمر أن يمسك كل منهما بمجداف، بعد أن أقعد " ياندرا " في مؤخرة القارب، وجلس هو خلف دفة القيادة وراح ثلاثتهم يحاولون دفع القارب بعيداً عن السفينة فحملته الأمواج للأعلى وهوت به إلى أسفل، فيما كان " غوانداتشو " يحدف بيد ويرسم شارة الصليب باليد الأخرى على صدره عند ومضة كل برق، وهو ينظر بجزع إلى السفينة التي راحت تغوص شيئاً فشيئاً.

وفجأة دوى صوت هائل غطى جميع الأصوات، إذ اندفعت المياه داخل السفينة المحطمة فبلغ هديرها أسماع الجميع، فخر العملاق ذو العينين الواحدة على منكبيه ينوح ويولول بحسرة وجسمه يرتجف رعباً:

- يا إلهي... لقد حانت النهاية.... أنقذنا يا رب وسأهجر هذه المهنة اللعينة إلى الأبد.

ورفعت موجة القارب عالياً ثم هوت به إلى عمق سحيق، فألقت بركابه من أماكنهم بعد أن كادت تقلبه رأساً على عقب، فعاد " غوانداتشو " إلى الابتهال:

- أيتها السيدة العذراء ..... أنقذينا ..... سأتحول إلى قسيس يعمل على خدمتك .....

والتفت إلى "كوسا " راجياً:

- عزيزي القبطان الطيب ..... خذ على نفسك عهداً بأن تصبح قسيساً، ينقذنا الرب، وأنت يا " رينيري " تعهد بذلك أيضاً ليساعدنا الله .....

تذكر "كوسا " أمه وقلقها عليه قبل الإبحار برحلته الأخيرة هذه، وتذكر لهفتها ورغبتها الملِحَّة في أن يلتحق بخدمة الكنيسة، وحلمها في أن تراه بثياب الرهبان ..... تذكر كل هذا فأجاب وهو شارد الذهن في أشبه ما يكون بغيبوبة:

- إذا لم نغرق ونصبح نهباً للأسماك سأكون على استعداد لأن أصبح حتى شماساً.

.....

بعد مرور يوم على هذه الليلة الرهيبة، وفي صباح يوم هادئ سطعت شمسه على طبيعة ساحرة بهية، كان أربعة أشخاص ينامون في ظل شجيرات قريباً من مغارة تعلوها صخرة في أعالي الجبال بعيداً بعض الشيء عن امتداد شاطئ رملي، أشخاص أربعة هم: امرأة وثلاثة رجال بثياب ممزقة مبللة وقد ظهر التعب والإنهاك على وجوههم.

وربما توصل القارئ إلى معرفة أن هؤلاء هم بطلنا وحبيبته واثنان من أتباعه، أولئك الذين كتبت لهم النجاة عند تحطم أسطول القراصنة وغرق كافة السفن بطواقهما ومن فيها من المسافرين العبيد المكبلين بالسلاسل ومعهم كل الخيرات المنهوبة.

كان ركاب القارب قد نجحوا في الوصول به آخر تلك الليلة إلى شاطئ رملي ضحل بعد أن هام ساعات طويلة في عرض البحر، فقال " كوسا ":

- يجب أن نختفي في مكان ما بانتظار الفجر لنتبين أين نحن، أخشى في هذا المكان أن يتعرفوا علينا من أعمالنا السابقة، تذكروا ما فعلناه في " رافيللو " و " بوزيتانو " والزموا جانب الحذر.

وعبثاً حاول أتباعه إقناعه بالبقاء على الشاطئ الرملي لينالوا قسطاً من الراحة بالنوم فأصر على التقدم باتجاه الجبال رغم الإجهاد الذي يعانونه، وهناك فقط وتحت شجيرات من البلوط غطوا في نوم عميق.

وعلى حينِ غِرَّة أفاق "كوسا " وانتصب واقفاً على قدميه، فيما كان أتباعه يشخرون على مقربة منه، وتراءى له شيء ما بعد أن سمع رنين أجراس قطيع من الماعز على مسافة ليست ببعيدة، فتبين أن رجلاً يقف إلى جانب النيام يتطلع إليهم.

لم تنم عن بطلنا أية خلجة اضطراب وألقى بدهاء نظرة إلى يمينه وشماله ليحدد المكان، ومد بصره باتجاه الشاطئ ثم نحو الجبال، حيث رأى بيوتاً خشبية غارقة وسط بقعة خضراء وقد غمرت أشعة الشمس الذهبية أسطحها، وعاد إلى إلقاء نظرةٍ إلى السماء والبحر، بعد هذا وبكل رباطة جأش توجه للراعي قائلاً:

- أيها الرجل الطيب ..... هل تبيعني هذا الحمار؟ يتعين علينا وبأسرع ما يمكن أن نكون في " ميركاتو " وزوجتي لا تقوى على مواصلة السير.

وسحب من نطاق جلدي حافظة نقود وأخرج منها قطعة ذهبية مدها للراعي ولما لم يلمس منه استعداداً لتناولها أخرج قطعةً أخرى .....

- ها أنا ذا أعطيك قطعتين مقابل دابة هزيلة خائرة القوى .....

أيقظ "كوسا " أتباعه وساعد " ياندرا " على امتطاء الحمار ..... وتحرك الجميع على درب الماعز باتجاه " ميركاتو " وحين اختلى بصحبه قال لهم:

- هل تعلمون أين اتفق وَرَسَا بنا القارب ..... إننا الآن على مقربة من " رافيللو و أمالفي " هنا في المكان الذي نهبنا كل قراه منذ مدة نصف عام مضى ..... لقد ضَلَّلْتُ الراعي فقلت له إن وجهتنا " ميركاتو " ونحن الآن في الطريق المعاكس باتجاه " نوتشيرا ".

مضت ثلاثة أيام وعابروا السبيل يَغُزُّوْنَ السير إلى " نوتشيرا " وقد أضناهم التعب، حيث واجهتهم صعاب كثيرة، فكان عليهم صعود بعض الهضاب والاختفاء من بعض مفارز القوات الملكية لِ " نابولي " التي كانت تتوجه إليها أيضاً، وفي اليوم الأخير من هذا المسير الشاق أدرك "كوسا " وصحبه جماعة من أولاد الفلاحين تتراوح أعمارهم بحدود الخامسة عشر يسيرون خلف القوات إلى " نوتشيرا ".

كان واضحاً على بطلنا وصحبه أنهم ليسوا على عجلة من أمرهم في الدخول إلى المدينة دون لزوم جانب الحذر، فتباطؤوا عندما أطلت عليهم، ولم يبق أمامهم سوى نصف ساعة من السير على الأقدام لوصولها، وذلك على أمل أن يدخلوها تحت جنح الظلام، وعلى غير ما هو متوقع انقض فلاحون يتسلحون بالهراوات على " بالتازار " وصحبه، كان عددهم كبيراً لدرجة أن لوح "كوسا " عبثاً بخنجره وطعن ثلاثة منهم، فقد تمكن رابع من ضربه بعصا على يده وإلقاء الخنجر أيضاً، وأمسك الفلاحون بعابري السبيل واقتادوهم إلى " نوتشيرا " حيث أودع الأربعة في حجرة ضاقت بهم داخل برج قلعة المدينة.

- حسناً ..... لقد وفقنا ..... هذا بالضبط ما كنا نسعى إليه ..... ألا يوجد مكان أفضل من هذا ...؟

قالها " غوانداتشو " المتذمر الشاكي دائماً بسخرية فصرخ "كوسا " بوجهه غاضباً:

- اخرس أيها المتباكي المقرف ضعيف الإرادة ..... ترى هل كنا ندري ليلاً أين توقف بنا القارب، لا تتكلم وإلا خنقتك عن غير قصد في ثورة غضبي .....

وفجأةً وقبل أن ينهي جملته اهتزت جدران القلعة على إثر دوي صوت هائل، فرفع " غوانداتشو " يديه مبتهلاً بشكل عفوي ودون إرادة منه:

- يا إلهي ..... لن أتمكن من الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي.

هوى "كوسا " بيده الثقيلة على ظهر العملاق فارتطم رأسه ببلاطة من المرمر، ثم دوت خارج جدران القلعة ضربةً ثانيةً وتبعتها ثالثة، ففكر "كوسا " بينه وبين نفسه:

- ما الذي يجري؟ ترى هل يرمون القلعة؟ لكن المدينة تقع في وسط المملكة، وبقدر ما أعلم لا توجد حرب الآن ..... ماذا يمكن أن يكون هذا؟ وتذكر القوات الملكية التي رأوها في الطريق متوجهة إلى " نوتشيرا " وعاد يسأل نفسه من جديد:

- ماذا يعني كل هذا؟

وظهر بالباب أحد حراس القلعة مسلحاً برمح وإلى جانبه السجان الذي أودعهم هذه الحجرة وصدرت عنه إشارة لِ "كوسا " بأن يتبعه.

نظر "كوسا " بدهشة وهو يصعد الدرج إلى غنى محتويات القلعة، فلم يسبق له قبل الآن رؤية هذه الأبهة والترف، وأحس برعشة تسري في جسده، وهو يمر قرب باب مفتوح لحجرة واسعة شبه مهجورة إلا من أدوات رهيبة ميز منها سياطاً مجدولة، وكرابيج وقُرَب ماء، وحبال وسكاكين، وأطواق ذات حواف حادة، وخطافات ومناشير متنوعة، وطاولات وضعت عليها أدوات أخرى للتعذيب.

اقتيد "كوسا " إلى صالة واسعة تحتل الطابق العلوي للقلعة، وتطل على " نوتشيرا " بشكل يكشف المدينة بكاملها.

لم تهدأ حدة القصف، ولم تتوقف الضربات الموجهة للقلعة.

حاول "كوسا " أن يسرق نظرة عبر النافذة لمعرفة ما يجري، فرأى قوات تحاصر المدينة وتقذف أبنيتها بكتل أحجار هائلة من منجنيقات، نسي " بالتازار " لوهلة الوضع الذي هو فيه، وما آلت إليه الأمور بالنسبة له، وتملكته فكرة واحدة فقط حامت حولها كل ظنونه ..... ما الذي يجري هناك؟ فالقوات المحاصرة للمدينة ليست قوات ملكية بل هي محلية ..... كيف تسير الأمور وأي مجرى تأخذ؟ ومن المقصود بهذا الرجم؟

في صدر القاعة وعلى كرسي وثير يرتفع لحوالي نصف متر على منصة خشبية يذكر بعروش الملوك والقياصرة جلس رجل في حوالي الستين من العمر، ارتسمت على وجهه علامات المهابة والوقار، وبعد أن ألقى نظرةً فاحصةً على "كوسا " سأل باقتضاب:

- هل أنت "كوسا "؟
- لفت انتباه " بالتازار " أن جميع الحضور قد جثوا بخشوع على ركبهم فيما هو وحده واقفاً شامخاً دون اكتراث ..... فعاد الرجل يسأل:
- قاطع الطريق ..... "كوسا " ؟
- القرصان "كوسا " ..... لو سمحت.

وزعزعت جدران القلعة ضربة جديدة فحطمت قطعتان كبيرتان من الأحجار إحدى النوافذ، وتدحرجت في أرض الصالة فخر الحضور وفرائصهم ترتعد، اثنان فقط حافظا على رباطة الجأش ..... "كوسا " والعجوز.

لم يفوت بطلنا الفرصة على نفسه في التفكير فاستدرك يقول بهدوء وبصوت ينم عن الاحترام والوقار والإكبار:

- لقد ألحقت الأذى بالمسلمين الكفرة ..... ولست نادماً على ما أقدمت عليه.

ودحض أحد الراكعين وهو مخي الرأس هذا الادعاء:

- سيدي الحبر الأعظم ..... هذا اللص مسؤول عن مجازر عديدة راح ضحيتها نفر كثير في المدن والقرى الساحلية ..... في " بوزيتانو " و " أمالفي " في " رافيللو " و "مينوركا" و " مايوركا " أيضاً.

اتضح لِ "كوسا " أنه في حضرة البابا – فركع – وهو يحاول قدر الإمكان أن يخفي ما في سلوكه من تكلف ورياء أمام خليفة القديس بطرس وممثل الرب على هذه الأرض، وتوجه إليه بصوت رخيم يحمل معاني الألم والمعاناة:

- أبانا المقدس ..... لقد ارتكبت عن جهل بعض الذنوب، وأنا على أتم الاستعداد أن أرد للناس ما سلبتهم إياه، وأن أعوض عن كل نفر فقدوه من أقاربهم، وإن كان المسيحي قد ألحق الأذى بمسيحيين آخرين أن يطلب المغفرة فإني أطلب أن تغفروا لي فعلتي، ولن أدخر وسعاً في نشر المحبة والسعادة في هذا العالم القلق المضطرب، وجل ما أبغيه هو أن أكون راهباً في دير أو قسيساً في المدينة أو الريف.

وضجت القاعة بهمسات الحضور الذين تكشف لهم نفاق اللص في اصطناع الندم والتوبة حتى أن أحدهم تجرأ على مقاطعة "كوسا " مخاطباً البابا:

- أبانا قدس الأقداس .....

لكنه لم يتمكن من متابعة الكلام حيث هزت أركان القلعة رشقة أخرى، وتطايرت حجارة بحجم حبات البرتقال عبر النوافذ فهمشت الزجاج وتدحرجت عند أقدام البابا الذي كان يجلس مطمئناً إلى أنه سماكة الجدران تحميه، فأشار للجميع بإخلاء القاعة واستبقى اثنين مدججين بالسلاح و " "كوسا ".

انفرجت أسارير البابا عن ابتسامة غريبة مبهمة، عندما وجه نظره إلى "كوسا " وهو يسأل:

- هل كل ما قلته صحيح؟
- نعم أيها الحبر الأعظم، لقد عاهدت الله على ذلك قبل عدة أيام عندما تعرضت سفني المحملة بالبضائع الحرام والعبيد البائسين لعاصفة هوجاء في عرض البحر، وتصدعت ثم تشققت كقشر الجوز، فأقسمت عندها أن ألتحق بسلك الكهنوت إذا نجوت، وأشفق الرب والسيدة العذراء عليّ فكان خلاصي من هذه المحنة، والآن أطمح إلى شيء أكثر من الوفاء بعهدي، فهل توفر لنا هذا أيها الأب لي ولصحبي وهم أختي واثنان من زملائي نذروا أنفسهم لذلك أيضاً، أنقذ أرواحنا أيها الأب ليتسنى لنا في حياة هادئة وديعة أن ندرك قبح أعمالنا وعظيم آثامنا.

وأمسك البابا بصعوبة ابتسامة مبهمة لاحت على شفتيه وبادر إلى القول:

- سنعمل على تنفيذ رغبتك ..... أنت وصحبك أيضاً ..... لكن:

وتنبهت كل حواس "كوسا " فلم يتوقع أية شروط، وراح يفكر بما أعده لهم هذا الداهية .....

- أتوجه إليك بطلب مساعدتي قبل أن ألبسك ثوب الكهنوت، فعلى الجميع أن يساعدوا وأن يساندوا زعيم المسيحية في الصراع مع الأعداء والخونة الذين تجرؤوا على التطاول ليس بتوجيه التّهَم إليّ فقط، وإنما بالتحريض السافر ضد كنيسة عامة.

أحس "كوسا " بالسكينة فأجاب على الفور:

- أبت ..... أنا رهن إشارتك.

ونزل بعد قليل إلى الحجرة، فكان أول ما أقدم عليه هو توجيه صفعة مازحة للعملاق الذي بدا متهالكاً على نفسه متباكياً، وقال له مبشراً:

- وأخيراً وصلنا إلى ما نصبو إليه ..... أيام وأكون دونك مرتبة ..... ستصبح قسيساً وأنا شماساً، والآن اخرجوا من هذه الحجرة ..... فأنتم الطلقاء ..... ثم لوح لأصحابه بكيس مليء بالريالات النابولية الذهبية.

ماذا جرى؟ ماذا طلب البابا؟ .... وعلى ماذا أعطى "كوسا " موافقته؟ من هو هذا البابا وأية صعوبات يواجه؟ وأخيراً ..... مع من يخوض صراعاً؟

لكي تتضح في أذهان القارئ صورة الموت الذي وجد "كوسا " نفسه فيه، لا بد من الحديث عن الشخصية المسيحية الأولى في ذلك الوقت وأحد أعلام الكنيسة العظام ولماذا كان بأمس الحاجة لعَوْنِ "كوسا "؟.

يدور الحديث حول البابا " أوربان السادس " أي حول أول بابا عاد واستقر في إيطاليا، بعدما ما يقرب من مئة عام أقامه الباباوات – التي دار حولها همس كثير – في المدينة الفرنسية "آفينيون" فأشرفوا منها على تسيير أمور الكنيسة بعد أن هجروا " روما[1] ".

---

[1] – ابتاعت البابوية بلدة " آفينيون " من فرنسا، وعاش فيها البابوات ذو الثروة الواسعة حياة نعيم وترف في قصر فخم شيده أسلافهم من الباباوات الفرنسيين، بشكل يناسب سموها (مقام البابوية) وانتقد مفكرون كباراً في ذلك الوقت الباباوات المتوارين عن الأنظار واستنكروا ما أقدما عليهن ونخص بالذكر منهم المفكر " بترارك " الذي عاش طويلاً في بلاط البابوية، فكان واسع الاطلاع وعلى دراية بما جرى آنذاك حيث يقول:(إن كل بابا أقام في أفينيون ضيع قدسيته هناك) ويقارن في أحد مؤلفاته هذه المدينة البابوية ببابل ذات الحدائق المعلقة.

وبطبيعة الحال، فإن أحداً من البابوات لم يفكر في هجر هذا المكان الرائع الذي تسوده الطمأنينة والهدوء ليعود إلى " روما " "المتخلفة" حيث ينتظرهم جمهور متقلب المزاج صعب المراس، غير أن امرأة معروفةً بطهرها وقدسيتها هي القديسة " كاترين دوسين " أفلحت في استدراج " غريغوري الحادي عشر " بالمجيء إلى " روما " واشتهرت هذه المراة الشابة لدى الشعب لأنها – وحسب رأيه – قد (نزل عليها الوحي) فأرغمت البابا على القيام برحلة من آفينيون إلى " روما " التي لم يفكر أن يقيم فيها طويلاً، اشتهرت بيثن شعب بسيط يخشى جانبه، وفيما كان البابا يعد العدة للعودة وافته المنية، دون أن يبلغ غايته، وطبقاً للأعراف، فقد تعين على الكرادلة الاجتماع في نفس المكان الذي أسلم الراحل العظيم روحهلانتخاب خلف له.

في السابع من نيسان عام 1378 التقى ولأول مرة المجْمَع السري للكرادلة في " روما " بعد استراحة طالت ستاً وسبعين سنة لانتخاب بابا جديد.

كان الكرادلة الإيطاليون أربعة فقط، بينما كانت البقية الباقية من الفرنسيين المتلهفين لعودة البابوية إلى " آفينيون " للعيش من جديد في الترف والنعيم، لكن شعب " روما " احتشد بكامله تقريباً أمام القصر – حيث انعقد مجمع الكرادلة – ويعتقد أن حوالي عشرين ألفاً تجمعوا هناك، وهو عدد هائل بالنسبة لذلك القصر، ارتفعت الصيحات وعلت الهتافات وقرع الجمهور أبواب وجدران القصر (في هياج عاطفي غريزي لدى الإيطاليين) مطالبين المجتمعين:

- روماني .... روماني .... نريد رومانياً ..... أو إيطالياً، إذا لم تستطيعوا انتخاب روماني (52).

وعلى الرغم من غالبية الكرادلة الفرنسيين المطلقة، فإن آراءهم لم تلتق حول مرشح واحد، وانشقوا فيما بينهم إلى فرنسيين من الجنوب أصروا على انتخاب ممثليهم وفرنسيين من الشمال عارضوهم في ذلك، وفوَّتوا عليهم الفرصة بالتصويت إلى جانب الكرادلة الإيطاليين الأربعة الذين قرروا انتخاب " بارتولوبينا " أسقف " باري " بابا جديداً لمدة مؤقتة، وكان هذا هو نفسه البابا الذي التقى بطلنا به.

لم يتجرأ الكرادلة على إعلان نتيجة الانتخاب على الشعب، لأن مطالب أهالي " روما " أصبحت في اليوم التالي أكثر وضوحاً، وبلغت أسماعهم من الشارع هتافات:

- يجب أن يكون البابا رومانياً ..... والويل لكم إن لم يكن كذلك ..... (52-72-89) فما السبيل إلى تهدئة خواطر الجمهور الثائر وامتصاص غضبته؟

عقد المجتمعون آمالهم على أحد الكرادلة – الرومانيين الذي عارض ذلك حيث خشي انتقام الجمهور عند اكتشاف الخدعة – ففتحوا أبواب القصر وأطلوا على شعب " روما " ليرى الناس البابا.

- لستُ البابا المنتخب .....

صرخ بذلك الكاردينال " تومبالد " وهو شاحب الوجه من الخوف .....

لكن – ولحسن حظ الكرادلة وحظه – لم يسمع أحد صوت احتجاجه الذي طغى عليه الهرج والمرج، وهتافات الفوز من الجماهير المحتشدة عندما خرج الكرادلة وهم يحيطون بالبابا المنتخب، وعانى الكاردينال " تومبالد " لمدى ساعتين – إلى أن غادر الجمهور ساحة القصر – من إثم الزور والبهتان الذي أقحموه عليه ولا يد له فيه (80).

ويفيد مخطوط تاريخي مدون، وجد في إحدى كنائس " ميتس " أن الكرادلة اتفقوا مع " بارتولوميا برينانو " قبل انتخابه، على أن يتخلى بعد عدة أيام عن كرسي البابوية ووعدوا – مقابل ذلك – بمنحه مرتبة "كاردينال " (حيث كان أسقفاً) إذ كانت نية المجتمعين تتجه لاختيار كاردينال فرنسي من جنيف لمنصب البابا (22) واختبأ الكرادلة بعد عملية الانتخاب في قلاع وقصور " روما " لتفادي سخط وغضب الرومانيين في حال اكتشاف الخدعة ولم يظهروا إلا بعد أن اطمأنوا إلى أن العاصفة قد هدأت، فقاموا وباحتفال رسمي بتنصيب الأسقف " بارتولوميا " بابا للكنيسة الغربية، واتخذ لنفسه اسم " أوربان السادس " وسرعان ما أدرك الكرادلة خطأهم في انتخابه ولو لمدة مؤقتة، ووقفوا على حقيقة أنه أصبح صاحب الأمر والنهي، وأنه إنسان متعطش للسلطة ورجل كنيسة صارم في تنفيذ رغباته وقراراته.

استقر رأي البابا الجديد على الإقامة في إيطاليا في وقت كان الكرادلة على أحَرِّ من الجمر للعودة إلى فرنسا، وقد وصل لأسماعهم انه ينوي حرمانهم من شراء المناصب الكهنوتية أو بيعها (وهو ما عاد على الكرادلة بثروات طائلة).

لم يفوّت " أوربان السادس " الفرصة، فأنعم بمقام الكاردينالية على عدد من الأساقفة الأوفياء، وهو يرى نفسه يجذب بالاتجاه المعاكس للتيار الديني، وشهَّر بخصومه بعبارات سليطة.

اجتمع الكرادلة بعد فترة من الزمن في مكان هادئ ومنعزل في " أنانا " حيث أعلنوا أن انتخاب البابا لم يكن شرعياً، لأنه تم تحت ضغط أهالي " روما " وأوفدوا رسلاً لِ " أوربان " يبلغوه:(وافقنا على أن تستمر في تسيير أمور الكنيسة، لكننا قررنا تعيين وصي عليك يساعدك

في الحفاظ على المنصب ويكون عوناً لك في معالجة جلافتك التي لا تسمح طبيعتك بالتخلي عنها) وقد تحدث عن هذا الأسقف " فوما " أشير في مؤلفه (حول انتخاب البابا أوربان السادس). (75).

استأجر الكرادلة قوات مرتزقة من عدة دويلات وزحفوا بها لمحاربة أنصار البابا، فحصلت مجزرة رهيبة في إيطاليا، وأقدم سكان " روما " على البطش بكل الغرباء، حيث اعتبروهم مشايعين للكرادلة.

ونفذ " أوربان السادس " خطته بتعيين تسعة وعشرين من الكرادلة الجدد، فرد عليه الكرادلة المنشقون من الأسبان والفرنسيين وبعض الإيطاليين بأن تداعوا إلى اجتماع أعلنوا في ختامه أن " أوربان " بابا دعيّ مزيف، حقت عليه اللعنة والحرمان الديني، ونادوا بِـ " روبرت " من سكان " جنيف " بابا جديداً وهو رجل عصابات وقاتل سيء الصيت، كانت فاتحة أعماله ارتكاب مجزرة ضد سكان بلدة " تشيزيني " (76).

وهكذا كان في " أوربا " اثنان من الباباوات يتبادلان اللعنات: أوربان الذي تعترف به غالبية دول إيطاليا وألمانيا وإنكلترا وهنغاريا وبولونيا، وبابا آخر نال اعترافاً من فرنسا واسكوتلندا ومملكة نابولي وسافوي وأسبانيا، وراح كل منهما يكيل التهم للآخر ويكشف فضائحه، وانعكس هذا الوضع على الأبرشيات التي أصبح في كل واحدة منها أسقفان، أحدهما معين من هذا البابا والثاني من ذلك، وكذا الحال بالنسبة للأديرة والكنائس ..... والغريب في الأمر – كما كتب مؤرخ سيرة كليمنت السابع – أن أياً من هؤلاء لم يكن بالإنسان الشريف والمستقيم، حيث استعان البابا "كليمنت السابع " (وهو روبرت الكاردينال السابق لجنيف وصاحب مقر الإقامة في آفينيون) بأناس من حثالة القوم الفاسقين وجاراه في ذلك بل فاق عليه " أوربان السادس " الذي توصل بتأييد " روما " إلى مقام البابا،(66)، ولم يكن يعنيها – بشهادة أحد مؤرخي الكنيسة – ما وصلت إليه الأمور من فساد وانحلال، بل اتجهت اهتمامات كل منهما إلى تجنب الهزيمة بعدم الاستسلام للآخر مهما كانت التحديات والوسيلة المؤدية إلى ذلك، فاستباحت قوات الطرفين المتحاربين كنائس وأديرة الآخر وتدميرها وتركها نهباً للنيران بعد سلب محتوياتها، ولم يعد هناك من حديث يتداوله الناس سوى حديث السرقات واغتصاب الفتيات والنساء وعمليات الإبادة الجماعية التي أقدم عليها أنصار الطرفين، فعمَّ الرعب والفوضى أرجاء أوربا وخصوصاً في إيطاليا وفرنسا.(87).

ومما يدعو للدهشة أن عديداً من شخصيات مرموقة حظيت باحترام الجميع، قد انحرفت بتعصب وراء هذا البابا أو ذاك، وسلك هذا السبيل أيضاً أناس كان معترف بهم في حينه على أنهم " قديسون " فمن الذين شايعوا "كليمنت السابع " خصم " أوربان السادس " مطران أبرشية " لوكسمبورغ " والقديس " فيكينتي فيريو " والقديسة "كوليتا " التي لم يعترف بها من حينه ولمدة مئة عام تقريباً إلى أن شرعت الكنيسة قانوناً برد الاعتبار إليها في عهد البابا " بيو السادس "، وكان لِـ " أوربان السادس " أنصاراً أيضاً في أوساط القديسين منهم " بطرس الأرغوني " و "كاترين دوسيين " وهي القديسة التي تحدثنا عنها عندما رتبت عودة البابا "غريغوري" إلى إيطاليا من فرنسا، وكانت شديدة الحماس لِـ " أوربان السادس " البابا الذي التقى به بطلنا في " نوتشيرا " فأعلنت جهاراً أن الكرادلة الذين وقع اختيارهم على "روبرت" ليسوا من طينة البشر بل شياطين بهيئة آدميين،(16) وقابلت " أوربان " ونصحته بإعلان حملة صليبية ضد البابا الكاذب " البابا المعادي للمسيحية " فعمل بهذه النصيحة فنشبت الحرب على عدة جبهات، واكتوت بنارها مدن عديدة، ولما كانت " حنة " ملكة " نابولي " قد ناصرت البابا المعادي فقد حلت عليها اللعنة الدينية من " أوربان " وحرض الشعب على خلعها ووصفها في أحد بياناته بأنها " ابنة الظلم والخطيئة "، (وقد كان في السابق موالياً ومخلصاً لها حتى أنه كثيراً ما امتدحها)، وأعلن أنها منشقة، وخارجة على الكنيسة وملحدة مسؤولة عن المؤامرة التي تحاك ضده، ومتواطئة في جرم توجيه الإهانة لشخصيته الموقرة، واستباح مملكتها لأنها – كما جاء في مرسوم بابوي – قد لطخت نفسها بالعار، وحادت عن طريق الصواب، فانساقت وراء جرائم فظيعة، وانتهى إلى القول: إن كل أتباعها في حِلٍّ من تقديم الطاعة لها.

لم يكن خلع أي حاكم بالأمر اليسير، فالحاجة تدعو لوجود قوات، وكان على " أوربان " أن يلجأ إلى عاهل يعلن الحرب على ملكة " نابولي " ووجد ضالته في القديسة "كاترين دوسيين " التي توجهت إلى هنغاريا وأقنعت ملكها في أن يدع – ولو إلى حين – الأتراك الذين يهددون أمن بلاده، والتحرك مع قواته إلى إيطاليا لإنزال ضربة بمملكة مسيحية أعلن البابا عدم شرعيتها، ولما كان ملك " هنغاريا " عجوزاً

فقد أرسل على رأس القوات ابن أخيه "كارل دوراتسو " وغطى البابا نفقات هذه الحملة الصليبية من الأموال التي حصل عليها ببيع ممتلكات الكنائس الخاضعة له، ومن الضرائب الباهظة التي فرضها باسم الدين، وقام بصك ذهب الكنائس إلى عملة متداولة احتفظ بقسم منها " لمستقبله " وقدم الباقي لِ "كارل دوراتسو" الذي دخل الحرب إلى جانبه ضد ملكة نابولي " حنة ".

وانتصر الحلف غير المقدس، إذ وقع في البدء زوج الملكة أسيراً، وبعدها تم إلقاء القبض عليها فأودعها " أوربان السادس " في السجن وأمر بخنقها هناك ..... وهو ما حصل بالفعل، ثم نودي بِ "كارل دوراتسو " ملكاً على نابولي.

لكن حسن التفاهم هذا لم يستمر طويلاً بين الملك والبابا، فبعد النجاح الذي حققاه قرر " أوربان السادس " – على اعتبار أنه ساهم في تحقيق هذا النصر بتقديم العون لِ "كارل " – أن تكون له حصة من الغنائم، فدفع بابن أخيه " فرنشيسكو برينيانو " للمطالبة – بدعم من الكرادلة – في أن يسند له منصب دوق "كابويا وأمالفي "، أو يعين في أحد المراكز " دوتشيرا " أو أي شيء من هذا القبيل.

وتوجه البابا مع الكرادلة إلى نابولي حيث استقبله الملك حديث العهد سيراً على الأقدام عند مشارفها بلباس شماس، وأمسك بعنان حصان البابا وهو يدخل به المدينة، وعندما انفرد الإثنان في القصر بادره " أوربان " قائلاً:

– لقد صنعت منك ملكاً فحق عليك أن تجعل من ابن أخي صاحب مكانة في هذه المملكة، دع له مدن (كابويا – أمالفي – نوتشيرا) ومدينتين أو ثلاث أخرى.

امتقع لون "كارل " وظهرت عليه علائم عدم الرضا وسأل:

- ماذا يتبقى لي إن تخليت عن كل هذا؟
- هل تعطي أم لا؟
- لا أرضى بتمزيق المملكة.
- في هذه الحالة أنت مخلوع ..... (74).

كان " برينيانو " ابن أخ البابا سيء السمعة، تميز – حسب ما جاء في الأسفار التاريخية لمعاصريه – بالبلاهة والكسل والتواكل والانغماس في الملذات والمجون.

استدعى " فرانشيسكو " – عندما استقر به المقام بهدوء وطمأنينة في قصر "كارل " – إحدى الراهبات من دير القديسة "كلارا " وألحقها بخدمته واحتج الملك على ذلك:

- أبت ..... ما هذا الذي يقدم عليه ابن أخيكم؟

فأجاب البابا ضاحكاً يبرر ذلك:

- ما زال شاباً يافعاً يصعب عليه كبح شهواته.

وهكذا وفي بحبوحة دون قيد بالنسبة لإنسان لا يقدر على ضبط نزواته العاطفية تجاه النساء خدمت الراهبة الفتى الشاب.

لكن " فرانشيسكو "كما يرى معاصره " ديتريخ فون نيم "كان في ذلك الوقت في الأربعين من عمره، وراح " أوربان السادس " بعد أن استقرت له الأمور في نابولي يحيك الدسائس والمؤامرات لِ "كارل " الذي وصلته شائعات أقلقته ومفادها أن البابا المقيم في " نوتشيرا " لا يتواطأ مع خصومه فقط وإنما يحرض عليه أصدقاءه، فَوَجَّهَ إليه رسالةً تضمنت اقتراحاً في أن يأتي ويقيم في نابولي، ظناً منه أن ذلك يوفر له سهولة مراقبته، والحد من تصرفاته فكان رد البابا:

- لقد بلغ الغرور بك حداً لا طاقة لي باحتماله، فإن كان على واحد منا أن يتحرك باتجاه الآخر فأنت الذي يجب أن يأتي ساجداً إن رغبت بالتحدث إليّ.

وشرع البابا في تحميل الملك تبعات كثير من المظالم على أمل استمالة الشعب إلى جانبه.

- إنك تثقل كاهل الشعب المسكين، الذي يعاني بما فيه الكفاية من الحرمان، بضرائب باهظة عليك أن تعمل على تخفيفها.

لقد أراد " أوربان " بهذه الرسالة أن يستغل الاستياء الاجتماعي لاكتساب نفوذ سياسي عن طريق إقناع الشعب بأنه متهم بشؤونه وحياته اليومية.

وكان رد "كارل ":

- لست من يقرر زيادة أو تخفيض الضرائب في مملكتي، أنصحك بعدم التدخل في شؤون هي من اختصاصي ..... انصرف وكما يحلو لك لتسيير أمور الكنيسة الخاضعة لك فقط.

بعد هذه الرسالة قطع " أوربان السادس "كل العلاقات مع الملك (وصادف ذلك إبحار " كوسا " في آخر رحلة له) لكنه لاحظ أن معظم كرادلته يحافظون على صداقتهم للملك ويتعاطفون معه فأمر باعتقال ستة من خيرتهم ليطلق يديه في كل شيء، ويكون على يقين من أن الذين يحيطون به موالون له فقط، وألقى بالمعتقلين في أقبية قلعة " نوتشيرا " ثم أقدم بصورة أولية على إقناع أحد المقربين له على التواطؤ معه والاعتراف بتهمة التآمر مع الكرادلة ضد البابا.

ومما جاء في حيثيات الاتهام أن الكرادلة:(اجتمعوا للاتفاق على توجيه تهم مزورة وكاذبة ضد البابا والقيام بناء عليها باعتقاله ومحاكمته والإعلان بعدها أنه مارق على الدين وخلعه.... (76)).

وكتب " ديتريخ فون نيم " الذي عاصر هذه الأحداث وكان شاهداً عليها، وسكرتيراً للبابا، أن أوربان السادس دبر هذه المكيدة للتخلص من أكثر الكاردينالات تأثيراً على الرأي العام، ولم يكتف بذلك بل قام باعتقال رجال دين من مختلف المقامات بينهم قساوسة وأساقفة، وعرضهم للتعذيب لانتزاع ((اعترافات بذنوبهم)) وأعلن الحرمان الديني على "كارل " ملك نابولي وزميله في الكفاح ضد الملكة " حنّة " ولحقت اللعنة أيضاً بزوجته الملكة " مارغريت " وبنسلها ((حتى الجيل الرابع)).

وعين " أوربان السادس " بدلاً من الكرادلة المشتبه بهم في التعاطف مع "كارل " والذين زج بهم في السجن للاعتراف تحت التعذيب بأنهم مذنبون، كرادلة جدد من نابولي يناصبون الملك العداء، وجميعهم من المرتشين الفاسقين، ويرى سكرتير ديوان البابا (ديتريخ فون نيم) المطلع على خفايا الأمور وعلى ما كان يجري في نابولي، كيف راحت سيدات على مستوى في المدينة يتندرن على سبيل التسلية فقط (يجب دعوة أعزائنا الكرادلة وإقامة حفل لهم).

في اليوم الثاني على حديثه مع " أوربان السادس " قام بطلنا بجمع قوات البابوية واختار عدة عناصر أغار معهم وبشكل غير متوقع على قوات العدو، فاستولى على أحد عشر منجنيقاً، ثم قاد بعد ذلك هجوماً ناجحاً تمكن من طرد القوات المحاصرة للمدينة حتى ساحل البحر، وجاءته رغبة البابا في لقائه فتوجه إليه:

- هل صحيح ما قلت من أنك علم من أعلام اللاهوت؟
- ليس هذا ما قلته بالضبط، لقد تطرقت بالحديث إلى أنني أعرف اللاهوت وقوانين الكنيسة أيضاً،حيث درست خمس سنوات في " بولونيا " وكنت متفوقاً وأرغمتني الظروف على أن أنقطع عن الدراسة، ولم أحصل على الدبلوم بعد، غير أنه لا أهمية لذلك فقد تقدمت في دراستي على جميع أقراني.

لمعت عينا " أوربان " وهو يتوجه بالحديث إلى "كوسا ":

- اسمع ..... لقد تسلم " دوراتسو " من يدي عرش الملكة " حنة " ويوقد الآن – ناكر الجميل- حرباً ضدي، فكشف بذلك عن عدائه السافر للكنيسة، ولم يكتف بتوجيه القوات لمحاربتي بل راح يسعى –كما لو كان شيطاناً – إلى السيطرة على عقول الناس وخصوصاً الكرادلة الفاسقين المتهتكين، ويدير المكائد للكرسي المقدس، إن لديّ عديد من الكرادلة الذين تحوم حولهم الشبهات، وسأعهد إليك بالتحقيق معهم بمجرد أن أدفع أخطار قوات "كارل " بعيداً.
- أين هم الآن؟
- في سراديب القلعة، حيث أصدرت أوامري بإلقائهم هناك، وستبدأ التحقيق معهم فور تسميتك بمرتبة رجل الدين التي سَنَرْتَقيها، وحتى ذلك الحين سيواصل التحقيق ابن أخي وسأتولى ذلك بنفسي بين كل فترة وفترة.

لقد أجمعت كافة الأسفار التاريخية على التنديد بشخص البابا " أوربان السادس " حيث وصفته " بقاتل الباباوات " والسِّكِّير الوحش المتعطش للدماء، القادر على ارتكاب كل أنواع الجرائم والشرور، كما أطلق عليه الباحثون المعاصرون المهتمون بشؤون الكنيسة الكاثوليكية اسم " البابا الطاغية المغتصب " هذا ويسميه رئيس الأساقفة الكاثوليك " بوندريار " مجنوناً بينما يؤكد القس " موري " على أن البابا " أوربان السادس " كان مهووساً (74).

تتحدث إحدى المخطوطات عن أعمال التعذيب والتنكيل التي تعرض لها – على يد أوربان – الأساقفة والكرادلة المثقفون كانت مهلكة وقاسية إلى حد أن بعض هؤلاء المعتقلين فارق الحياة، أما الذين ظلوا على قيد الحياة فإنهم أصبحوا مشوهين من جراء الكسور والرضوض التي أصابتهم.

وها هو " ديتريخ فون نيم " الذي يعرف أكثر من غيره بحكم عمله سكرتيراً للبابا، يقص ما حدث في تلك الأعوام، إنه يتحدث عن تفاصيل الأعمال الرهيبة التي استهدفت تعذيب الأساقفة والكرادلة، وعن انعدام الشفقة والروح الإنسانية لدى البابا " أوربان السادس " ويشير "فون نيم" إلى أن جميع ما يقوله رآه بأم عينه عندما كان يحضر التحقيقات ويدون أقوال وإفادات المعذبين.

ويستطرد " فون نيم " قائلاً: بأن رجال الدين المقيدين بالسلاسل كانوا ينقلون من الأقبية إلى حجرة التعذيب، حيث كان يجلس المحقق (بطلنا) الذي ينفذ واجباته بدأب ونشاط، ويحاول عن طريق أعمال التنكيل والتعذيب اليومية انتزاع " الاعترافات " وغالباً ما كان يحضر في هذه الأثناء " أوربان " وابن أخيه.

إن " أوربان السادس " نفسه هو الذي أصدر إلى "كوسا " توجيهاته حول كيفية إجراء التحقيق.

– يجب عليك ألا تلقي عليهم التهم المباشرة، بل ينبغي عليك أن تسأل فقط: ماذا فعلت؟ ولماذا ألقوا القبض عليك؟ وهم بالطبع لن يجيبوا، وعندئذ تستطيع أن توعز بنقلهم إلى حجرة التعذيب.

وبدأ " بالتازار كوسا " مع صديقيه " رينيري هونجي و غوانداتشو بوناكورسو " – الذين أصبحا الآن من رجال الدين – أعمالهم السوداء هذه، والغرابة في الأمر هو أن هؤلاء الرجال – ذوي الندب والحروق على أيديهم ورقابهم ووجوههم – كانوا قد كلفوا بأعمال تَتَبُّع وملاحقة كبار رجال الأكليروس، لم يكن هؤلاء قضاةً أو من رجال القضاء، بل كان هدفهم الوحيد هو الحصول على " الاعترافات " من المتهمين بتدبير المؤامرة، وقد كان لشخصية " غوانداتشو " ذلك الجبار الدميم الفظ المجدور[1]، والأعرج ذي العينين الجاحظتين، الذي لعب دور رجل الدين والمحقق، الأمر الأكبر في هذا المضمار، فبعد أن تناول ثوب الكهنوت جلس بعظمة وخيلاء وراء منصة التحقيق ومن ثم وراء المنصة في حجرة التعذيب.

رفقاً بمشاعر وأحاسيس قرائنا الكرام لن نتطرق لوصف جميع أنواع التعذيب والتنكيل التي تعرض لها معظم المرضى والشيوخ المسنين من رجال الدين، ونكتفي بالتحدث فقط عن أولئك المحققين القلة جداً، أو بالأحرى عن المحقق الوحيد، من بين الثلاثة، الذي أصبح عظيماً وعملاقاً لأنه رق لحال المعتقلين.

لقد كانت أعمال التعذيب والتنكيل قاسية لدرجة لم يتمكن معها الأسقف " أكولي " من الثبات والصمود، حتى أنه صرح قائلاً:

– توقفوا ..... قولوا ماذا تريدون مني؟ وما الذي تبغون الحصول عليه؟ إنني أعترف بالذنب ..... واصلوا تعذيبي والتنكيل بي فالأفضل لي أن أموت.(78).

وبدأت أعمال التعذيب والتنكيل وقتل الأساقفة والكرادلة الواحد تلو الآخر، وواصل الجلادون أعمالهم المشينة إلى أن يفقد هؤلاء " المتهمون " الوعي. (74).

كان "كوسا " ينتزع " الاعترافات " دون هوادة، وبدون كلل أو ملل، فهو لا يزال يتذكر كيف أن ديوان التفتيش والتعذيب العتيد كان يستنطقه في مثل هذه الحجرة، ومثل هذه الذكريات كانت تساعده على الاحتفاظ بالهدوء وبرودة الدم، إلا أنه كان يرى كيف أن كلا مساعديه وخاصة الجبار الذي يرتدي الثوب الكهنوتي يشفقان على المتهمين، وها هو " بوناكورسو " يحدق بعينه الوحيدة التي تترقرق

[1] – **المجدور: من مرض الجدري.**

بالدمع الذي كاد أن ينهمر، ولاحظ ابن أخ البابا – " حاكم " كابو، أمالفي، ونوتشيرا، الذي كان يحضر أعمال التعذيب – رقة المشاعر لدى ذلك الجبار ذات مرة فأخذ يقهقه متهكماً عليه أمام عيني راعي الكنيسة الذي كان يتعرض للتعذيب، أما أوربان السادس الذي كان يدندن مترنماً في الحديقة تحت النافذة المطلة على حجرة التعذيب ويختلط صوته الشادي مع الصرخات المؤلمة التي يطلقها الكاردينال المعذب، فقد استغرب الضحك على وجه ابن أخيه فهرول ليرى ماذا يجري هناك، لقد رأى العملاق الذي منحه منذ وقت قصير لقب رجل الدين والذي وثق به في القيام بمثل هذه الأعمال، جالساً خائر القوى ويكاد يذرف الدمع من شدة التأثير والحزن.

استشاط أوربان السادس غضباً وغيظاً واحتقن وجهه بالدماء، ورمق " غوانداتشو " بنظرة غاضبة ثم صرخ قائلاً:

– انظروا إلى هذا الإنسان الذي أوكلت إليه مهمة التحقيق، ما بك مشفقاً الآن على المتهمين ومسترسلاً في البكاء كامرأة عجوز.

يقول سكرتير ديوان البابا:(إن ظاهرة العطف والشفقة الضئيلة جداً أثارت غيظ البابا الذي كان غالباً ما يحضر مثل تلك المشاهد غير الإنسانية التي لا يستطيع أي إنسان أن يخفي إزاءها ضعفه وشفقته، وها هو وجه البابا يحتقن بالدماء، إنه يصرخ بصوت حاد ومتقطع شديد النبرات حتى أنه ذات مرة كاد أن يطرد اثنين من المحققين عندما لاحظ أنهما لا يستطيعان احتمال منظر التعذيب ووحشيته).

صرخ بهما مزمجراً: اغربا عن وجهي أيتها المرأتان النائحتان، لأن مثلكما لا يصلحان للعمل لديّ، ولا أحتاج لأمثالكما ..... اخرجا حالاً.

بهذه الكلمات كان يريد أن يفهم الجميع – وفي مقدمتهم أحد القراصنة " المحقق العام " – بأن المهمة الموكلة إليه يجب أن تنفذ بحزم وقساوة أشد.

حاول " كوسا " أن يهدئ من خواطر أوربان السادس فقال متوجهاً بكلماته الرصينة والمتزنة نحو البابا:

– إنكم لم تفهموا هؤلاء الرجال بشكل صحيح، لقد كان كل من هذين الاثنين قاسياً بما فيه الكفاية في ممارسة مهنته السابقة، ويبدو أن عين هذا الكاسر البراقة تخدعكم الآن، كما خدعتني أنا بالذات أيها الأب المقدس.

خرج أوربان السادس وعاد الصراخ الصاخب من جديد ..... وبالصراخ المرعب والمخيف كان أوربان يريد بانتظام وعن عمد أن يشعر المحققون بوجوده على الدوام، ولكي لا يوقفوا أعمال التعذيب لحظة واحدة.

إن هذا كله لم يجد نفعاً، فالكرادلة والأساقفة لم يعترفوا بالتهم الموجهة إليهم، والحقيقة أن كاردينال " سانغروس " لم يحتمل التعذيب فأشار إلى أنه سيتكلم (وظن بطلنا أنه حصل على الاعتراف أخيراً) إلا أن الذي قاله الكاردينال لم يكن الأمنية المنتظرة:

– إنني اشتركت فعلاً في الجريمة، وارتكبت ذنباً فاحشاً، لكنني لم أذنب بحق البابا، بل باسمه أردت أن أساعد أوربان السادس، فعندما كنت مرافقاً حارساً للبابا عذبت الأساقفة وأعلام الفكر في الكنيسة ورفاقهم وذويهم دون حق، لكي أحافظ على معذبي ومضطهدي الآن.

عندئذٍ أصدر " كوسا " أوامره قائلاً:

– دعوه وشأنه ..... أحضروا كاردينال البندقية.(87)

لقد كان كاردينال البندقية أكثرهم اعتلالاً ومرضاً، لأنه تعرض لأعمال التعذيب والأكثر وحشية وضراوة، إذ أنهم أودعوه الحجرة لمدة أربع ساعات تعرض خلالها لمختلف أنواع القسوة والتنكيل، ومن الحديقة المجاورة كانت تسمع صلوات البابا بدون انقطاع، ويضيف سكرتير ديوان البابا قائلاً:(كان أوربان يدندن مترنماً بالأناشيد الدينية دون انقطاع، بينما ابن أخيه يبتسم متلذذاً بهذه الأعمال الوحشية البربرية).

لم يحاول أوربان السادس أن يخفض صوته، لكي يسمعه الموجودون في حجرة التعذيب " المحققون " ولكي لا تضعف هممهم في القيام بأعمالهم الرهيبة والفظيعة عندما يعلمون أن البابا قريب منهم ويراقبهم.

يواصل " ديتريخ فون نيم " حديثه قائلاً:(ذات مرة لم أستطع أن أحتمل المشهد ولم أقدر على رؤية ما جرى أمامي وشعرت بانحطاط في جسمي، فخرجت من حجرة التعذيب.(10-74-78).

لقد سمع العالم بأسره بتلك الأعمال التي كانت تجري في قلعة " نوتشيرا " البابوية، وأحس الشعب بأسره بالألم وأشفق على الضحايا الأبرياء، حتى أن الملك " شارل " ضاق ذرعاً بمكائد ودسائس وشرور أوربان السادس التي كان ينفذها ضمن حدود مملكته، حاول خلعه والتخلص منه بكل ما لديه من قوة، ففي الماضي لم يستطع الملك القيام بذلك نظراً لقلة عدد قواته التي كانت متوفرة لديه، أما الآن فقد أصبح لديه عدداً كبيراً من القوات التي حشدها وتوجه بها إلى " نوتشيرا " لكي يخلع البابا في نهاية الأمر ويقصيه عن المملكة، وهكذا وصلت القوات الجرارة وعلى رأسها الملك إلى أسوار " نوتشيرا " وهي عازمة كل العزم على خلع البابا وعدم مهادنته.

أعلن "كوسا " عن رأيه أمام أوربان السادس بقوله وبمنتهى الصراحة:

- إن العمل سيكون صعباً هذه المرة أيها الأب المقدس.

وقد جاء في مخطوطة نابولي أن (الملك أخذ يقذف البابا بالمنجنيق وكأنه أحد الأتراك وليس رئيساً للكنيسة المسيحية).

أما " ديتريخ فون نيم " فإنه يقول:(لكي يثأر أوربان السادس وينتقم من الملك بأية وسيلة كانت كان البابا يظهر ثلاث أو أربع مرات في اليوم قرب نافذة باب القلعة وفي يده شمعة وفي الأخرى جرس صغير، ثم ينادي بأعلى صوته قاذفاً باللعنات والحرمان الملك وقواته، وبعدها يتوجه إلى حجرة التعذيب حيث يطلب من الجلادين أن يزيدوا من شدة التعذيب والقسوة في عملهم)(78).

كان بطلنا يفكر في قرارة نفسه متسائلاً: إن هذا كله جيد، ولكن ما الذي يحدث لنا بعد أسبوع عندما تنفذ لدينا الأسلحة والأطعمة؟

وها هو "كوسا " يقدم مساعداته إلى البابا من جديد، تلك المساعدات الكبيرة في مثل هذه الظروف الحرجة والقاسية بالنسبة للبابا، ففي الفترة العصيبة التي كان فيها البابا مهدداً بخطر الوقوع في أسر عدوه الذي لا يرحم، أي خطر التدمير والخزي والعار، تسلل "كوسا " وفر من " نوتشيرا " لكي يلتقي مع: رايموندوديل بالنشو – كونت نولا – وتامازو – وسان سيفيرينو – وبيترو تاريترو – رئيس الدير في مونت كاسينو، وقد أجمع هؤلاء على عدم صلاحية الملك شارل لتولي العرش، فحشدوا قوات كبيرة ثم توجهوا مع "كوسا " لمساعدة البابا.

أول خطوة قام بها هؤلاء هي إخراج البابا من " نوتشيرا " إلى " ساليرنو " ثم لحق به " كوسا " وأصدقاؤه، أما الملك شارل فلم يعرقل عملية فرارهم لأنه كان يرمي إلى تحقيق هدف واحد وهو أن ترتاح المملكة من مكائد وشرور البابا إلى الأبد.

غير أن " أوربان السادس " دهش مذعوراً عندما رأى السفن التي كانت تنتظرهم في ساليرنو والتي كان يجب عليها أن تنقلهم بعيداً عن هناك .....

- لمن هذه السفن؟
- إنها سفينة غاسبار كوسا .....

فتمتم أوربان السادس خائفاً:

- آه ..... إنني أعرف هذا الأميرال إنه يخدم بروفانس، وهو سيختطفني ويسلمني إلى الجلاد.

الحقيقة أن – قرصان الأساقفة – " أخا بطلنا "كان قد قدم خدماته إلى حاكم " بروفانس " ولم يعد بالإمكان إقناع واستمالة أوربان السادس، وكلما حاول " بالتازار " إقناعه بالإلتقاء مع أخيه كلما كان أوربان يزداد تعنتاً في عدم الإبحار على ظهر سفينة غاسبار وهكذا أصبح لزاماً عليهم السفر براً إلى بينيفينتو، ومن هناك إلى قرية صغيرة تقع بين بارليتا وتراني على شاطئ البحر الأدرياتيكي.(104).

والآن .....كيف كان حال الكرادلة وغيرهم من رجال الدين الكبار – ضحايا البابا أوربان– الذين اقتادهم معه أثناء فراره؟

إن أسقف أكولا لم يستطع الحركة أو السير على قدميه، لأنه أصبح من جراء التعذيب جثة هامدة تقريباً، ولذلك فقد أركبوه على الحصان، وكان من الصعب عليه جداً الثبات فوق ظهره.

أما أوربان فكان يرمق هذا الأسقف المنهك بنظرات الشماتة والغضب بين الحين والآخر، ثم التفت إلى "كوسا " قائلاً:

- إن هذا الشيطان لا يقوى على السير، وهو بذلك يأمل في إلقاء القبض علينا.....

واقتنع البابا بأن الأسقف أصبح عبئاً عليهم، ووافقه "كوسا " على ذلك بابتسامة صفراء، فقال له البابا:

- يا بني يجب التخلص من هذا الشيطان لأنه يسعى إلى القضاء عليَّ .....

فاستل " بالتازار " خنجره من تحت ثوبه الكهنوتي وأغمده بقوت في صدر الأسقف قائلاً:

– إنها ميتة مريحة لأنه لم يشعر بشيء على ما أظن .....

إلا أن نظرة غضب من أوربان السادس كانت تقول بأنه غير راض حتى الآن فصرخ بالحاشية المحيطة به، أي بجثته المجندلة على ظهر الحصان:

– ألقوا به على الطريق ..... اتركوه على الطريق كي تلتهمه الوحوش.

يقول سكرتير البابا في معرض وصفه لهذه الحادثة:(لم أسمع قط في حياتي أن رئيس الكنيسة يقدم على مثل هذا العمل غير القانوني بنفسه أو بيد غيره). (78).

توجهت السفينة الجَنَوِيَّة، وعلى ظهرها أوربان السادس وبطلنا إلى جَنَوَة، وقد توقفت في ميناء بيزا، حيث قابل البابا هناك " بيتروغامبيا كورتي " حاكم المدينة وكانت أخبار التعذيب التي يتعرض لها الكرادلة قد وصلت إلى هناك أيضاً ولذلك فقد تقدم بيترو إلى البابا بطلب يرجوه فيه معاملة الآباء الروحيين ولو بقليل من التسامح والعطف.

عندئذ استشاط أوربان السادس غضباً وغيظاً، وأمر بإحضار ضحاياه إليه وطلب من "كوسا " بأن يوجه من جديد التهم إليهم على أنهم متآمرون و " قتلة ":(لقد حاول هؤلاء دس السم للأب الروحي " البابا " وغير نادمين على دسائسهم التي فاقت بمكائدها مكائد وشرور إبليس، فسألهم "كوسا " قائلاً:

– بماذا تستطيعون أن تبرروا جرائمكم؟

فجاء الرد بصوت خافت مكلوم:

– نحن لسنا مذنبين، ولم نفعل شيئاً ضد الحبر الأعظم.

إن الحالة الخطيرة والمؤلمة التي وضع فيها هؤلاء المعتقلون لم تهز مشاعر أوربان السادس أو تحرك مشاعره، مع العلم أنهم أصبحوا كالهياكل العظيمة، وتحول بعضهم إلى مقعدين أو مشوهين، وأخيراً أمر البابا باقتيادهم إلى السفينة.

وفي مدينة " جَنَوَة " نقل الدوق رسالة إلى البابا من ملك بريطانيا وقد جاء في هذه الرسالة:

– ((إلى كاردينال أستونيا ..... إذا كان هو قد دس لك السم فعلاً، وأنت تخاف منه على حياتك فعليك أن تبعده عنك، ويمكنك أن ترسله إليَّ، وأنا سأتولى أمره)).

غير أن أوربان السادس لم يشأ أن يصغي إلى رسالة الملك أيضاً في بادئ الأمر، إلا أنه قرأها حتى نهايتها وعلى مضض .....

– ((وإذا أنت لم ترسل الكاردينال إليَّ – يقول الملك رتشارد في رسالته – فهذا يعني أنك خارج عن طاعتي، ويجعلني أعتقد بأن البابا "كليمنت السابع " هو البابا الشرعي – البابا الثاني – وليس أنت .....)).

عندئذ أذعن أوربان السادس للأمر، إلا أنه أطلق سراح الكاردينال البريطاني كي لا يخسر نفوذه في بريطانيا، وأضاف الكثير من الرهائن إلى أولئك الخمسة الذين ظلوا قيد الاعتقال لديه، والذين لم يطلق سراحهم رغم النداءات والالتماسات التي قدمها إليه معارفه وذووه ووجهاء جَنَوَة حيث كان البابا يحل ضيفاً عليها.

وواصل "كوسا " مسيرته اليومية المعتادة إلى حجرة التعذيب لينفذ مهمة " الاستجواب " والتحقيق بناء على توجيهات البابا.

وذات صباح تلقى البابا نبأً أغضبه جداً، ومفاده أن اثنين من وزرائه "كاردينال رافينا – وكاردينال بيترمولو " اختفيا وتواريا عن الأنظار، وأخذ أوربان السادس يعضّ شفتيه حسرةً وغضباً، وهو يصرخ:

– آه منكم أيها الذئاب ..... أيها الثعالب ..... إنهم على ما يبدو حاولوا تحريض الجَنَوِيّين على المطالبة بإطلاق سراح المعتقلين.

وسرعان ما وردت إليه أنباء جديدة تقول: بأن كِلا الكاردينالين " وزيريه " بالأمس قد فرا إلى فرنسا والتجأا إلى البابا "كليمنت السابع " في أفينيون، نعم لقد انضما إليه ليؤيداه ضد خصمه، وكاد أوربان السادس أن يصاب بالشلل والانهيار من شدة الصدمة، لكنه تمالك قواه ليقول:

– وحتى هذان الثعبانان، كم ضممتها إلى صدري وَأْتَمَنْتُهُما[1] على سِرِّي.

وعبثاً حاول الجَنَوِيّون إطلاق سراح الكرادلة والأساقفة الأربعة الذين أصبحوا على أخر رمق من الحياة.

في كل يوم كان أوربان السادس يحذر بطلنا بقوله: " بالتازار " ..... كن يقظاً ..... لقد بذل هؤلاء قصارى جهودهم لعزل أعواني عني، وأنهم قد يفعلون ما يحلو لهم في أية ليلة.

– لا تقلق أيها الحبر الأعظم.

وبعد أن حدثت محاولة لإطلاق سراح الكرادلة المعتقلين ذات ليلة، قام "كوسا " بقتل رجلين بعد أن هدد وتوعد، وحذر من مغبة الفرار، وفي صباح اليوم التالي قال للبابا:

– لا تقلق أيها الحبر الأعظم، فلن يستطيع أحد أن يسرقهم بعد اليوم.

وبالفعل فإن جميع محاولات الجنويين الرامية إلى تحرير الأساقفة والكرادلة المعتقلين كانت قد باءت بالفشل، إلا أن حياة أوربان السادس أصبحت لا تطاق في هذه المدينة، وذات يوم استدعى البابا بطلنا وقال له:

– "كوسا " ..... إنني ذاهب، فالجنويون لم يوفروا لي دقيقة واحدةً من الراحة،لذلك يجب عليك إيجاد سفينتين أو ثلاث سفن مع قباطنة موثوق بهم لنرحل عليها خفيةً مع المتآمرين المعتقلين.

يشير " دي بوتيه " إلى أن بعض المخطوطات تتحدث عن أن خمسةً من الكرادلة وأربعةً من الأساقفة ضحايا البابا الذين أصرَّ على جرِّهم وراءه أينما ذهب، وجدوا مذبوحين أو مخنوقين في سجن جنوة ، غير أن هذه المعلومات تفتقر إلى البراهين.

فعندما اضطر أوربان السادس إلى الرحيل عن مدينة جنوة كان معه على ظهر السفينة خمسة كرادلة وأربعة أساقفة أحياء تحت مراقبة " كوسا " بالذات.

أراد أوربان السادس أن يتأكد بنفسه من إحضارهم إلى السفينة، وقد رآهم بنفسه على ظهرها، وعندئذ قال للحراس المعتقلين:

– أحْضِروا تسعة أكياس متينة وكبيرة، وضعوا فيها الكرادلة والأساقفة، ثم اربطوا الأكياس بشكل جيد، وبعد أن نبحر هنا ونصل إلى مكان عميق في البحر ألقوا بهم إلى اليم.

وعندما ابتعدت السفينة عن جنوة ألقي بالأكياس جميعها إلى البحر، قد لا يكون ذلك مؤكداً ولكن على أية حال كانت تلك نهاية كرادلة وأساقفة أوربان السادس.(74 – 78 – 89).

وصل أوربان السادس برفقة بطلنا إلى " لوقا " حيث كان يجب عليه التوقف لأنه لا يستطيع الطواف أكثر من ذلك، ومملكته نابولي تعمها موجة عارمة من السخط والغضب، كما أن أنصار البابا والنبلاء والوجهاء الذين كانوا قد ساعدوا البابا على مغادرة نوتشيرا حرضوا على الانتفاضة ضد شارل، ولم يتمكن الملك من الاحتفاظ بعرشه مدة طويلة وسرعان ما أطيح به وقتل.

واندلعت أعمال الرعب والفوضى بقوة جديدة، فالملك اغتيل وأرملته الملكة الشابة تشاركه الرأي، فما العمل إذن؟ وكيف يجب التعامل معها؟ لقد أصدروا بحقها حكماً بالحرمان الديني، ووجه البابا إليها شخصياً اللعنة، وبهذه اللعنة لم ينشق البابا عن الملكة فحسب بل إنه وجه الضربة إلى ابنها ووريث الملك الراحل، وإلى أفراد الأسرة الآخرين، حتى أن الملك الميت لم ينج من انتقام أوربان السادس، وكان على جميع أصحاب العروش أن يرتعدوا أمام " وريث بطرس المقدس ".

– إنه كلب – هكذا قال أوربان السادس عن الملك الراحل – ويستحق هذا العقاب، لأنه لم يخضع لمشيئة المذبح المقدس، ولم يجرؤ أحد على تشييع جثمانه لا في هنغاريا ولا في إيطاليا، ولم يوافق رجل دين واحد في العالم آنذاك على تشييع جثمانه.(89).

---

[1] – **هما مؤتمنان على السر.**

وأرسل أوربان اللعنة للمرة الثانية إلى أرملة الملك ووريثه، وكانت جميع ألاعيب ومحاولات البابا موجهة نحو هدف واحد وهو: استدراج وإقناع أهالي نابولي بتنصيب ابن أخيه ملكاً عليهم.

وأصدر البابا كتاباً جاء فيه أن أوربان السادس يعتبر الآن الحاكم الوحيد الشرعي لمملكة نابولي، غير أن ذلك لم يقتنع به أحد.

كان لدى أوربان السادس ابنتا أخ، إضافةً إلى ابن أخيه المعروف، وقد أدخلتا منذ ثماني سنوات خلت، إلى الدير للرهبنة، وفي ذلك الوقت كان فقيراً، غير أن أوربان السادس أخرجهما من الدير بعد أن أصبح غنياً وزوجهما، وحصلتا على صداق كبير، وعلى ثلاثين ألف قطعة ذهبية لكل منهما من أموال الكنيسة، ولم تكن هذه المرة الفريدة، إذ تشير مخطوطة ريجو إلى أن أوربان السادس كان أحياناً يصادر أملاك الكنيسة والأديرة، وحتى المشافي ويبيعها ليحصل على الأموال.(74).

قدم " أوربان السادس " خطط الحملات العدوانية الكبيرة، وإن وجود القرصان السابق ورجل الدين الحالي، بعث طموحاته التوسعية بعزيمة أقوى، وأعلن عن الحملات الصليبية ضد مملكة نابولي وكذلك ضد اليونانيين المنشقين عن الدين في بيزنطة، بهدف إعادة هؤلاء إلى جادة الصواب التي افتقدوها منذ قرون عديدة بسبب ممارسات بطريرك القسطنطينية فوتي.

كما أنه صدر كتاب " فرمان " صودرت بموجبه مملكة البليبونيز التي كانت تتبع شكلياً إلى الملك الشاب فلاديسلاف.

– استعد يا ولدي – قال " أوربان السادس " مخاطباً "كوسا " وأخذ يجمع القوات ليوجه ضربته إلى المجريين الهنغاريين والفرنسيين.

غير أن " أوربان السادس " لم يتسن له تنفيذ خطته، وفي هذا الصدد يقول " فيوريجو " الباحث في تاريخ الكنيسة الغربية:(لقد حاول " أوربان السادس " من جديد أن يقيم في روما، إلا أن الله لم يوفقه في مسعاه هذا، ففي الطريق سقط عن ظهر جواده وتوفي فور وصوله إلى روما).

بعد وفاة البابا أصبح ابن أخيه الذي كان يعتمد على عمه – " أوربان السادس " – يخاف على حياته، ويخشى من إلقاء القبض عليه وشنقه في مملكة نابولي، ولذلك فقد جمع زوجته وأولاده من الدير واستأجر سفينة حمل إليها كل شيء لديه من أموال وثياب وأمتعة، ثم استقل السفينة مع أسرته وعزم على العودة إلى روما، إلا أن السفينة تعرضت لعاصفة بحرية فغرقت وعلى ظهرها ابن أخ البابا وعائلته.

والآن ..... وبعد أن توفي البابا " أوربان السادس " بقي هناك بابا واحد فقط، واعتقد جميع المراقبين أن عهد تمزق الكنيسة الغربية قد انتهى، لكن هذه الآمال لم تتحقق، لأن كرادلة " أوربان السادس " الأربعة عشر – الذين ظلوا على قيد الحياة بعد إغراق خمسة كرادلة وفرار اثنين إلى كليمنت السابع في آفينيون – خافوا من فقدان مناصبهم، فعقدوا مجمعاً واختاروا بابا جديداً أي خليفة للبابا " أوربان السادس ".

إن اختيار هذا البابا أطال من عمر فترة التمزق، وأطلق على البابا الجديد بطرس توما شيلي اسم " بونيفاس التاسع " وقد كان بونيفاس التاسع من سكان نابولي وصديقاً لأسرة "كوسا " وفي سن " بالتازار " ولا يزال صغير السن، ولا يصلح لمنصب " راعي المسيحية " إذ أنه كان في الثلاثين من عمره – وبطلنا "كوسا " – في التاسعة والعشرين، غير أن " بالتازار "كان متعلماً أما بونيفاس التاسع فكان شبه أميّ.

في اليوم التالي بعد تنصيب بونيفاس التاسع استدعى هذا الأخير إليه "كوسا " وقال له:

– إنني أعينك رئيساً لمجمع كاتدرائية القديس إيفستاف، وأرغب في أن تكون معي في الفاتيكان، لأنني أخشى أن تقع أحداث خطيرة، مما يحوجني إلى الاستعانة بك واستشارتك في معالجة الأمور الطارئة.

وهذا ما حدث فعلاً، إذ أن كليمنت السابع أطلق على الفور قذيفة اللعنة والحرمان من الدين عندما عمت فرنسا أنباء تعيين بابا جديد في روما بعد وفاة " أوربان السادس "، وقد جاء في اللعنة:(ولتصب جميع لعنات العهدين القديم والجديد على رأس بابا روما الذي نصب نفسه، وليقطع السيف الإلهي رأس البابا الدجال وأتباعه، ولتطفأ إلى الأبد مصابيح حياتهم، وتحرق أرواحهم في نار جهنم، وليمطر الله اللعنات على جميع أعوان البابا المرتد عن الدين، نعم ... لينهمر عليهم غضب الخالق الأعلى وليحرموا من الكنيسة المسيحية، ومن القربان الإلهي المقدس على مر الدهور والعصور).

التفت البابا الجديد إلى "كوسا " بنظرة تنمُّ عن طلب المساعدة، وظل يحدق به منتظراً الرد المناسب.

يؤكد سكرتير الفاتيكان ديتريخ فون نيم على أن ذلك الإقطاعي النابوليباني الشاب الذي أصبح بابا الآن ورئيساً للمسيحية بمساعدة كرادلة " أوربان السادس "، كان قبل تولية هذا المنصب أمياً، بحيث لا يفهم مضمون الوثائق التي يوقعها فحسب، بل إنه بصعوبة يوقع عليها أيضاً، حتى إن أبسط الأمور والقضايا كانت تضعه في مآزق وإحراجات كبيرة، وها هو الآن يمد يد المساعدة طالباً النصيحة من صديقه " كوسا " :

- ما الذي يجب عليَّ أن أعمله يا " بالتازار " ؟ إنني أريد أيضاً أن أرسل اللعنة والحرمان إلى عدوّي، ولكن اللعنة الأقوى والتي لا مثيل لها حتى الآن، ثم نظر بونيفاس التاسع نظرة ثاقبة إلى "كوسا " وقال وأنت الذي يجب أن تكتبها.
- إنني سأفعل ذلك أيها الأب المقدس " قالها بطلنا بكل هدوء ووقار مخاطباً صديق أسرته الذي تولى ذلك المنصب الرفيع " نعم إنني سأفعل ذلك بكل تأكيد، إلا أنني أرجو أن تقدم لي خدمة واحدة وهي أن تعين لي اثنين من رجال الدين والصديقين القديمين وهما: " رينيري فونجي وغوانداتشو بوناكورسو " ليعملا معي في مجمع الكاتدرائية وتحت إشرافي.

في اليوم التالي وجه البابا بونيفاس التاسع الحرمان واللعنة إلى عدوه المسيح الدجال في أفينيون، والحقيقة —كما يرى القراء — أن هذه اللعنة تفوق لعنة كليمنت السابع من حيث قوتها وقساوتها، وقد جاء فيها:

- ((إلى الحاكم باسم الثوب الكهنوتي الغارق في أعماق التخمة والمحاط بجند من الشياطين ..... لقد استطعت أن تنصب نفسك مسيحاً دجالاً على الأرض باسم كليمنت السابع، وتتخذ مستشاريك من بين الكرادلة الشياطين الذين يدفعهم الجشع والطمع. احرمه يا رب من البصر والبصيرة، ولتغضب عليه السماوات ولتضربه بالرعود والصواعق، وليحل عليه غضب الخالق الأعلى والقديسين بطرس وبولس، وليلعنه القاصي والداني، ولتحل اللعنة في طعامه وأمواله وممتلكاته وعلى حراسه، وليكن مصيره كمصير داتان وأفيروس، ولتبتلعه جهنم حياً كما ابتلعت أنانيا وسانفيرا الذين كذبا على الله، وليعاقبه الله كما عاقب بيلاطس ويهوذا الذين خانا السيد، لتحل عليه لعنة مريم العذراء وجميع القديسين، وليحرق بنار جهنم جزاء على عمله، ولتقف في وجهه الأرض وتعصف به الحرب، وتتصدع الأرض لتبتلعه، وليتحول مسكنه إلى صحراء قفراء، ولتتخل عنه الملائكة، ولتختطف روحه الشريرة الشياطين الذين تخلوا عنه هم أيضاً لكثرة جرائمه، ليصب العلي القدير وجميع القديسين اللعنات السوداء على نائب الشيطان في الأرض، وعلى مستشاريه من الكرادلة كتلك اللعنات التي حلت بيهوذا الأسخريوطي ويوليان المرتد، وليمت كافة أعوان المسيح الدجال كليمنت السابع كما مات ديكلتيان ونيرون من قبله، لتذهب بهم الأيام غير مأسوف عليهم، وسلط عليهم يا رب النكبات والجوع والأمراض والأوبئة، والعن نسلهم يا رب ولا تقبل صلاتهم، واحرمهم من بركاتك، العنهم في كل مكان وزمان، والعن كل من لا يعترف بالبابا بونيفاس التاسع، ولتلاحقهم اللعنات ليلاً ونهاراً، وفي مأكلهم وفي مشربهم، وفي يقظتهم ونومهم وحديثهم وصمتهم، ومن أقدامهم حتى رؤوسهم، أصبهم يا رب بالعمى والصمم، والعنهم قياماً وقعوداً ونياماً، العنهم من الآن وإلى دهر الداهرين وحتى الحياة الثانية، مزق شملهم يا رب واصرعهم جثثاً وأشلاء، ولتصحبهم الشياطين إلى أبد الآبدين — آمين)) (2).

كانت هذه اللعنة تتلى خلال كل صلاة تقام في الكنائس التابعة لبابا روما بونيفاس التاسع، كما هو الحال بالنسبة للعنة بابا أفينيون التي كانت تتلى في الكنائس التابعة له.

ذات مرة استدعى البابا " بونيفاس التاسع " بطلنا "كوسا " من مجمع كاتدرائية القديس إيفستان وقال له:

- إنني أزداد فقراً فكيف يمكن التخلص من الفاقة والعوز؟

لقد أحب الكثيرون من ورثة القديس بطرس المال، إلا أن بونيفاس التاسع، صديق أسرة " كوسا "كان معروفاً بالجشع الأكبر، وأطلق عليه المؤرخون اسم السيموني، مع العلم أن المئات لا بل الآلاف من رجال الدين آنذاك كانوا سيمونيين، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ولم يبق

هناك منصب كنسي واحد، أو أية وظيفة دينية أخرى إلا وتاجر بها البابا بونيفاس التاسع، الذي كان يوزع المناصب والوظائف على من يدفع أكثر من غيره، حتى ولو لم تتوفر فيه الصفات والشروط المطلوبة.

والطريقة لتحديد تسعيرة الوظيفة كانت بسيطة جداً، أي أن المنصب كان يساوي ثلاثة أضعاف قيمة الدخل السنوي، أي أن البابا بونيفاس التاسع عندما كان يسلم المنصب إلى رجل الدين والمرتب السنوي له، كان على الفور يستلم منه ثلاثة أضعافه، أي ثلاثة أضعاف الربع الممثل لهذا المنصب، وإذا كان رجل الدين البسيط وافق على دفع مثل هذه القيمة الكبيرة مقابل وظيفة متواضعة مثلاً، فإننا نستطيع أن ندرك قيمة الأموال الطائلة التي كان يدفعها أي أسقف من الأساقفة، أو أي مشرف على الدير، والجدير بالذكر أن الأديرة كانت غنية جداً في تلك الأيام وتحصل على دخل وفير.

وفي بعض الأحيان كان رجال الدين (القساوسة)، أو الأساقفة يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال إلى البابا، وعندئذ كان بونيفاس التاسع يقبل منهم البدل، فبدلاً من النقود كان يأخذ الخيل والخنازير والقمح والأبقار والدجاج والبيض ..... الخ.

أما المرشحون الآخرون للوظائف أولئك المرشحون الفقراء الذين لا يستطيعون أن يدفعوا شيئاً، فإن البابا كان يطلب إليهم العمل مقابل المال، أي أنهم يعملون كعمال عاديين في بناء القلاع ذات السّورَيْنِ أو البابَيْن – التي كانت تعتبر مَسْتَراً أميناً في حال الهجوم عليها – والتي تشيد على مقربة من التل الذي يقع عليه الكابيتول، وهكذا فإن المرشحين لوظائف القساوسة كانوا ينقلون الأحجار والقرميد والأخشاب، بينما يقدر لهم بونيفاس التاسع حماسهم هذا واندفاعهم، ويعتبر ذلك الشرط الذي يجب أن يتوفر في خادم الكنيسة.(87).

ولكي يقدم المساعدة إلى المرشحين للحصول على وظائف القساوسة، والذين يعملون لديه لقاء ذلك، فقد سمح بونيفاس التاسع للمرابين والعرّافين وأصحاب أكشاك التسليف وتبديل العملات بالتمركز في أراضي الفاتيكان مع حواشيهم وأكياسهم وصناديقهم، وبالطبع فإنه لم يضع الحصول على الرشاوى والأجور من هؤلاء مقابل الإحسان الذي قدمه إليهم، وكانت بعض الأحيان تقع المشادات والنزاعات فيما بين المرابين والمرشحين للحصول على وظائف كنسية دينية، لأن المرابين كانوا يطلبون نِسَباً عالية جداً، والنزاعات فيما بينهم كان يحلها البابا بونيفاس التاسع بنفسه والمحكمة الكنسية.

إلا أن السعادة الكبرى التي كانت تغمر البابا – صديق أسرة كوسا – بطلنا، هي في أن يعرف كم دفع هذا الكاردينال أو ذاك من أجل الحصول على منصبه، وما هي الأسباب التي تمنعه من الدفع أي " من القيام بواجبه " لأنه عند ذلك كان بونيفاس التاسع يعتبر أن الاتفاق بينهما قد فسخ، على الرغم من أن الأموال كانت قد دفعت، إلا أن الذي اشترى الوظيفة أو المنصب لم يحصل على أي دخل كاف من أبرشيته.

عندئذ يجري الإعلان عن أوكازيون جديد لتباع الوظيفة مرةً أخرى إلى شخص آخر، وقال البابا ذات يوم: إن الكاتدرائية – أو مجمع الكاتدرائية – لا يمكن أن يبقى يوماً واحداً بدون محاسب.

وبالإضافة إلى ذلك فقد حدث أن البابا بونيفاس التاسع كان يعلن وبدون أية أسباب لذلك عن أوكازيون جديد، مع العلم أن الوظائف التي أعلن عن بيعها بسعر أعلى، ويذكر الكثير من أصحاب المخطوطات الذي عاصروا هذا البابا السيموني (إنه يروي بأن البابا لم يكن ليبيع هذه الوظيفة الكنسية أو تلك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، بل إنه كان يبيع الترشيح إليها مستقبلاً) لقد كان يخدع الجميع.

غير أن بونيفاس التاسع لاحظ أن ذلك قد يؤدي إلى هبوط قيمة " السلعة "كما لاحظ أن ثقة الآخرين به أخذت تتزعزع، وكان يقول لنفسه أحياناً:(إنني لا أسلك طريق الصواب، ويجب عليّ أن أكون أكثر حذراً أو يقظةً) وها هو الآن بونيفاس التاسع يهرع إلى الشخصية الموثوق بها .... إلى بطلنا لكي يساعده هذا في التوصل إلى طريقة أخرى في جمع الأرباح، وفي الوقت الذي كان فيه " بالتازار " يشحذ ذهنه ليتخذ قراراً ما، كان " بونيفاس التاسع " يفكر في كيفية استعادة الثقة به بسبب شرهه ونهمه، ثم تمخض تفكيره عن الفكرة التالية:

عند عقد اتفاقيات جديدة مع المرشحين – طالبي الوظائف – سوف يعطي ضمانات تقيد الطرفين بالتزامات معينة في حال الإخلال بشروط الاتفاق (78) وأصبح يقول للقادمين إلى الأوكازيون: إنني أعطي الضمانات ..... فَمِمَّ تخافون؟ ولم أعد أستطيع انتزاع الوظائف منكم لأن ذلك يلزمني بدفع الكثير إليكم وهذا لا يناسبني.

وكما ذكرنا سابقاً فإن البابا " بونيفاس التاسع " كان يبيع حتى " الهواء " والوظائف الكنسية المستقبلية، أي المراد إحداثها، إن هذا " الإحسان "كانت تتراوح قيمته ما بين 25 و 50 قطعة ذهبية، وفي نهاية الأمر لم يقبل المغفلون على الأوكازيون – أي المزاد العلني – لأن " بونيفاس التاسع "كان قد أثار بذلك الشكوك حول نواياه، والآن ما العمل إذن لكي يستعيد الثقة به؟ لقد أخذ من جديد يفكر ويفكر ..... هل يقيد نفسه بالتزامات جديدة؟ لا ..... فقد أصدر أمراً ألغى بموجبه بيع الوظائف الكنسية المستقبلية دون أن يعيد طبعاً الأموال المدفوعة إلى أصحابها و " أصحاب الأسهم " هؤلاء كانوا يعدون بالآلاف.

– حتى الآن لم نسلك طريق الصواب ..... قال " بونيفاس التاسع " مبرراً إلغاء " الأسهم " ومن غير العدل الحصول على ريع الوظيفة التي قد لا تحدث أو تسلم إلى أصحابها، خلال أسبوع واحد تم إلغاء جميع الأسهم المبيعة، إلا أنه في مطلع الأسبوع التالي أصدر أسهماً جديدة ولكنه من نوع آخر.

لم تكن قيمة هذه الأسهم مرتفعة، ولم تتجاوز الفلورين الواحد لكل سهم أو " وظيفة " وذلك من أجل الإسراع في الحصول على المردود.

لقد تحدث " ديتريخ فون نيم " رئيس ديوان البابا عن هذه الإجراءات وغيرها من التفصيلات الأخرى – التي لا مجال لذكرها كلها هنا – حيث يقول:(لا أعتقد أن هناك إنساناً ما على وجه الأرض تفنن في إيجاد الطرق والأساليب بحثاً عن الثروة والغنى، مثلما فعل " بونيفاس التاسع ".

غير أن الأمور لم تسر على ما يرام، وكما يرغب " بونيفاس التاسع " فيضطر البابا جديد لدعوة بطلنا "كوسا " إليه للتشاور معه فيسأله:

– ماذا فعلت يا " بالتازار "؟ وهل فكرت لإيجاد الحل؟

فأجابه:

– نعم لديّ حلّ أيها الأب المقدس، ولكن لا أدري فقط إن كنت ستوافق عليه؟

الحقيقة أن " بالتازار " فَكَّرَ طويلاً في وضع خطة الحلّ، على الرغم من ضيق الوقت لديه بسبب انشغاله في المغامرات العاطفية، لقد كانت " ياندرا ديلاسكالا " تقطن في أحد القصور الفخمة عندما كانت المدينة الخالدة تعيش حالة يرثى لها، وكان بطلنا يزورها كل ليلة، أما في النهار فإنه كان لا يستطيع عادةً أن يقرر من هي المعشوقة من بين خليلاته الرومانيات الجديدات، التي يفضلها على سواها ويسعدها بزيارته، لأنهن كثيرات، ولم يستطع أحد أن يحظى بقلوب النساء مثل القساوسة، فقد كانوا فرسان الأحلام آنذاك، لأنهم كانوا من بين الطبقة المثقفة والمتعلمة في ذلك العصر، ولا مجال للمقارنة بينهم وبين العسكريين والحرفيين، والأغنياء في هذا المجال.

وإذا رغب أحد القراء الذين يساورهم الشك في هذه الكلمات في التأكد من ذلك، فعليه الرجوع إلى مؤلفات:(بوجوفيو – رينتينو – براتشوليني – فرانكوساكيتي – بانتيللو –) والكتاب المشهور " ديكاميرون " لمؤلفه " بوكاتشو " وكتاب " إيكتاميرون " لمؤلفته " ماغاريتا " النافارية، كانت النساء يثقن بالقساوسة ورجال الدين لأنهم يحافظون على السر ..... أما كوسا فلم يكن من بين رجال الدين فحسب بل كان أيضاً إقطاعياً غنياً، وشاباً وسيماً، ومن حاشية البابا، ويجمع في ذاته جميع الصفات الواجب توفرها في العاشق والتي تنشدها أية امرأة تبحث عن الحب.

إلا أنه ليس في استطاعتنا التحدث عن تفاصيل جميع المغامرات العاطفية لبطل قصتنا في هذه الحقبة من حياته.

– حسناً ..... ماذا قررت إذن؟ قال البابا " بونيفاس التاسع " يسأل مستشاره "كوسا ".

– يمكننا أن نفعل ما يجب أن نفعله ..... ولكن، يجب أن نستفيد هنا من اليوبيل السنوي.

- إن أول يوبيل احتفل به منذ مئة عام تقريباً، وبمبادرة من البابا " بونيفاس الثامن " الذي أراد إدخال بعض الحياة والنشاط على روما القرون الوسطى، التي كانت آنذاك في حالة من الفساد والانهيار، وفي عام / 1300 / م بدأت جماهير المسحوقين تتدفق على روما بهذه المناسبة كما كان يتوقع " بونيفاس الثامن ".

ظلت الأمواج البشرية تغدو وتروح طيلة عام كامل، لقد غادر هؤلاء الناس أراضيهم ومنازلهم واستخدموا مختلف وسائط النقل كي يغدو مسرعين إلى روما ليزوروا كاتدرائية القديس بطرس ويؤدوا الصلاة هناك كي تغفر ذنوبهم وخطاياهم.

وكان " بونيفاس الثامن " قد قرر آنذاك إن مثل هذا " الاجتماع للمسيحيين " لم تكن قد ظهرت بعد تسمية اليوبيل، سوف يعقد كل مئة عام.

إلا انه بعد خمسين عاماً، أي في عام / 1350 / قرر البابا كليمنت السادس الاحتفال بهذا اليوبيل كل خمسين عاماً، لأن المدة / 100 / عام طويلة، وينبغي العمل على تحرير المسيحيين من خطاياهم وذنوبهم خلال مدة أقصر، وروما وكنيستها لا يزعجها ذلك.

ومن بعده حاول أوربان السادس أيضاً تقليص هذه المدة بعد أن أدرك قيمة المكاسب التي تجنيها مثل هذه المناسبات.

- لماذا لا يجوز الاحتفال باليوبيل السنوي إلا بعد مئة أو خمسين عاماً؟

إن هذه المدة غير محددة بنص أو بتقليد قديم، إذن الأفضل أن تجري الاحتفالات بهذه المناسبات كل ثلاثة وثلاثين عاماً.

ولكي يبرر ذلك وجد الحجة الدافعة وهي أن مدة حياة السيد المسيح كانت / 33 / عاماً على الأرض، والأفضل للكنائس أن تحتفل باليوبيل بوتيرة عالية.

ومن بعده جاء البابا " بيو الثاني " الذي ألغى هذه المدة وحددها بخمسة وعشرين عاماً.

لقد نسي الناس الآن عدد السنوات التي عاشها المخلص، والبابا أصبح يهتم فقط بإنقاذ أرواح رعيته، وسرعان ما تدعو الحاجة إلى العمل على التخلص من الخطايا والذنوب، إذن يمكن الاحتفال " باليوبيل " في الوقت المناسب لذلك.

واعتماداً على " الوصية الإلهية " أصبحت تجري احتفالات استثنائية باليوبيل (خلال الفواصل الزمنية بين كل 25 سنة) والأسباب الداعية لذلك كانت كثيرة: اختيار بابا جديد مثلاً، حملات صليبية وغيرها.

إن قيمة الأموال التي جاء بها المؤمنون من عامة الشعب من مختلف بلدان العالم آنذاك، وقدموها إلى صناديق كاتدرائية القديس بطرس كانت هائلة إلى حد جعل حكام البلدان الأوربية يقلقون، فالملك " شارل السادس " مثلاً، أعطى أمراً بوضع مراكز الحراسة على أهم الطرقات المؤدية إلى " روما " لمنع تدفق الحجاج، وهذا يعني عدم السماح بإخراج الأموال من حدود مملكته.

يقول " فروسار " صاحب إحدى المخطوطات المعروفة والمصدر الكنسي المعروف والمعاصر لهذه الأحداث:(في ذلك أعلن عن غفران الخطايا والذنوب في روما فاستعد العديد من المسيحيين لزيارة كاتدرائية القديس بطرس، ولكن نظراً لأن الحج كان مرتبطاً بحمل مبالغ كبيرة من الأموال ولإخراجها من الدولة فقد أمر بمنع الفرنسيين من السفر إلى روما ووضعت مخافر خاصة على الطرقات وعلى امتداد الحدود الفرنسية لمنع الناس من العبور).

- قال البابا مخاطباً " بالتازار " بدهشة وغرابة:
- هل ترى أنه يجب عليّ أن أعلن عن الاحتفال باليوبيل؟ ..... وهل يأتي أحد إلينا؟
- طبعاً يوجد من لا يستطيع من الناس القدوم إلينا، وأنا أعرف ذلك، ويبدو لي أنه يجب عليكم الاتصال بـِ " جوفاني غاليتسو فيسكونتي " في ميلانو الذي لا يسمح لسكان لومبارديا بالمجيء إلى روما.
- هل يوجد بين سكان منطقة لومبارديا أغنياء؟ قال " بونيفاس التاسع " بحماس ..... ثم أردف قائلاً: وهذا ما يجب أن أفعله.
- عليكم أن تعقدوا اتفاقاً مع فيسكونتي وغيره من الحكام الآخرين الذين يمنعون قدوم الحجاج، هذه نصيحتي .....

ثم واصل " بالتازار " عرض خطته بتفاصيلها.

وبعد الاستماع إلى "كوسا " قال " بونيفاس التاسع " بانفعال وحماس:

– " بالتازار " ..... عليك بالذهاب إلى ميلانو وإلى المدن والأماكن الأخرى، وباسمي تعقد الاتفاقيات مع أولئك الأدعياء الخارجين على القانون وحكام تلك المناطق الذين لا يسمحون لأتباعهم بالسفر إلى روما والتخلص من الذنوب والخطايا.

سافر " بالتازار كوسا " إلى ميلانو وحل ضيفاً على فيسكونتي وشرح له المسألة بتفاصيلها وأقنعه بالتوقيع على اتفاقية جاء فيها ما يلي:

:(بدلاً من القيام بالرحلة الشاقة والمكلفة إلى روما وحمل الذهب من البلاد إلى هناك يستطيع المسيحيون وهم في بلادهم ودون أن يسافروا إلى الديار المقدسة، أو يغادروا لومبارديا، أن يشتروا صكوك الغفران للتكفير عن الذنوب والتي يأتي بها أشخاص موثوق بهم من قبل البابا، وصكوك الغفران هذه لا تختلف في شيء عن تلك الصكوك التي يشتريها الحجاج في روما إذا ما تشرفوا بزيارتها، غير أن صكوك الغفران هذه التي يأتي بها عملاء البابا، سوف تساوي هنا فقط ثلثي القيمة اللازمة للسفر إلى روما، فالإنسان الذي دفع المال " بمقدار أقل من تكاليف السفر " وحمل الذبيحة إلى المذبح المقدس وخليفة السيد المسيح على الأرض يجب أن يحضر إلى الكاهن المحلي ويحصل منه على الفور على " مغفرة الخطايا ").

وأصبحت هذه الاتفاقية قانونية بإصدار مرسوم خاص من جانب البابا " بونيفاس التاسع " وقد جاء في ذلك المرسوم – أو الغرامات –:(إن أيام اليوبيل سوف تستمر ابتداءً من مطلع عام /1391/ وحتى عيد الفصح من ذلك العام[1].

إن رحلة بطلنا كرسول للبابا إلى ميلانو لم تكن الأولى من نوعها، فقبل ذلك كان قد سافر إلى فلورانسا وبافيا لكي يقنع حكام توسكانيا ولومبارديا في تقديم الدعم إلى البابا " بونيفاس التاسع" واستطاع "كوسا " أيضاً أن يبرم اتفاقاً حول عدم الاعتداء ولمدة ثلاثين عاماً مع هؤلاء، ولكن سرعان ما خرقت بنود هذا الاتفاق.

في ذلك الوقت بالذات توفي البابا كليمنت السابع (بابا أفينيون وعدو " بونيفاس التاسع ") وما إن شاع الخبر حتى هب ملك فرنسا وملك أراغونا وجامعة باريس وحاكما موغونتيا وبولون، وحتى " بونيفاس التاسع " ووجهوا رسالة إلى كرادلة أفينيون طلبوا منهم عدم الإسراع في اختيار بابا جديد خلفاً للبابا الراحل، واحترموا فيها أيضاً عقد اتفاق لإنهاء حالة التمزق والفوضى التي تعيشها الكنيسة الغربية ذات البابَوَيْن.

لكن كرادلة أفينيون دهشوا وأصابهم الفزع، لأنهم إذا ما أجلوا الانتخابات لاختيار خليفة للبابا كليمنت السابع، ووافقوا على الانتظار، فإنهم سيصبحون مضطرين للخضوع إلى البابا بونيفاس التاسع ويعتبرون كمذنبين ويطلبون منه العفو والسماح.

ودعا هؤلاء الكرادلة المجلس الكنسي الأعلى غير آبهين بتلك الرسالة وانتخبوا بيتردى لونا الذي كان غامض الشخصية، بابا جديداً خلفاً للبابا كليمنت السابع الراحل.

كان بيتردى لونا كاردينال أراغونة وأطلق عليه اسم " بينيديكت الثالث عشر ".

لقد حاول الكرادلة الاحتفاظ بمناصبهم بكل ما لديهم من قوة، غير أن بيتردى لونا ظهر على حقيقته كشخصية لا تلين بسهولة، فعلى الرغم من أنه اشترك في انتخاب البابا السابق وفي الانتخابات التي أوجدت التمزق والنزاع داخل الكنيسة الواحدة، فإنه كان ينادي بوجوب عمل الطرفين لإيجاد السبل اللازمة للمصالحة وفض النزاع، وأدرك الكرادلة أن هذه المهادنة ستثير ضدهم الرأي العام، وتهدد مصيرهم، غير أنهم مع ذلك أعلنوا بأنهم مستعدون لتقديم أية تضحية كانت " في سبيل الكنيسة ".

بعد أن تسلم البابا آفينيون الجديد " بينيديكت الثالث عشر " السدة البابوية، أطلع المجلس الكنسي الأعلى على بيان الكرادلة، وخاطبه قائلاً:

---

[1] – يقول أحد مؤرخي الكنيسة الكاثوليكية " غراف جولياني " في كتابه " تاريخ ميلانو " لقد أوضح البابا في المرسوم الخاص أنه من أجل الحصول على مغفرة الخطايا كان يجب على المسيحي أن يتناول عند الكاهن المحلي " أي يعترف أمامه بذنوبه ويفتح له روحه ".

وبيع صكوك الغفران مرده الاهتمام بـ " تخليص الروح " إلا أن المؤرخ نفسه يشير إلى أن عملاء البابا كانوا يبيعون صكوك الغفران بسهولة، حتى للذين لم يعترفوا ولكن بشرط واحد وهو زيادة قيمة الصك، ثم يضيف جولياني قائلاً: ومن الممكن طبعاً ان نتصور بأن البابا نفسه فوض رسله بأن لا يطلبوا التوبة والندم من المذنبين، الذين كان من بينهم قتلة أحياناً والذين اشتروا صكوك الغفران).

- إنني أتنازل على الفور عن الكرسي البابوي، إذا رأى المسيحيون إنه يجب عليّ أن أفعل ذلك، وأقسم بأنني لن أتراجع.

لكن دون جدوى فالمسيحيون في جميع أنحاء أوربا كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ذلك الخبر العميم وتنفيذ الوعود، وخاصة الوعد الذي قطعه على نفسه بابا أفينيون بينيديكت الثالث عشر الذي لم يعد مستعجلاً في تنفيذ وعده، وأخذت تتردد في ذهنه الشكوك. (61-96).

- هل صحيح أن الكنيسة ستخلع رئيسها الشرعي؟ وأنا هو البابا الشرعي والحقيقي، إنني لا أستطيع أن أتنازل عن قيادة الكنيسة لهرطيق ملعون.

وبدون جدوى اقترح ملك فرنسا وعلماء جامعة باريس على كلا البابوين التنازل عن الكرسي البابوي، كي يفسحا المجال أمام كرادلة وأنصار هذا الطرف وذاك للاجتماع وحل الخلاف، وتقرير من هو البابا الجديد والواحد للكنيسة الغربية، وكان بينيديكت الثالث عشر يُسَوِّفُ في حل هذه المشكلة زعماً منه أنه مع الزمن سيصبح البابا الوحيد، وسيعترف به حتى خصومه، لكنه كان يقول لنفسه ويعلن أمام الناس:

- أليس من الأفضل لي ولخصمي أن نلتقي في أي مكان ما ونقرر من هو منا على حق؟ ولو تبين أن خصمي على حق فإنني مستعد للسجود أمامه وتقديم الطاعة له.(79).

إن مثل هذا " التسامح " أو الطاعة من جانب بابا أفينيون، كان له الأثر الأكبر في الحجة أو الإقناع، حتى أن الإيطاليين ارتعدت فرائصهم خوفاًن ووجه سكان فلورنسا رسالةً إلى بابا روما " بونيفاس التاسع " صديق بطلنا "كوسا " جاء فيها:(سيكون من الأفضل للجميع لو تحذون حذو عدونا في تسامحه وتواضعه).

أرسل " بونيفاس التاسع " شخصاً موثوقاً به إلى أفينيون، لكي يطلع على النوايا الحقيقية للبابا بينيديكت الثالث عشر، وبدوره فإن بينيديكت أرسل بعثة إلى روما لنفس الغاية، إلا أن المبعوثين اتصلوا بالمقربين من بابا روما وحاولوا إقناعهم بالعدول عن تأييد بونيفاس والانتقال إلى صف بينيديكت.

بدأ مبعوثوا " بينيديكت الثالث عشر " أعمالهم، إلا أنهم كانوا سيئي الحظ، ووقعت في يد بونيفاس التاسع رسائل تفضح نواياهم الخفية، وتم طرد هؤلاء المبعوثين، وفي أعقاب ذلك أرسل " بونيفاس التاسع " إلى أفينيون سفيراً جديداً كان عليه إقناع بينيديكت الثالث عشر بالتنازل عن الكرسي البابوي لصالح " بونيفاس التاسع " .

وبالمقابل فقد أرسل بينيديكت الثالث عشر مبعوثه " فرديناند بيري " أسقف " تاراسونا " إلى روما، وكان على الأسقف أن يلتقي بسكان روما ويَكْسَبَهُمْ إلى جانب بينيديكت الثالث عشر غير أن " بونيفاس التاسع " علم بذلك وسجن الأسقف في قصر البابا فسخط الأسقف، وأطلق على " بونيفاس التاسع " اسم البابا الدجال، وقال مهدداً صديق "كوسا ":

- سترون ما يحل بكم بعد نصف عام، إن قواتنا ستخلعكم من سدة البابوية التي حصلتم عليها بطريقة غير شرعية.

فانفجر " بونيفاس التاسع " ضاحكاً:

- آه منك أيها التعيس، هل تظن أننا مغفلون؟ وهل تظن أنني لا أرى الوضع السيئ الذي يحيط بِ " بينيديكت " الذي لا تعترف به حتى فرنسا.(61).

الحقيقة أن الفرنسيين كانوا لا يرغبون في تقديم المزيد من الدعم إلى " بينيديكت الثالث عشر " لأسباب عديدة أهمها: إن البلاط البابوي في أفينيون ظل محافظاً على بيع الوظائف الكنسية بمبالغ كبيرة يأخذها الموظفون الجدد من جيوب أهالي وأتباع الأبرشيات، الأمر الذي يؤدي إلى فقر السكان لدفع ما عليهم للملك أيضاً.

في شباط عام / 1395 / دعا ملك فرنسا إلى مجمع كنسي في باريس وطلب من كلا البابوين التخلي والتنازل عن الكرسي البابوي " لإنقاذ الكنيسة " وأصم كل منهما أذنيه عن هذا النداء، ووجهت الدعوة ثانية لعقد مجمع آخر تقرر فيه تخليص الكنيسة من البابا الأول والثاني، إلا أن بينيديكت الثالث عشر ذلك المتساهل في الماضي لم يرض أن يسمع كلمة واحدة حول التنازل.

طَوَّقَ الجيش الفرنسي قلعة البابا في أفينيون وأرغم البابا " بينيديكت الثالث عشر " على الاستسلام، وقد حدث ذلك في الرابع عشر من شهر نيسان عام / 1399 / وأعلن بينيديكت:

– إنني أعد بخلع التاج البابوي، إذا فعل بونيفاس ذلك، وإنني مستعد للموت إذا كان فيه خلاص المسيحيين وتوحيد الكنيسة، كما أنه أرسل رسالة إلى الملك يؤكد له على ذلك بعودة رسمية.

وقررت فرنسا وبريطانيا وقشتالة وبلدان أخرى إرسال سفرائها إلى روما.

التقى السفراء " بونيفاس التاسع " وطلبوا منه بإلحاح التخلي عن البابوية كي يصبح بالإمكان فيما بعد رأب الصدع، فرد عليهم " بونيفاس التاسع " بعد أن استشار "كوسا " بما يلي:

– سأتخِذُ القرار على الفور وأُبَلِّغُهُ إلى رؤسائكم تحريرياً.

مرت الأيام والحكام والأمراء ينتظرون رد " بونيفاس التاسع " دون جدوى، ولم يتخل عن البابوية، كما لم يتنازل أي منهما عن سلطته.

أبلغ الإمبراطور الجرماني " ونتزرلاف " الملك " شارل السادس " بأن الإمبراطورية الجرمانية سوف تعيد النظر في الاعتراف بِـ " بونيفاس التاسع " إذا كانت فرنسا والبلدان الأخرى لا تعتبر انتخابه قانونياً، لكن سرعان ما خلع ونتزرلاف وخلفه الإمبراطور " ربرخت " نصير بابا روما " بونيفاس التاسع " فهلل هذا الأخير فرحاً وسروراً.

غير أن " بونيفاس التاسع " ظل مكتوف اليدين بعد أن صفق فرحاً لأن كولونيا المقاطعة الكبيرة التي تمردت انضمت إلى البابا الآخر واتفقت مع حاكم بروفانس الذي حرض سكان روما وأخرجهم إلى الشوارع ساخطين وأخذ الشعب يهتف:

– الحرية لروما، والموت للبابا المستبد .....

أما بطلنا القرصان سابقاً، والقسيس حالياً، فقد شَمَّرَ عن ساعديه وخلع ثوبه الديني ليقف على رأس قوات البابا.

سحقت "كولونيا " وقمع الشعب، وألقي القبض على ثلاثين من زعماء المتمردين في روما وسلموا إلى البابا، فأصدر " بونيفاس التاسع " أوامره بشنقهم، وعندما أصبح وحده مع كوسا فقال له:

– عليكم بتحضير الحرمان واللعنة على كولونيا، فأجابه "كوسا ":

– أيها الأب المقدس إن هؤلاء الرجال الذين ألقي القبض عليهم هم أتباع الأمراء والحكام الفارين، وليس لهم أتباع غيرهم، ويكفي أن تودعهم السجن.

– لا ..... يجب شنقهم " قال البابا ".

في ذلك الحين لم يكن يوجد في روما جلاد، لكن البابا أوجد الحل، وخرج من المأزق فأعلن أن الرجل الذي يوافق من بين الثلاثين المعتقلين على شنق الآخرين بنفسه سيطلق سراحه، وكان من بين هؤلاء المحكوم عليهم بالإعدام رجل شاب غره اقتراح البابا، فقام بشنق رفاق الأمس لينجو بجلده، مع العلم أن أباه وأخوين له كانوا من بين المشنوقين.

بعد أن نفذ الفتى المغرر به مهمته هَمَّ بالذهاب، غير أن " بونيفاس التاسع " أوقفه وهو يبتسم وأنت أيضاً ستشنق .....

والتفت إلى كوسا ليردف قائلاً: " بالتازار " .... ألا يستطيع صديقك القديم بوناكورسو أن يشنقه؟

فرد عليه "كوسا " مندهشاً:

– أيها الأب المقدس إنه قسيس.

– فليخلع إذن الثوب الكهنوتي ويشنقه.

– إنه لا يوافق على ذلك.

وفي هذه اللحظات سمعت صيحات تنطلق من بين جماهير روما المحتشدة والتي كانت تراقب المشهد عن كثب.

– هل يصح ذلك؟ لا يجوز أن يشنق، لأن البابا وعده بالإفراج عنه.

ثم اندفع الجمهور واختطفوا الشاب من بين الحراس وأبعدوه إلى خارج روما وأطلقوا سراحه.

إن النجاح في الصراع ضد كولونيا أكسب " بونيفاس التاسع " مزيداً من الثقة بالنفس، وأصبح الآن غير مستعد للاستماع إلى نداءات التنازل، أما البابا " بينيديكت الثالث عشر " الذي كان أكثر دبلوماسية فقد وجه القسم للمرة الرابعة:

- إنني أتنازل إذا كانت الكنيسة تريد ذلك، وإذا برهن بونيفاس ذلك البابا المدعي، على أنه سيحذو حذوي.

ولكي يؤكد على إيمانه بفكرة توحيد الكنيسة، وعلى نيته الطيبة في تحقيق ذلك أرسل بينيديكت الثالث عشر اثنين من سفرائه الأساقفة إلى خصمه.

أعلن السفيران أمام البابا " بونيفاس التاسع " :

- البابا بينيديكت مستعد للقبول بأي قرار صالح لمنع فشل الاجتماع، وليكن اجتماع مندوبين عن كلا الطرفين، أو مؤتمراً عاماً للكرادلة، وإذا كان بونيفاس يرى أن المسألة يجب أن يحلها العلماء الذين تحددهم الكنيسة، فإن بينيديكت موافق حتى على هذا أيضاً.

لكن " بونيفاس التاسع " الذي عزز مركزه في روما وشعر بأنه أكثر ثباتاً على الكرسي البابوي ، انقض على السفيرين قائلاً:

- لا مجال للحديث عن أية اتفاقيات أو قرارات، البابا الشرعي هو " أنا " وبينيديكت هو البابا الدجال، إنه هرطيق وخارج عن الدين، لا بل إنه كافر، فأجاب رسولا بينيديكت بغضب وألم:
- لكي تتوقفوا عند هذا الحد نقول لكم إن بينيديكت ليس سيمونياً وهو لا يبيع الوظائف الكنسية كما تفعلون.

لم يستطع " بونيفاس التاسع " أن يفعل شيئاً أمام هذا الرد المفحم واللاذع، واكتفى بأن أمر الرسولين بالانصراف حالاً.

وبعد لحظات سقط مغماً عليه من شدة الغضب والألم الذي انتابه، عندما سمع كلمات الرسولين الفرنسيين، وبعد ثلاثة أيام توفي.(74-89).

غير أنه قبل أن يفارق الحياة بوقت طويل كان يهتم بمصير صديقه الحميم "كوسا ".

وفي / 27 / شباط / 1402 / م رفع "كوسا " راعي كاتدرائية القديس " إيفستان " إلى رتبة كاردينال باعتباره السفير الشخصي للبابا الذي نفذ كل المهام التي كلف بها، وهنا لا بد من أن يلاحظ القارئ أن " بالتازار كوسا " حقق النجاحات الكبيرة في كافة الميادين تقريباً.

لا بد من الإشارة إلى أن "كوسا "كان قد عمل بنشاط في مجال نزواته وشهواته في أثناء مكوثه في روما أيضاً، ففي هذه المدينة كان يوجد كل شيء: العهر والدعارة والسِّفاح والخيانة الزوجية والاغتصاب وغيرها من الخطايا الذنوب الكثيرة التي تثير غضب الله.

لن نتطرق إلى مغامرات "كوسا " بالتفصيل في ذلك الوقت، بل إننا سنتطرق فقط إلى جانب منها، لأن نشاطه في هذا المجال فيما بعد (عندما أصبح البابا يوحنا الثالث والعشرين وامتلك زمام السلطتين الروحية والسياسية) يلقي الظلال على جميع أعماله السابقة، وهناك نذكر أنه كان يقضي جميع الليالي مع زوجة أخيه " ميكيل " التي كان قد أغواها منذ زمن بعيد، وقد كانت أخت أحد الكرادلة، ففكر " بالتازار " بأنه إذا زوجها لأخيه سيساعده في ذلك ويجعل منه في المستقبل رماحاً، واستطاع أن يحقق هذا الزواج وواصل " ميكيل "كأخيه الرابع "جوفاني" السير على خطا الأخ الأكبر " الأدميرال " غاسبار كوسا ".

ميكيل[1] لم يزر روما قط، وزوجته أصابها الملل بدون زوج، فَحَنَّتْ إلى عشيقها القديم والتقت به ولكن بصورة سرية عن " ياندرا ديلاسكالا " الغيورة التي كان قصرها في حي آخر من المدينة، والحقيقة أن " ياندرا " المسكينة لم تكن تدري بحقيقة تصرفات فتى أحلامها.

يقول سكرتير ديوان البابا " ديتريخ فون نيم " مترجم حياة "كوسا ":(في بولونيا وحدها استطاع كوسا أن يغوي أكثر من / 200 / امرأة وكان قد سافر إلى هناك بتكليف من البابا لحل بعض المسائل المتعلقة بالكنيسة والسياسة، إلا أنه لم ينس مغامراته العاطفية، كانت

---

[1] – **بناء على طلب من " بالتازار " عين " بونيفاس التاسع " " ميكيل " (القبطان العام) للقوات البحرية التي كانت تخدم كنيسة روما، وأصبح يتعين على قباطنة جميع السفن الموجودة في خدمة الكنيسة أن يخضعوا الآن لأوامر القبطان العام. (79).**

عشيقاته من بين النسوة المتزوجات والمطلقات والأرامل والفتيات والراهبات القاطنات داخل الأديرة، بعضهن أحببنه طواعية، وبعضهن اغتصبن في الأديرة مباشرةً من قبل صديق بونيفاس التاسع الحميم، والقرصان السابق، كما أن المتزوجات ضَحَّيْنَ بأنفسهن وبعضهن قتلن من قبل أزواجهن).

من الجدير بالذكر أن سكرتير ديوان البابا يزيف بعض الحقائق قليلاً، إذ أنه من المعلوم من مصادر كثيرة أخرى أن كوسا كان كريماً جداً مع عشيقاته، ولذلك فإنهن كن يرفضن العودة إلى بيوتهن وبذلك يَنْجَيْنَ من القتل.

في تلك الأيام كان القتل بسبب الخيانة الزوجية أمراً عادياً، كانت كل امرأة تعرف سلفاً ماذا ينتظرها إذا هي عادت إلى منزل الزوج المخدوع.

في " بولونيا " حاول "كوسا " البحث عن " إيما " صديقته القديمة، لكنه لم يبحث عنها كعشيقة، بل إنه أراد أن يشكرها مرةً أخرى، لأن "كوسا " لم ينس أن تدخل " إيما " أنقذه من أيدي عناصر ديوان التفتيش والتعذيب، وأنقذ حياته، لأنه كان من المحتمل أن يحرق مع " ياندرا " منذ سنوات عديدة، غير أن جهوده لم تكلل بالنجاح ولم يعثر على إيما لأنها كانت خارج بولونيا، وقد قالت له خادمة المنزل بأنها: تزوجت منذ عام وإن زوجها غني – أنولوجانوبي – وهي تعيش الآن في ميلانو.

توجه "كوسا " إلى بولونيا بتكليف من " بونيفاس التاسع " لاستجلاء الموقف، ومن هناك سافر إلى " فيرارا " في مطلع عام / 1403 / لكي ينظم ويترأس القوات بالاشتراك مع حاكم مالاتيسيا ومركيز دي إيسته ويحاول استعادة المدن والقرى من جديد إلى سلطة البابا بعد أن انشقت عن الكنيسة، ووقعت تحت نير الحكام المحليين[1] الأكثر قسوة.

استولت قوات البابا على بولونيا وكذلك على مودينا، ريجو، وبارما، وسمح "كوسا " للجنود بنهب السكان واضطر أعداء البابا " بونيفاس التاسع " إلى الاستسلام، وفي تلك العملية لم يبرز " بالتازار كوسا "كقائد عسكري قدير فحسب "كقبطان "كما يسمونه دائماً بل كسياسي محنك ودبلوماسي متفوق يستخدم الدسيسة بذكاء والخداع والغدر والنميمة، التي كانت السلوك الطبيعي والعادي في حياة إيطاليا آنذاك قبل ميكافيللي.

وهكذا أصبحت بولونيا وبيروجيا وأسيني أغنى المقاطعات التابعة للسلطة البابوية (وهي وقف القديس بطرس) تابعة لمستشار البابا الكاردينال " بالتازار " في الوقت الحاضر وذلك اعتباراً من / 25 / آب عام / 1403 /م.(41).

إن بطلنا الذي يمتلك السلطة والثروة لم يتخلّ عن مغامراته الغرامية، والآن لم يعد "كوسا " يهتم بالفتيات اللواتي تَعَرَّفَ عليهنَّ وفتنهن عندما كان طالباً في جامعة لونا (لأن السن تقدم به على ما يبدو)ما عدا إيما التي لم يستطع "كوسا " أن ينساها أبداً، ولكي يقوم بدسيسة غرامية جديدة فإن الكاردينال الشاب الثري لم يعد بحاجة إلى بذل جهود خاصة لأن الكثير من الفتيات استسلمن له طواعية.

إلا أنه على الرغم من المنصب الكنسي الذي يحتله في الوقت الحاضر، والغنى والمظهر الخارجي الوسيم فإنه لم يستطع الآن أن يحقق الانتصار المنشود، ولذلك فإنه كان يلجأ إلى الوسيلة المعروفة – العنف – بعد أن يأخذه الغضب، وقد حدث ذلك مع الراهبات

---

[1] – بولونيا مثلاً التي حاولت منذ قرون بعيدة الإفلات والنضال من اجل استقلالها وحريتها، حتى أن شعار المدينة كان مصنوعاً على شكل تاج أزرق، وكتبت على قسمه السفلي كلمة " الحرية " بأحرف ذهبية، ومنذ عامين كان شعب المدينة قد انتفض ضد الإقطاعي المحلي " جيوفاني بينتيفيلو " الذي أصبح حاكم المدينة، وأخذ الشعب يهتف آنذاك (عاش الشعب، الموت للسفاح جيوفاني) وبعد مدة قصيرة اضطر الحاكم إلى الفرار لإنقاذ نفسه متخفياً بزي امرأة، لكن ألقي القبض عليه وأرسل إلى مركز بولونيا حيث حوكم أمام محكمة الشعب وتم إعدامه في ساحة المدينة.

إن الشعب الذي قاسى الكثير من ظلمه واضطهاده صب غضبه حتى على جثته الهامدة فمزقوها بالسكاكين والفؤوس إلى قطع مبعثرة، وبعد عدة أيام فقط جمعت أشلاء جثته في عباءة ودفنوها في دار إحدى الكنائس الصغيرة دون إقامة الطقوس الدينية المعتادة، ولكن هل حصل الشعب بذلك على أي مكسب؟ لا ..... فهو لم يتخلص من نير هذا الإقطاعي الطاغية إلا ليقع من جديد تحت نير الكنيسة، لقد حدث مقتل الحاكم في عام / 1401 / وجاءت حملة " كوسا " ضد أمه بالرضاع (ALMA MATER) في عام / 1403 / أي بعد عامين، وما إن تنفس الشعب نسيم الحرية حتى سقط في أغلال ذلك الطاغية المستبد الذي كان يحكم متستراً بثوب الدين.

الجميلات وفي الدير مباشرةً، ومع فتيات المدينة وفي منازلهن أيضاً، وهناك من يتحدث عن قصة مع الراهبات الثلاثة اللواتي داهمهن في منزلهن واعتدى عليهن ثم زوجهن.

وهذه الحادثة – حادثة الاغتصاب – وردت في الاتهام الرسمي الذي وجه إلى "كوسا " بعد عشر سنوات في "كونستانسا " من قبل حكام أوربا الأقوياء الذين توحدوا وجمعوا صفوفهم ضده لإيقافه عند حده.

لم يكن "كوسا " المولع بالنساء ومغامراته العاطفية لينسى أو يهمل مطامعه ونواياه كمرشح كَ " خليفة " للبابا، وبعد شهر من السيطرة على بولونيا أي في أيلول اكتشف القرصان السابق والبابا اللاحق مؤامرة تحاك ضده، واستطاع القبض على زعماء المؤامرة وقطع رؤوسهم بنفسه كما كان يفعل في الماضي عندما كان قرصاناً محترفاً.

وكان " الكوندوتور آل داباريانو " قد استولى في حينه على عدد من القرى والمدن الواقعة على حدود سلطة البابا، لكن "كوسا " استطاع بالحيلة والدهاء (لا مجال لذكر ذلك بالتفصيل) أن يسترد منه هذه المدن.

وخلع " شيكوداسان سيفيرنو "كان يعمل قائداً لوحدة عسكرية تحت إمرته، لأنه لم ينفذ أوامره بدقة، كما أن "كوسا " ألقى القبض أيضاً على الحاكم السابق لمدينة " فانيسا " استور مانفريدي" وقتله لأنه حاول استعادة مدينته.

كان الناس يخافون من ذكر اسم الكاردينال "كوسا " (41) الذي كان يسير نحو هدفه مخلفاً وراءه بحراً من الدماء، غير أن هذه القسوة التي لا مثيل لها كانت ترفع من سمعته ومقامه في نظر " بونيفاس التاسع " فقط والكرادلة، لأنهم أُرْغِموا على احترامه خوفاً منه.

حاول "كوسا " مهاجمة " فورله " مباشرةً وعلى حين غِرَّة مستخدماً أساليبه الخبيثة القديمة، ولكن ما إن وصلت قواته إلى المدينة حتى أعلنت فيها حالة الطوارئ، وهب جميع سكان " فورله " إلى أسوار مدينتهم للدفاع عنا والتصدي لقوات كوسا ولم يسفر الهجوم المفاجئ عن نتيجة.

في جميع حملاته العسكرية كان يرافق بطلنا صديقاه المخلصان القرصانان القديمان المحترفان (رينيري غونجي وغوانداتشو بوناكورسو) اللذان أصبحا في غفلة من الزمن، من رجال الدين.

استطاع رينيري غونجي أن يحصل على رتبة أسقف فانو بدعم من كوسا، ولكونه كان متخصصاً في علم اللاهوت، أما " غوانداتشو بوناكورسو " الأعور المجدور والرجل العملاق فقد ظل قسيساً عادياً، لأن كوسا لم يحاول أن يمنحه رتبة أعلى (وغوانداتشو نفسه لم يرغب في ذلك) ورتبة قسيس كانت عالية بالنسبة له.

نقول لأولئك الذين يعجبون من تلك الشخصية الدينية الكبيرة التي كان يمثلها كوسا، كيف استطاع أن يقود القوات العسكرية التابعة لدولة البابا: لا تعجبوا أبداً، لأنه في ذلك العصر الذي نحن في صدده وقبله وبعده كان رجال الكنيسة، القساوسة ..... والأساقفة والكرادلة، وحتى الباباوات يشاركون أحياناً في العمليات العسكرية ويتولون قيادتها، وكان هؤلاء يرتدون الدروع والخوذ المعدنية الثقيلة، إلا أنهم لا يحملون أي سلاح معدني – لا رماحاً ولا سيفاً – لأن الدين كان يحرم عليهم سفك الدماء، غير أنهم استبدلوا هذه الأسلحة بأسلحة أخرى غير محرمة دينياً ولا تسفك الدم، إلا أنها كانت أقوى وأكثر فعالية وهي:(الهراوات الغليظة).

كان " خدم الله " يرفعون هذه الهراوات بكلتا اليدين ثم يهوون بها على رؤوس أعداء الكنيسة[1].

---

[1] – **الحقيقة أن ذلك لم يحدث على الدوام، وكان معظم رجال الدين يستنكرون مثل هذه البدع، إلا أنهم كانوا يستخدمون السكاكين بنجاح، ويحدثنا بوركفارت مثلاً عن أن بعض رجال الدين كانت قساوتهم تفوق قساوة قطاع الطرق، ويقدم دونيكولو دي بيلغاردي مثالاً على ذلك: ففي يوم ترقيته إلى رتبة قسيس ارتكب دون نيكولو وهو من مدينة فيغارلو جريمة قتل في / 12 / آب عام / 1495 / واختبأ في قبة جرس كنيسة سان جوليانو في فيرارا، ومن مدينة فيرارا سافر إلى روما وتقدم هناك بالاعتراف بالذنب وحصل على الغفران، إلا أنه سرعان ما عاد إلى قتل أربعة رجال آخرين وتزوج امرأتين في آن واحد، وكان يتجول بصحبتهما في مدن إيطاليا، وحتى بعد أن أصبح قسيساً ظل يمارس أعماله السابقة، وكان يقود خلية من قطاع الطرق (المهربين) ويعمل معهم وهم جميعاً في اللباس الكهنوتي في منطقة فيرارا، يسرقون وينهبون ويفرضون الإتاوات ومن لا يدفع يقتل، ويقول بوركفارت بأن العمل تحت ستار لباس الدين كان يسهل عليهم التنفيذ لأن الشعب كان يخدع باللباس، ويثق برجال الدين.**

ومن الجدير بالذكر أن بوناكورسو لكم يكن قد رافق بطلنا بحملاته العسكرية فقط، فهذا العملاق الأعور كان يقدم المساعدات إلى كوسا في أعماله " السلمية أيضاً " ففي بولونيا أردا بطلنا أن يذهب ذات يوم إلى المنزل الذي تقطنه عشيقتاه – الأم وابنتها – حسب الموعد المحدد، ولا تعجب أيها القارئ، فقد حصل مثل هذا الفجور مع كوسا في بيروجيا، حيث كانت لديه عشيقتان – أم وابنتها – تحت سقف واحد، فالأم تعرف عليها عندما كان قرصاناً في نابولي، ومنذ ست سنوات فقط عرفته على ابنتها، وحاولت إقناعه بأنها ابنته لكنه ضحك ساخراً منها، إلا أنه مهما يكن من أمره فقد أظهر عنايته بمعشوقته الشابة وزوجها وهو برجوازي طيب القلب يعمل طبيباً في بيروجيا وصاحب صيدلية أيضاً.

وهكذا فقد حدث الآن في بولونيا ما لم يحدث مثله قط من قبل، إذ أن بطلنا شاهد منذ شهر امرأتين على شرفة المنزل[1]، وبعد عشرة أيام التقى مع الأم، وبعد خمسة أيام أغرى ابنتها، وفي كل صباح كان يزورهما – بعد خروج صاحب المنزل طبعاً – الأم في الثانية والثلاثين من عمرها وابنتها في الرابعة عشرة.

وهناك يقدم " غوانداتشو " إليه المساعدة في هذا المجال، فقد كان يوجد حانوت صغير لبيع الخمور مقابل المنزل الذي تسكنه العشيقتان، فأرسل "كوسا " مساعده إلى هناك لشراء الخمر وليتأكد بانتباه من وقت خروج صاحب المنزل إلى عمله، ثم يبلغ "كوسا " بذلك حالاً وبعدها يدخل الاثنان إلى منزل العشيقتين.

ذات يوم لم يكن العملاق الأعور في الحانوت.

– أين اختفى ذلك الغول؟ تساءل "كوسا " بغضب شديد.

كان الوقت مبكراً وكوسا لا يعلم هل صاحب البيت – رب الأسرة – موجود داخل المنزل أم لا؟ بحيث يقع في مأزق مخزٍ، وبذلك تفضح أسراره وتعلم بذلك " ياندرا " الغيورة – التي وصلت إلى بولونيا من روما منذ يومين فقط، وهي تنتظره على أحر من الجمر، ويكاد ينفد صبرها.

وبعد أن يئس "كوسا " وتأكد من عدم وجود مخبره في الحانوت، ذهب إلى منزله الذي لم يكن بعيداً عن الحانوت المذكور وفي الشارع نفسه.

صعد "كوسا " إلى منزل " غوانداتشو " وبينما هو على السلم سمع صوتاً غريباً وهرجاً ومرجاً، ثم صوتاً ضعيفاً وحديثاً بين اثنين – صوت أنثى رقيق وصوت رجل فظ ثم صوت أنين شديد.

– آه منك ..... أيها الفاسق – قال كوسا – ثم اقتحم باب الغرفة قائلاً:

– أيها النذل الحقير، أيها الجرذ القذر، أيها الخائن .....

فامتقع وجه صديق الأمس وأصيب بالارتباك ولم يدر ماذا يفعل، غير أن بطلنا استرخى أمام الجسد الجميل العاري،جسد المرأة التي كانت مستلقية، كانت ذات جسد أبيض نضير وفتان، إنه لم يشاهد من قبل مثل ذلك الجسد الفتان، وعندما سمعت هي صوت كوسا كانت قد دفنت رأسها تحت الوسادة وألقت على جسدها شرشفاً صغيراً، وعندما رأى بوناكورسو "كوسا " يتجه نحو السرير قال له بصوت مرتجف:

– أيها الأب المقدس ..... لا تقترب من السرير ..... بالله عليك لا تسحب الغطاء.

وكانت المرأة ترتعد من الخوف وتحاول دون جدوى أن تدفن نفسها في الفراش ....

– أيها الأب المقدس لا تفعل ذلك ..... الأفضل أن تقتلني .....

ومن شدة الخوف والارتباك طوقت المرأة عنقها بالغطاء بإحكام.

عندئذٍ أخذ الشك يساور "كوسا " نتيجة الذعر الذي أصاب المرأة والإلحاح الشديد من جانب بوناكورسو، وقال لنفسه:

– قد تكون واحدة من النساء اللواتي أعرفهن في بولونيا.

---

[1] – **يقدم خصوم كوسا هذه الحادثة أيضاً في الاتهام الرسمي الذي وجه إليه كونستانسا.**

سار "كوسا " خطوةً أخرى نحو السرير فأخذت المرأة تتشنج وتغوص في فراشها متململة كالأفعى المربوطة، وفجأةً قال "كوسا " مخاطباً " غوانداتشو ":

– أيهما تفضل: أأكشف الغطاء وأرى وجه عشيقتك الفتانة، أو ألقي بنفسي في فراشها دون أن أكشف عن وجهها؟

وأخذ يندس شيئاً فشيئاً في الفراش وهو يبتسم ويتلمس الجسد الغض، وفي الوقت نفسه ينظر مسروراً إلى وجه " غوانداتشو " الخائن والقلق ..... والذي كان يتمتم ..... –كل ما تريد – أيها الأب المقدس ..... كل ما تريد ..... إلا أن تكشف عن وجهها.

لاحظ "كوسا " أنه قبل أن يتفوه بهذه الكلمات كان بوناكورسو يرمق المرأة بنظراته .... لعله ينتظر منها إشارةً ..... لكنه التفت إلى السرير قائلاً:

– آه ..... أيتها السيدة الفاتنة ..... إن فارسك العاشق رجل سيء لأنه يتخلى عنك بهذه السهولة، كاد بوناكورسو أن يفقد صوابه وهو ينظر إليهما ويحملق بالسرير بعينيه الزائغتين.

وفجأةً ترامت إلى مسامعهم ضجة في الشارع تحت المنزل مباشرةً، ثم سمعت أصوات أقدام تصعد السلم، فانتفض "كوسا " من زاوية الفراش بينما غطى بوناكورسو جسد المرأة بالغطاء.

– قال أحد القادمين مخاطباً "كوسا " : إننا نبحث عن قداستكم أكثر من ثلاث ساعات، وعليكم أن تذهبوا إلى روما في الحال.

– آه ..... قال "كوسا " مقطباً جبينه ..... وبهذه العجالة؟

ارتدى ثيابه بسرعة والتفت إلى المرأة الراقدة في الفراش تحت الغطاء:

– من المؤسف أنني سأغادر هذه المائدة الشهية بسرعة، وأبتعد عن هذه الفاتنة الجميلة والتفت إلى القرصان القديم:

– حسناً إنه من حسن حظك ..... ثم خرج.

مَنْ هي تلك المرأة المجهولة التي كانت في حضن ذلك القرصان الدميم " غوانداتشو " ؟ ولماذا أصرت إلى هذا الحد على إخفاء وجهها؟ سيعرف القارئ ذلك فيما بعد.

والآن ينبغي على بطلنا أن يأخذ معه " ياندرا " ويعود معها إلى روما على جناح السرعة.

.....

ما الذي حدث إذن؟ ولماذا يجب على " بالتازار كوسا " ذلك الكاردينال القوي ومستشار البابا أن يسافر إلى روما؟ .....

لقد توفي البابا " إينوكينتي السابع " خليفة البابا " بونيفاس التاسع "، وكان البابا " إينوكينتي " قد ترأس العالم المسيحي لمدة عامين فقط / 1404 – 1406 / ولم تتميز مدة رئاسته بأية أحداث تذكر إلا حادثة مقتل وجهاء روما في الفاتيكان، وقد ألقي بجثث القتلى إلى الشارع عبر نوافذ قصر البابا وكان هؤلاء القتلى من سكان روما الذين قاموا بالانتفاضة[1].

[1] **- حدثت هذه المجزرة كرد على مطالب سكان روما التي تنادي بالحرية لمدينة روما، وكان الباباوات يعرضون طبعاً في ذلك (علماً أنهم يوافقون على ذلك قولاً لا فعلاً) وفي سنوات حكم إينوكينتي السابع انتفض سكان روما وحرروها من أنصار وأتباع البابا وحددوا مكان إقامتهم في الفاتيكان فقط، واضطر البابا إينوكينتي السابع القبول بشروط سكان روما على مضض، ومنذ ذلك الحين كان يتعين على عشرة أشخاص أن يحكموا روما، من بينهم سبعة ينتخبهم وثلاثة يعينهم البابا، ولكي يؤمن البابا الدعم والتأييد لنفسه عين في هذا المنصب ثلاثة من الكرادلة الجدد هم: بيتر فيلارغ من كريت وأنجيلو كورياريو من البندقية وأوتون كولونا من روما، على القارئ أن يتذكر هذه الأسماء جيداً لأنها ستلعب دوراً كبيراً في تاريخ تلك الفترة، وبالإضافة إلى ذلك فإن البابا الذي خرق الاتفاق فيما بعد لم يغادر الكابيتول ولم يستخدم القوة التي كانت تحيط به، وواصل الرومانيون النضال الذي طال أمده، وفي السادس من آب / 1405 / قرر وجهاء روما المحترمون أن يدخلوا قصر البابا باسم الشعب للتفاوض معه، قَبِلَ البابا بمطالب وجهاء روما وهَمَّ الوفد بالخروج ليبلغ الشعب بذلك لكنهم منعوا من مغادرة القصر، وقتل الجميع بأمر من ابن أخ إينوكينتي السابع الذي حضر المفاوضات، وفي أثناء خروج رسل روما القاعة لحق بهم " لودفيغ ميليوراتي " ابن أخ البابا وأمر الحراس بقتلهم قبل أن يخرجوا إلى الشارع، وقتل بعضهم بنفسه، كما أمر بإلقاء**

أعلن عن الاتهام الرسمي بحق "كوسا " بجريمة قتل البابا " إينوكينتي السابع[1] ".

في كل مرة كان كل من الطرفين المتخاصمين اللذين اقتسما أوربا، عندما يموت البابا ويصبح الكرسي البابوي شاغراً، يقوم بعقد اجتماع عام للكرادلة ليختار بابا خليفة لسلفه الراحل، مسترشداً بهدف واحد فقط، هو المحافظة على نفوذه وقوته، والبابا المنتخب لم يكن زعيم الكنيسة الغربية كلها، بل هو زعيم لهذا الطرف أو ذاك فقط، كما أن الكرادلة لم يهتموا بتوحيد الكنيسة ولم يأبهوا لغضب الشعب واضطهاده وظلمه ولا لمطالب الحكام والملوك بل كان همهم الأوحد مصالحهم الخاصة.

إلا أنه عندما انعقد المجمع الكنسي الأعلى في شهر تشرين الثاني / 1406 / في روما كان ينبغي على الكرادلة الأخذ بعين الاعتبار مطلب الشعب المقهور والحكام لإنهاء حالة التمزق والانقسام، غير أن الأخذ بعين الاعتبار لا يعني التنفيذ حتماً.

ودون انتظار انتخاب البابا الواحد المشترك الذي يجب أن يعترف به كلا المعسكرين المتخاصمين قاموا بانتخاب " باباهم " الخاص بهم من جديد.

وبناء على استشارة "كوسا " تم اختيار المرشح المفضل، لكنه المرشح غير العادي والرجل الذي تولى منصباً عالياً ولقبا رفيعاً في الكنيسة الشرقية، إنه أحد بطارقة القسطنطينية، كان يدعى " انجيلو كورارِيو " وكان في الوقت نفسه كاردينالاً في الكنيسة الغربية.

لقد أظهر "كورارِيو " قدرة كبيرة على التبصر وبعد النظر في مجمع الكرادلة إذ قال فيهم خطيب:

- (أيها الآباء المقدسون ..... إننا نعيش أوقاتاً صعبة وعصيبة، فالشعب بأسره بدأ يفكر في تلك الوسائل التي رأى أنها ليست في مصلحته ولا من اختصاصه، فقيادة الكنيسة هي من اختصاص زعماء الكنيسة[2]، لذا ينبغي علينا أن نعمل المستطاع بأنفسنا بذلك بالتعاون فيما بيننا).

وأقسم الكرادلة على الإنجيل بأنهم سيكافحون من أجل توحيد الكنيسة، وأردف البطريرك المرشح للبابوية قائلاً:

هذه الجثث إلى الشارع من النوافذ، وقد فعل ذلك لكي يقنع الجميع في الفاتيكان بأن الإرهاب هو وحده القادر على إخماد الفوضويين والمتمردين، غير أن جميع القتلى كانوا معروفين من قبل المواطنين الذين أخذوا مناصبهم في جمهورية روما التي قامت منذ عهد قريب، وبلغ مجموع القتلى تسعة أشخاص، كما أن هذه المذبحة لم تسفر عن النتائج المرجوة، لأن الشعب أرغى وأزبد وشاط غضباً وحقداً على حاشية البابا وأعوانه، عندما رأى جثث ممثليه تلقى لإلى الشارع، وظهر السلاح في أيدي المواطنين وظهرت المشاعل فوق التلال المحيطة بالمدينة بعد أن خيم عليها الليل، ثم أخذت النيران تلتهم منازل الكرادلة، وقتل الكثيرون من أقارب البابا، واحتلت القصور في القسم الغربي من المدينة، وتتحدث المخطوطات عن حوادث القتل في المدينة، والمجزرة التي تلت ذلك في تلك الليلة، وها هو ليوناردو أريتينو يصف المصاعب التي واجهته وه ويسير مشدوهاً بين الجثث المبعثرة حتى وصل إلى قصر البابا:(كنت أرتدي العباءة الرسمية عندما أخذت أعبر الشوارع الواحد تلو الآخر دون أن يلاحظني أحد، وأجد صعوبة كبيرة في السير بين حشود هائلة من الجماهير المسلحة التي تحيط بالقصر، وأول ما لفت نظري عند قصر البابا تلك الجثث المتناثرة على الساحة أمام قصر الفاتيكان، والدماء تسيل من جراح الأبرياء الذين قتلوا بأمر من ابن أخ البابا، وعلى الرغم من الرعب الذي انتابني فقد توقفت ونظرت إلى تلك الجثث – إلى وجوه القتلى – فتعرفت على عدد من أصحابي بينهم، عندئذ لم أستطع أن أحبس دموعي المنهمرة ..... وأخيراً استطعت دخول القصر خلسةً، وهناك وجدت البابا إينوكينتي مغتاظاً ومتألماً جداً من جراء ما حصل، إنه لم يصدر الأمر بقتل هؤلاء، ولم يشترك مع ابن أخيه في تنفيذ هذه الجريمة، غير أن الثائرين لا يعرفون ذلك، وهكذا فإن هلا يستطيع البقاء في روما ، ويجب أن يفر لينجو بنفسه، لكنه كان عجوزاً، فأخذ يبكي على مصيره المشؤوم ويتضرع إلى السماء، ليشهد الله على براءته من ذلك، وفي تلك الليلة فر إينوكينتي السابع من روما واختبأ في فيتربو ولم يعد إلى روما إلا بعد أن نسي الشعب فعلة ابن أخيه) ويعتبر ب باسكيني من بين المصادر الحديثة التي تتحدث عن تلك الانتفاضة وفرار البابا من روما.

[1] - يجب أن يعلم القارئ بأن حوادث القتل والاغتيال لم تكن ظواهر غير مألوفة في إيطاليا خلال تلك السنوات مطلع القرن الرابع عشر، وفي هذا الصدد يقول الدكتور " بونتانو " لم يكن هناك شيء أرخص من حياة الإنسان، وكان عدد الجرائم المأجورة يتراوح فقط تبعاً لعدد الأشخاص القادرين على الدفع والأشخاص المستعدين لعمل شيء لقاء المال.(21).

كما يقول " بوركفارت " : ولا بد من القول إن عدد حالات القتل المأجور كان كبيراً إذا ما قيس بالنسبة إلى عدد حالات القتل التعسفي الأخرى، والقدوة في هذا المجال كان أصحاب السلطة الذين لا يتورعون عن القتل في سبيل المحافظة على قوتهم، ومن بين هؤلاء أسرة سفوريتس ملك أراغون وحاشيته، وحكام جمهورية البندقية والملك شارل الخامس، أضف إلى ذلك أن حكام ميلانو ونابولي وغيرهما من المدن الأخرى كانوا يلجؤون أحياناً إلى مساعدة القتلة المرتزقة لإنقاذ أنفسهم من الأعداء، فكانوا يجدون دوماً في قواتهم أولئك المتعطشين للمال.

كان بالإمكان تقليص عدد تلك الجرائم إلى حد كبير لو أن أولئك الحكام أدركوا حقيقة واحدة وهي أن عدد القتلة قليل جداً بين صفوف شعوبهم، وإنهم لا يجدون من يتحرك للقتل " بإشارة من سيده ".

[2] - كان الباباوات قد أطلقوا من ذ وقت طويل لقب بطريرك على الشخصيات الكنسية الرفيعة التابعة لهم، من اجل الإقلال من أهمية هذا اللقب في الكنيسة الشرقية، وكمثال على ذلك أطلق لقب " بطريرك " على رؤساء الكنائس في كل من بتروغراد والبندقية، وذلك بناءً على موافقة البابا (أو حتى بتوجيهات منه) وقد اتخذت مثل هذه الإجراءات إمعاناً في قهر الكنيسة الشرقية والإساءة إليها، والجدير بالذكر إن فلول الحملة الصليبية الرابعة والقادة العسكريين من الفرنجة من جهة، ورجال أسطول البندقية من جهة أخرى، عقدوا فيما بينهم اتفاقاً عند انتخاب إمبراطور القسطنطينية حول ما يلي:

= يتبع

= إذا انتخب الإمبراطور من رجال البندقية فإن البطريرك الأعلى يجب أن يكون من الفرنسيين، وعلى العكس، وقد انتخب الإمبراطور من بين الفرنسيين، ولذلك عين البطريرك من البنادقة وهكذا ظل البطارقة ينتخبون من بين البنادقة ما دام الحكم في القسطنطينية بيد الفرنجة.

- إذا وقع الاختيار عليّ فإنني سأقسم على العمل من أجل توحيد الكنيسة بكل الوسائل المتاحة، وسوف أتخلى عن هذا المنصب عند الضرورة.
- فليكن ذلك إذن، قال الجميع، وليعلم الجميع أن البابا المنتخب سيكون رمزاً حالياً للبابوية، ولن يكون فردياً في سلطته، كما أنه لا يستطيع تعيين كرادلة جدد إلا بعد موافقتنا في الظروف الطارئة، على عكس ما فعل بينيديكت الثالث عشر الذي زاد عدد كرادلته ليخدعنا وليحصل على العدد الكبير من الأصوات لصالحه (7-87).

إن كل ما سبق ذكره " دون " في بروتوكول رسمي كان " بالتازار كوسا " – كسفير بابوي مفوض – أول الموقعين عليه، ثم وقعه الآخرون، وبعد ذلك وضع توقيعه البابا المنتخب الذي أطلق عليه اسم " غريغوري الثاني عشر ".

في الأيام الأولى من انتخابه قام البطريرك السابق والبطريرك الحالي بدراسة الالتزام (التعهد) الذي قطعه على نفسه بشأن توحيد الكنيسة بالاشتراك مع بطلنا " كوسا " وقال مخاطباً " كوسا " بحماس:

- لكي نحقق النجاح في هذا العمل العظيم فإنني مستعد على الرغم من كبر سني للتوجه إلى بينيديكت حتى ولو ترتب عليَّ ذلك أن أقطع الطريق كله سيراً على الأقدام، أو أقطع البحر على ظهر قارب صغير (80).

وجه غريغوري الثاني عشر رسالة إلى خصمه جاء فيها:

- لا داعي للخلاف فيما بيننا حول حق كل منا، ويجب أن تقتدي بما فعلته تلك المرأة التي جاء ذكرها في العهد القديم: إنها فضلت أن تتخلى عن ابنها الحقيقي كي لا يقسم إلى نصفين نصف لها والنصف الآخر إلى ضرتها.

وسرعان ما أرسل بينيديكت الثالث عشر الرد التالي:

- ((موافق على مقترحاتكم ومستعد للتنازل معكم في شروط متساوية)). (89).

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الكاثوليكي الكبير " لودفيغ فون باستور ":(غير أن الرسالتين كانتا كاذبتين وكان كل من غريغوري الثاني عشر وخصمه يخدع الآخر).

خلال عامين بعد انتخاب غريغوري الثاني عشر (1407 – 1408) استخدم كل من البابوين مختلف أنواع المكر والخداع لعقد المزيد من الاتفاقيات المضللة، كما أنهما لم يهتما بتنفيذ تلك الوعود السخية التي قطعها كلاهما على نفسيهما، واستمرت بينهما حملة المراسلات التي تشمل على سيل الاتهامات والتجريح والسباب.

بعد ذلك تقدم الملك شارل السادس بطريقة بسيطة جداً (كانت قد تقدمت بها جامعة باريس من قبل) للتخلص من حالة الانقسام والضياع التي وقع فيها العالم المسيحي وهي: يجب على كل منهما التنازل عن الكرسي البابوي في آن واحد، وأمام المجمع الكنسي الأعلى لكل منهما، وبعد ذلك يلتقي المجمعان وينتخبان البابا الواحد المنشود.

غير أن الذي حدث هو أن كلا من البابوين استطاع الاتفاق مع الآخر، لقد اتفقا وأدانا معاً تلك المقترحات المنطقية والعملية، وكتب كل منهما إلى الملك شارل بعبارات متشابهة تقريباً جاء فيها:(لا ..... الأفضل هو أن يدعى المجمع الأعلى لكل طرف، وهناك أتنازل عن البابوية في نفس اليوم والساعة وفي آن واحد مع خصمي).

لقد اقترح هذا الإجراء كل منهما وهما يعلمان أنه غير قابل للتنفيذ، غير أنه بذلك تشكل لدى الرأي العام انطباع حول رغبتهما في دعوة المجمع الأعلى الموحد إلى الانعقاد وأصبحا خارج دائرة الاتهام.

وانتشرت الأقاويل والتساؤلات الساخرة بين صفوف الشعب ورجال الدين لدى الكنيسة الغربية لمدة طويلة، وكلها كانت تدور حول المكان المناسب لاجتماع الممثلين من كلي الطرفين بابا روما وبابا أفينيون حيث ينبغي حل مسألة التنازل.

حاول كل من البابَوَيْن إطالة أمد المحادثات الرامية إلى عقد ذلك الاجتماع، عن طريق خلق العراقيل المصطنعة، وتقديم الجديد من المقترحات، واتهام كل منهما للآخر في عرقلة توحيد الكنيسة.

اتخذ "كوسا " بطبيعة الحال الموقف المؤيد والداعم لسيده، لقد كان غريغوري الثاني عشر صنيعة "كوسا "، على الرغم من أن الأخير كان أصغر سناً، إلا أنه أقدم منه برتبة كاردينال، ولذلك فإن البابا الجديد كان يستشيره في كل شاردة وواردة بعد أن أبقاه سفيراً مفوضاً له في بولونيا، وقد كان ذلك منصباً عالياً ورفيعاً جداً في دولة البابا، وأصبح "كوسا " الكاردينال الأول.

وبعد أن استمرت المحادثات مدة طويلة بين البابوين تم التوصل في نهاية المطاف إلى الاتفاق حول مكان اللقاء، كان يجب أن يتم هذا اللقاء في " سافونا " إحدى المدن الواقعة إلى الشمال من جنوة، وعلى كل من البابوين أن يصل إلى هذه المدينة مع كرادلته لكي يتم الاتفاق هناك على كيفية العمل ووضع الخطة المناسبة، كما عقد اتفاق آخر بين ممثلي كلتا الكنيستين الكاثوليكيتين من جهة والملك الفرنسي الذي تقع جنوة والمناطق المحيطة بها ضمن حدود مملكته من جهة ثانية، ووافق الملك على تقسيم " سافونا " وضواحيها إلى قسمين متساويين يستطيع كل من البابوين وكرادلته النزول والإقامة في القسم المخصص له.

وسيكون في حوزة كل من البابوين عدد من الأحياء الكنسية والقلاع في منطقته المخصصة له، بحيث يستطيع كل منهما الدفاع عن نفسه إذا ما احتدم الخلاف، وقد جاء في الاتفاقية أيضاً أن حراسة كل من البابوين يجب ألا تزيد عن / 200 / رجل، وبالإضافة إلى ذلك يحق لكل منهما أن يكون في حوزته سبع سفن تنقله هو شخصياً مع كرادلته إلى سافونا.

وقع الباباوان على الاتفاق، وحاول غريغوري الثاني عشر إبلاغ ذلك إلى جميع حكام الدول المسيحية آنذاك (مع العلم انه كان ينوي خرق هذا الاتفاق)(96).

لا بد لنا هنا من الإشارة إلى حقيقة أخرى، لا يجوز أن تغيب عن عين القارئ، وهي أن كلاً من البابوين كان يحفر الحفرة المميتة لخصمه، في أثناء تلك المحادثات التي انتهت بعقد الاتفاق الذي نحن بصدده، وهنا نتوقف عند نقطتين فقط وهما:

- إن البابا بينيديكت الثالث عشر كان يجري محادثات سرية مع أسطول جنوة، في الوقت الذي كان يستعد فيه للتوقيع على الاتفاق وذلك لاحتلال روما، على أمل انتزاع المدينة الخالدة من خصمه ويتربع هو على العرش هناك، أما غريغوري الثاني عشر الذي لم يكن يدري ما يبيت له خصمه فقد اتفق سراً مع ملك نابولي بأن يسمح له بدخول روما عند الضرورة ليقدم الدعم إليه(5).

اقترب موعد ذلك اليوم التاريخي الذي طال انتظاره، موعد لقاء زعيمي الكنيسة الغربية، وإذا بالبابا غريغوري الثاني عشر يعلن عن أنه (لا يستطيع الاتفاق طالما أنه لا يمتلك أسطولاً تحت تصرفه، بينما يمتلك خصمه مثل هذا الأسطول) ثم أردف قائلاً:

- البنادقة لا يقدمون لي السفن، وأنا لست مجنوناً حتى أذهب إلى سافونا أو إلى أي مدينة ساحلية أخرى لأقع هناك في المصيدة التي نصبها لي العدو اللدود.

هل حقاً أن البنادقة لم يقدموا السفن إلى غريغوري الثاني عشر؟

((لا ..... إنهم كانوا مستعدين لإعطائه السفن، لأن ذلك من شأنه أن يحقق لهم مكاسب كبيرة، وبالإضافة إلى ذلك يساعدون ابن جلدتهم، ابن بلدهم، ليصبح البابا الأوحد، غير أنهم أجابوا بكلمة " لا " لأن أقارب وأصدقاء غريغوري الثاني عشر أَوْعَزوا لهم بذلك سراً لتمكين مرشحهم السري من خرق الاتفاق المعقود (61 – 96) عندئذ أدرك الناس في فرنسا أن البابوين يلعبان لعبة غير نظيفة، وأصدر الملك بتأييد من جامعة باريس وجميع الروحيين الفرنسيين أمراً جاء فيه: إذا لم يتم اللقاء بين البابوين فإنه لا يمكن توجيه الاتهام إلى أي منهما)).

وعندما علم بينيديكت الثالث عشر أنهم نالوا منه، لعن الجميع، وكان هناك من طلب منه التنازل عن البابوية بمن فيهم الملك، أما مضمون لعنته هذه فإنه لا يختلف كثيراً عن مضمون اللعنات السابقة التي أطلقها أسلافه في مناسبات أخرى.

لقد مر ذلك الزمن الذي كان فيه الحاكم أو الملك يرتعش ويخاف من اللعنات والحرمان الموجه إليه، وأصبح الملك الآن لا يخاف شيئاً إذ أنه دعا المجمع الكنسي للانعقاد وحضره أربعة وستون / 64 / أسقفاً ومطراناً (رئيساً للأساقفة) وأربعة ومئة / 104 / من رؤساء الأديرة وعلماء الدين والكنيسة، وعدد كبير من إقطاعيي المملكة، وقد قَيَّمَ هؤلاء البابا على أنه منشق هرطيق مرتد مخل بالسلام وأمن

الكنيسة، أما الأسقف " تورا " فقد ألقى كلمة مقذعة شتم بها البابا بينيديكت الثالث عشر، لكنها أساءت إليه هو لكثرة ما جاء فيها من كلمات نابية.

لقد سلمت لعنة البابا بينيديكت الثالث عشر التي يشتم فيها ملك فرنسا إلى أحد الجنود ليحرقها أمام حشد كبير من الناس، أما الأشخاص الذين جاؤوا بكتاب اللعنة والحرمان إلى الملك من عند البابا فقد اعتقلوا وعصبت أعينهم وأركبهم رجال الملك في عربة قمامة ورؤوسهم منكسة إلى الأسفل وأرجلهم مشرعة في الهواء وقد ربطت بها صورة البابا، ثم أحضرت لهم عربة نظيفة مكشوفة فأركبوا فيها وحملوا صورة البابا المقلوبة (المنكسة) وذلك لكي يعلم الجميع بأنهم خانوا البابا الذي أرسلهم، أما الملك المعوض وحامل وسام الثالوث المقدس ومدير معهد اللاهوت الذي كلفوه بتلاوة قرار المجمع أمام أتباع ومؤيدي ذلك المجمع فقد أضاف إلى ذلك القرار من عنده ما يلي:((إنني أفضل أن أُقَبِّلَ الخنزير على تقبيل البابا بينيديكت الثالث عشر))(87).

إزاء هذا الغضب الشعبي والملكي المتزايد كان لا بد لكل من البابوين من عمل شيء ما، فقد غادر كل منهما مقره وتوجه في طريقه ليوحي للشعب بأنه قادم للقاء بالآخر، وخرج غريغوري الثاني عشر من روما وتوجه إلى سيانا، لكن ظل فيها وبدأ من هناك بإجراء المحادثات.

(يجب تحديد مدينة أخرى للقاء القادم، وبالإضافة إلى ذلك يجب على بينيديكت أن يأمر أسطول جنوة بالتراجع والعودة، لأنه ليس في حوزتي سفينة واحدة، وعلى خصمي أن يحضر مثلي مكان اللقاء بدون سلاح).

وبالفعل أبدى بينيديكت الثالث عشر " سلامة نيَّتِه " هذه كما فعل غريغوري الثاني عشر وعندما توقف غريغوري الثاني عشر في سيانا واصل بينيديكت طريقه لكي يظهر حماسه للالتقاء بخصمه، ووصل إلى سافونا في الوقت المحدد، وأدرك غريغوري الثاني عشر بأنه سيقع في الفخ إذا هو لم يتخذ إجراءً ما، ولذلك فقد واصل سيره إلى " لوكا " ولكي يعبر بينيديكت عن جرأته غادر سافونا في طريه للقاء غريغوري، ووصل إلى بورتو – فينيرا، وسرعان ما تحرك منها إلى سبيتسيا وعندئذ ارتعدت فرائص غريغوري وتصبب عرقاً وأخذ يسأل نفسه: ماذا يجب أن أعمل؟ كان ينبغي عليّ أن أستشر "كوسا " في هذا الموضوع لكنني أرسلته ثانية إلى بولونيا (96).

أصبحت المسافة التي تفصل بين البابوين الآن هي خمسة عشر ميلاً فقط، يقول ليوناردو أريتينو في مذكراته حول تلك الأحداث ما يلي:(وكان أحد البابوين كالحيوان البحري لا يجرؤ على الاقتراب من ذلك الشاطئ).

يمكن الظن هنا أن كلاً منهما كان يريد أن ينهي تلك الكوميديا عن قصد أمام العالم المسيحي في أوربا، فكل منهما بلغ من العمر عتياً، ومن الطبيعي ألا يتنازل الواحد تلو الآخر عن منصبه دون أسف عليه بعد أن بلغ من العمر أكثر من ثمانين عاماً وأصبح على حافة الموت، أضف إلى ذلك أن كلاً منهما كان قد أعلن من قبل أنه مستعد للتنازل في سبيل إصلاح الكنيسة، وفي يوم الانتخابات أعلن بينيديكت الثالث عشر:

- إذا انتخبوني فإني سأتنازل عن منصبي حالما تطلبون ذلك، وذلك أفعل ذلك بكل سهولة كما أخلع الآن قبعة الكاردينالية عن رأسي.

ولكن طالما أنه لم يغادر مكانه اضطر الكثير من الكرادلة إلى التفرق عنه تحت ضغط من غضب الشعب، وجمعوا القوات وعينوا الكاردينال " نيوكاسترو " قائداً لها وتوجهوا إلى أفينيون إلى حيث عاد البابا وحاصروا قصره.

نجحت إحدى المحاولات المتكررة لاقتحام القصر، وجرح البابا واعتقله الكرادلة لكنه بعد مدة وجيزة تمكن من الفرار، عاد متخفياً بلباس آخر، فخاف الكرادلة منه وقلقوا على مصيرهم، فأخذوا يعملون على خدمته ويقدمون له الطاعة والولاء، فسامحهم على فعلتهم، إلا أنه لم يعد يأمن جانبهم، وكان يهددهم في معظم الأحيان ويضغط عليهم ويوجه إليهم كثيراً من الانتقادات ويتهمهم بالتواطؤ والعمل على التخلص منه ليأخذوا مكانه.

لم يكن البابا غريغوري الثني عشر أحسن حالاً من بينيديكت الثالث عشر، وهل يستطيع هو أيضاً الاعتماد على كرادلته ويثق بهم؟ إذ أن غريغوري كان يخشى فقدان منصبه، حتى في حال توحيد المجْمَعَيْن الكنسيين بسبب مواقف كرادلته غير الموثوق بهم (ولذا كان يجب أن

تضم بطانته عدداً محدوداً من الكرادلة الموالين له، والذين يقدمون له الطاعة العمياء) وهكذا فقد قام بمنح رتبة الكاردينال إلى عدد من القريبين منه.

إن غريغوري الثاني عشر الذي أعلن يوم انتخابه عن استعداده لقطع البحر على قارب صيد صغير أو أنه مستعد للسير على قدميه إلى آخر الدنيا للالتقاء بخصمه لإقناعه بضرورة تنازلهما معاً لما فيه خير الكنيسة ووحدتها، بدأ الآن ينفذ خطة خبيثة من شأنها أن تحدث أزمة كبيرة وتسد الطريق أمام حل المشكلة، فقبل كل شيء عيّن أربعة كرادلة جدد من بين الموالين له، اثنان منهما كانا من أولاد إخوته(104) ثم أجرى محادثات مع ملك نابولي فلاديسوف العدو الخطير والحاقد على الكرسي البابوي المقدس، والذي كان يدبر الدسائس والمكائد ضد الفاتيكان على الدوام، وكان قد حاول منذ زمن بعيد تدمير السلطة البابوية والاستيلاء على وسط إيطاليا وبسط نفوذه على هذا النحو حتى حدود إيطاليا الشمالية[1] (106).

إن الشروط التي قبل بها البابا للتعاون مع عدو الفاتيكان أثارت غضب جميع المسيحيين في أوربا، فقد باع البابا إلى فلاديسوف عاصمته والسلطة غير المحدودة فيها، مقابل / 25000 / فلورين تلقاها منه عن طريق نائبه هناك.

لا يصدق مثل هذا العمل، إلا أنه وارد في أقوال أولئك المؤرخين الكبار والمشهورين من أمثال: جينو كابوني – وفرديناند غريغوروفيوس – ومعارك رينيري، ويقول المؤرخون: إن غريغوري الثاني عشر حصل على أكبر ترضيةً عندما دخل فيلاديسلاف روما، ويقول سيسموندي في هذا الصدد:

(مهما حاول غريغوري الثاني عشر إخفاء مخططاته السرية، إلا أنه لم يستطع إخفاء فرحته العظمى عندما علم بهذا النبأ، لأنه كان يخاف من أن يقوم خصمه بينيديكت باحتلال روما بمساعدة من المارشال الفرنسي " بوسيكو " وأسطول جنوة الذي كان يرسو في أوستيا) وهو لا يزال في توسكانا.

اطمأن قلبه الآن لأن بينيديكت لم يعد قادراً على احتلال روما، وأصبح يملك الآن الأموال والوسائل الكافية لصد أي هجوم قد يتعرض له، وطلب عقد المجمع لممثلي الكنيستين الغربيتين من أجل حل المسألة الأساسية ألا وهي توحيد الكنيسة.

((إنني سأدعو بنفسي إلى عقد ذلك المجمع، إذا كان ذلك ضرورياً بالنسبة لي – قال البابا غريغوري الثاني عشر – في المكان والزمان اللذين أريدهما وأنا الذي سأشرف على المجمع، وسيحضره رجالي والمجمع سيكون في أودين)).

لقد فكر طويلاً قبل أن يختار هذه المدينة، إن هذه المدينة التي اختارها لتكون مكاناً لعقد المجمع تقع في شمال إيطاليا، وهي مناسبة لذلك لكونها غير بعيدة عن مسقط رأس غريغوري وموطنه " البندقية " وتجاور كلا من تيروليا وألمانيا، حيث كان يحكمها في ذلك الوقت أحد الحكام القلائل المؤيدين للبابا.

لقد كان غريغوري الثاني عشر على يقين من أن هذا المكان هادئ وأمين في إيطاليا المضطربة، والتي لم تعترف به سوى بعض دويلاتها المستقلة، وأرسل غريغوري رسائله إلى جميع الحكام والملوك لإرسال ممثلين عنهم لحضور المجمع الكنسي.

لم يكن بينيديكت الثالث عشر أقل تدبيراً ونشاطاً من غريغوري الثاني عشر، فقد أرسل دعواته لحضور " المجمع المسكوني " لكنه حدد مكان المجمع في بيرينيان التي كانت تابعة آنذاك لأراغوانا، والتي كان ملكها يدعم ويؤيد البابا بينيديكت الثالث عشر، وهكذا فإن كلا من البابوين درس الموقف من جميع جوانبه واتخذ جميع الإجراءات، إلا أنهما توصلا إلى استنتاج واحد وهو: أنه لا يجوز لجميع المسيحيين في أوربا الاعتقاد والظن بأنهما لا يرغبان في تنفيذ جميع مطالب مسيحيي البلدان الغربية لعقد المجمع، وينبغي إقناع الناس بالاعتراف بضرورة دراسة الموقف الناشئ بجد واهتمام وإيجاد أفضل السبل لتصحيح الخطأ، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يتهمهما بالتقصير في رأب الصدع.

على هذا النحو استقر الموقف كل واحد من البابوين يأمل بأن المجمع الذي دعا إليه سوف يؤيده ويدعمه وبأن أعماله هي الصحيحة، وبذلك يستمر الانقسام إلى ما لا نهاية.

---

[1] – **كان شعاره على الدوام :(القيصر أو لا أحد) (aut Caesar, aut nihill) باللاتينية.**

واستمرت المهزلة، وأخذت المحافل الدينية التابعة للكنيسة الغربية تسيء إلى المسيحية علانية، ظل كل منهما متمسكاً بمنصبه البابوي ويخشى كل منهما الآخر ولا يعترف بالخطأ، ويحاول إقناع أتباعه بسلامة نواياه وصحة موقفه، ويُنَوِّهُ لخصمه بقوته المتعاظمة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن:

- ما الذي كان يفعله "كوسا" في هذا الوقت؟

تقول المصادر التاريخية إن القرصان السابق أصبح أحد أكبر الشخصيات المعروفة في تلك الفترة، وأقوى أمراء الكنيسة الغربية، والذي ساعده على تحقيق ذلك ليس قدراته الذاتية وذكاؤه ومعارفه الواسعة ولباقته وقوته فحسب، بل وغناه أيضاً وثروته التي جمعها عن طريق القرصنة، والتي تضاعفت خلال السنوات الست الأخيرة التي أصبح فيها كاردينالاً وسفيراً مفوضاً للبابا.

إن رومانيا – أغنى منطقة في إيطاليا –كانت بمثابة " دولة تحت تصرفه " لقد قادها بيد من حديد، وظل على الدوام يحاول توسيع حدودها، وهو لا ينسى هجومه الفاشل على فورلي منذ عامين، ولذلك فإنه درس الموقف الآن بصورة جيدة، وتحرك إليها بقواته، وفي هذه المرة استطاع الاستيلاء على تلك المدينة، وأضاف بذلك لؤلؤة جديدة إلى تاج الدولة البابوية.

كان "كوسا" واحداً من الكرادلة القدامى الذي اعتبره غريغوري الثاني عشر صديقاً له، هذا وقد استفاد "كوسا" من تلك الثقة التي منحه إياها البابا، وعندما انفرد به وبأحد أتباعه عندما كانوا يعبرون رومانيا إلى توسكانا، قال "كوسا" مخاطباً البابا:

- أرى أنكم اتخذتم إجراءات ليست سليمة تماماً في خلال الآونة الأخيرة .....

فرد عليه غريغوري مشيراً إلى أن صديقه لم يفهمه:

- وهل هناك أهمية لو أن المجمع عقد في غير مدينة سافونا؟ ولذلك دعوت لعقده في أودين. فنظر "كوسا" إلى البابا غريغوري نظرة شك وارتياب ثم قال:
- وهل تستطيعون قداستكم أن تخدعوني أنا بالذات؟ والكرادلة القدامى؟ ولماذا قمتم بتعيين كرادلة جدد؟

فقطب غريغوري حاجبيه قائلاً:

- أنا البابا ..... وباعتباري البابا فإنني أستطيع أن أعين من أشاء من الكرادلة، وسوف أعين المزيد منهم.

فتنهد "كوسا" قائلاً:

- كن حذراً أيها الأب المقدس، ولا يجوز أن تقوم بأي عمل ليس في مصلحتكم، وأنت رمز للبابوية فقط، ونحن اخترناك بدون إجماع المسيحية، وعلى هذا الأساس وقعتم على الاتفاق المشروط، ولذلك فإنك الآن تخرج عن القرار الذي اتخذناه قبل انتخابك، وفي هذه الحالة من يستطيع أن يجبرني على السير في سياستكم هذه وطريقكم الشائكة؟

نظر البابا شذراً إلى "كوسا" ثم التفت إلى مرافقه قائلاً:

- شارل .....

وكان هذا المرافق حاكم ريمينا، وتابعاً أميناً ومخلصاً لغريغوري الثاني عشر ومستشاراً للكرسي البابوي المقدس كارل مالاتيستا.

- شارل ..... قال البابا ثانية: اعتقل هذا الرجل الناقص، وينبغي أيضاً اعتقال الكرادلة والقساوسة الآخرين المتمردين في لوكا.

ولم يكد ينبث حاكم ريمينا بكلمة واحدة حتى قام " بالتازار " بحركة خاطفة ومفاجئة وألقى عن كتفيه الرداء الكاردينالي الأحمر، وبرز أمام الجميع قرصاناً حقيقياً بخوذته وصدارته المدرعة والخنجر في يده والبسمة الساخرة على وجهه قائلاً:

- شارل إنك رجل ذكي ..... ولست كسيدك ..... إنني أحرك ألفاً وخمسمئة رجل مقابل خمسمئة من رجالك، وأنا أدركت منذ زمن بعيد أنه لا يجوز الاطمئنان لهذا البندقي الماكر – دون أن يذكر كلمة البابا – ثم صاح مخاطباً:
- " غوانداتشو " ..... اقرع ناقوس الخطر ..... ولير رجالنا هذين الاثنين .....

وانطلق ذلك العملاق القبيح بردائه الكهنوتي وبسيفه وخوذته من وراء الستار، وبضربة واحدة على الجرس انطلق مئات المسلحين إلى الساحة(2).

إن هذه الحادثة كانت حجة دامغة لدى مؤرخي الكنيسة للقول بأن "كوسا "كان قد نصب كميناً للبابا عندما كان هذا الأخير مسافراً عبر رومانيا، وأن البابا أنقذ بفضل مالاتيستا فقط(89).

بعد خمسة أيام من خروجه من ذلك الفخ أصدر غريغوري الثاني عشر لعنته القاسية، وبالإضافة إلى ذلك أصدر غريغوري حرمان "كوسا " من رتبته ومن حقوق السفارة البابوية، وحرر جميع سكان بولونيا من التزاماتهم تجاه السفير البابوي، وحرم عليهم تنفيذ " أوامر "كوسا " وقد جاء في البيان البابوي أن السفير البابوي السابق كان طاغية وسيره الشيطان بسيفه.

أما رد "كوسا " على ذلك فكان الابتسامة الساخرة:

– سأريه ما يعجبه ..... ذلك العجوز ..... انزعوا اسم ذلك الغبي العجوز عن لافتات جميع الأبنية الرسمية ..... فمنذ هذا اليوم سأصبح أنا الحاكم المكلف والمستقل لأغنى وأجمل أسقفية (89).

ثم غادر "كوسا " بولونيا متوجهاً إلى لوكا لكي يلتقي مع الإخوة " الكرادلة " لقد ابتهجوا جداً عندما رأوا "كوسا " ورأى فيه الكرادلة الشخص الذي يستطيع أن يقود الحركة ضد البابا وقد صحوا الآن من حلمهم.

قال "كوسا " لهؤلاء الكرادلة:

– انتم أغبياء ببقائكم هنا في لوكا، فمن يضمن أنهم لا يسلمونكم إلى البابا؟ وهل تستطيعون أن تثقوا بأي شخص كان؟

تذكر الجميع بخوف وهلع قصة الكرادلة الستة الذين قضوا نحبهم على يد أوربان السادس وتحملوا كل أنواع التعذيب والتنكيل إلى أن وضعوا في أكياس وألقوا بهم إلى أعماق البحر.

رأى هؤلاء الكرادلة المخدوعون مدى طيبة قلب أخيهم القرصان السابق، وكم هو يدرك روح العصر عصر الكذب والرياء والخيانة والخبث والفجور، الذي يتقنع فيه المجرمون بأقنعة الحب والتسامح والفضيلة.

– تعالوا إليّ في بيزا، وهناك ستصبحون في أمان.

ثم أعلن القرصان السابق " قائد هؤلاء القساوسة والكرادلة المعترف به الآن " قائلاً:

– كانت بيزا منذ بضع سنوات تابعة لأملاك فلورانسا، وكان "كوسا " على علاقة مع فلورانسا، وإن المصالح المشتركة للمدينة الرئيسية توسكا والمناطق التي يشرف عليها كوسا لا تسمح لهم بعقد الاتفاقات والأحلاف الجانبية.

كتب "كوسا " – الكاردينال – إلى .م. رينيري، الذي يحتفظ لنفسه ببولونيا ورومانيا بكاملها، ويمتلك أموال وموارد دولة البابا في إيطاليا، والثروات الخاصة الطائلة التي جمعها إبان حكمه وتسلطه على هذه المقاطعات ليقول بأنه أصبح الذراع الرئيسية لحركة الكرادلة، وإنه دعا بغيرة وحماس إلى مجمع كنسي في بيزا (89).

ويقول غريغوري الثاني عشر في رسائله التي يضمنها أسفه وغضبه:

– لقد استطاع بالمكر والخداع أن يجذب إلى جانبه الكثير من أنصاره ومن بينهم بطرس فيلارج.

كان الكاردينال بطرس فيلارج رجلاً مشهوراً من رجال الكنيسة الكاثوليكية الغربية، وذا علم غزير وسعة اطلاع وأخلاق ومعنويات عالية ولا يشبه الكثيرين من رجال الكنيسة آنذاك.

نرجو من القارئ ألا يعجب إذا علم أن الكاردينال يوناني ومن جزيرة كريت، كان يتيماً في ريعان شبابه، وعندما استولى البنادقة على هذه الجزيرة اليونانية الكبيرة لاحظوا الإمكانيات التي يتمتع بها هذا الفتى، فحملوه معهم إلى البندقية وأصبح هناك كاثوليكياً، وأدخلوه المدرسة ثم أرسلوه إلى باريس في البداية لتحصيل تعليمه العالي، ثم إلى بريطانيا في أكسفورد، وعند عودته حصل على رتبة أسقف، وبعدها أصبح أسقفاً أكبر " مطراناً " على ميلانو، وكان حكام ميلانو والكرسي البابوي الأعظم يرسلونه على رأس بعثات كثيرة إلى مختلف المدن الإيطالية وكذلك إلى ألمانيا وبوهيميا وبولونيا، لقد اشتهر بأفكاره وآرائه اللاهوتية وبلاغته (كان بروفيسوراً في جامعة باريس) وحتى هذه الشخصية اللامعة في حياة الكنيسة استطاع كوسا أن يضمنها إلى جانبه في صراعه ضد غريغوري الثاني عشر (90).

. . . . . .

لم تشهد الكنيسة الغربية مثل هذا الواقع السيئ منذ قيامها وحتى الآن، فالناس أخذوا يهزؤون برجال الدين أحياناً، وبهذين البابوين المتصارعين وأحياناً أخرى تأخذهم الغيرة الدينية فينتفضون ولكن دون جدوى، وأصبحت المسيحية الغربية تنتظر بفارغ الصبر نهاية هذه المهزلة القذرة التي يمثل الباباوات فيها الأدوار الرئيسية.

وجه الملك شارل السادس إلى الشخصيات المقدسة في الكنيستين التابعتين له (روما وآفينيون) وطلب القساوسة وغيرهم من رجال الدين الآخرين الانعزال والتخلي عن زعمائهم، وقد جاء في تلك الرسائل:

- ألا يكفي هذين البابوين المقدسين اللذين تنقصهما الكفاءة والخبرة، تهكماً وضحكاً عليكم وعلى الكنيسة الغربية ومسيحية أوربا بكاملها؟ وهل صحيح أنه لا يكفيهما سنة واحدة لكي يلتقيا في أي مكان كان على الأرض وينفذا الوعود التي قدماها؟ فبدلاً من السعي إلى التوحيد أصبحا يرغبان في تكريس الانقسام، وفي الدعوة إلى مجمعين متخاصمين ..... أيها الكرادلة انفصلوا عنهما وتوحدوا وادعوا إلى مجمع مشترك في أية مدينة كانت .

ولقد توجه غريغوري الثاني عشر برسائله أيضاً إلى كرادلته السابقين وقد جاء فيها:

- غادروا بيزا على الفور وانسوا كل ما تفكرون به، لا يزال أمامكم متسع من الوقت للعودة إليّ، وإذا واصلتم الاستماع إلى نصائح المسيح الدجال، فلا تأملوا في العودة إليّ فيما بعد، إنني أقبل بكم دون أية شروط مسبقة، فأنا البابا الآن وسأبقى، وإنني سأختار الكرادلة الجدد الذين أثق بهم ويثقون بي، والذين سيسيرون معي على الطريق (104).

لم تُجْدِ تلك الرسالة نفعاً، وظل كرادلة غريغوري الثاني عشر في بيزا وفضحوا باباهم أمام المسيحية جمعاء وشهروا به بإيعاز من بطلهم المحبوب:(لقد قام غريغوري الثاني عشر وسيظل يقوم بالكثير من الإجراءات والخطوات غير القانونية والتي تتعارض مع القوانين المقدسة، إننا نحتج على البابا ونتهمه بهذه الأعمال غير الشرعية، ولكي نعالج هذه المسألة قررنا دعوة المجمع الذي يجب عليه انتخاب البابا (74). ورداً على هذه الرسالة أصدر غريغوري الثاني عشر اللعنة والحرمان على هؤلاء الكرادلة، ومن أجل الزيادة في تحقيرهم فقد تضمنت اللعنة كلمات جارحة ولاذعة لا يمكن أن يتحملها أصغر رجل دين آنذاك.

لم يفتّ ذلك في عضد الكرادلة وظلوا متمركزين بصلابة وقوة وراء جدران منازل بيزا الجميلة التي لصقوا عليها المناشير الداعية إلى اعتبار بينيديكت الثالث عشر وغريغوري الثاني عشر المسببين في الانقسام والتمزق والإضرار بالمسيحية.

في الوقت نفسه كان غريغوري الثاني عشر قد عين كرادلته الجدد، وأصدر لعنة ثانية إلى كرادلته القدامى ضَمَّنَها قذائف الحرمان والغضب، إلا أنه توجه إلى الإمبراطور الألماني روبرخت يطلب إليه المجيء إلى إيطاليا لكي يطارد ويقتل الكرادلة ورجال الكنيسة الآخرين الذين يُحَضِّرون لعقد المجمع في بيزا، وبالإضافة إلى ذلك فقد أرسل إلى روبرخت أحد كرادلته – ابن أخيه – الذي طلب إليه أن يحث الإمبراطور على تنفيذ طلب البابا (104).

وفي هذا لوقت بالذات أعلنت جمهورية فلورانسا على لسان مئة من أشد رجال اللاهوت فيها أن البابا غريغوري الثاني عشر هو هرطيق ومرتد وعدو للكنيسة المسيحية.

وقطعت فلورينا تبعيتها للبابا، وأرسلت إليه رسالة باسم انجيلو كورارِيو (اسمه قبل حصوله على لقب البابا غريغوري الثاني عشر) تطلب إليه فيها الحضور إلى المجمع في بيزا والدفاع عن نفسه إزاء الاتهامات الموجهة إليه.

كان بينيديكت الثالث عشر قد وقع في المأزق نفسه، فقد تخلى عنه كرادلته أيضاً، ووقف هؤلاء موقف العداء من باباهم ووصفوه بِـ " صاحب الدسائس والمكائد ".

أصدر بينيديكت الثالث عشر الحرمان واللعنة على كرادلته في بيان خاص، وفي الوقت نفسه قام بنشاط واسع في كاستيليا وأراغونا وشوتلانديا وفرنسا محاولاً بذلك جمع عدد أكبر من الأنصار الروحيين إلى جانبه.

وهكذا أصبح في عام / 1409 / يجب عقد ثلاثة مجامع مسكونية من ممثلي مختلف البلدان التي تدين بمذهب واحد، مجمع في بيرينيان وآخر في أودين وثالث في بيزا، وبالطبع كان المجمع الأخير هو الأكثر إثارة ومسكونية، إلى مجمعي أودين وبيرينيان، يجب أن يحضر المهتمون باستمرار انقسام الكنيسة، أما مجمع بيزا فقد أيده حكام وكنائس بلدان أوربا الغربية الذين كانوا يرغبون بتوحيد الكنيسة، كما أن الكثير من كرادلة بينيديكت الثالث عشر حضروا إلى بيزا للمشاركة في مجمعها المنتظر (90).

في آذار من عام / 1409 / حيث يقول مؤرخ الكنيسة الكاثوليكية المشهور " ي . ألسوغ ":(لم تشهد الدنيا أجمل وأعظم من مشهد افتتاح المجمع في بيزا) .

لقد اشترك في ذلك المجمع / 23 /كاردينالاً من كلا الطرفين الكنيسة الغربية و / 90 / أسقفاً وعددا من ممثلي / 102 / مطراناً، و / 87 / مندوباً عن / 200 / قَيِّم على الأديرة، و / 120 / مدرساً للاهوت و / 300 / بروفيسور وعالم في القانون الروماني وسفراء بريطانيا وفرنسا والبرتغال وبوهيميا (التشيك) ومملكتي نابولي وقبرص. (24 – 67).

ويردف " ي . ألسوغ ":(بعد الاستماع إلى اثنين من كبار اللاهوت – بيردي إيفا وجيرسون- أعلن المشتركون في المجمع في / 25 / آذار / 1409 / أن المجمع مسكوني، ورفضت احتجاجات بينيديكت الثالث عشر وغريغوري الثاني عشر وأعلن أنهما حاقدان على الكنيسة غير صالحين لمنصب البابوية، هرطيقان، فاسدان، مرتدان عن المسيحية ولا يستطيع أحد منهما أن يصبح زعيم المسيحية).

ويقول .م. رينيري في هذا الصدد:(ومن بين الكرادلة الذين كانوا من أتباع غريغوري الثاني عشر في الماضي احتل المكان الأول كاردينال مجمع كنيسة القديس إيفستاف بالتازار كوسا وأصبح الآن الركيزة الأساسية التي يقوم عليها مجمع بيزا، لأنه استطاع أن يضع تحت تصرفه القوات والأموال والأراضي، ففي حين كان البابا غريغوري الثاني عشر يبحث عن ملجأ له لدى كارل مالاتيستا وحاكم ريمينا، كان "كوسا " يُعِدُّ نفسه ليكون الحاكم المطلق في " بولونيا " و " فورله " و " فاينسي " دون أن يهتم بتهديدات ولعنات البابا وحرمانه، وقد حال دون ذلك بقوات ملك نابولي فلاديسلاف التي دخلت بيزا، وشتّت المجمع.

إن مثل ذلك الشخص الذي سما مركزه عالياً، وسعى ليرقى سلم الشهرة درجات أخرى، كان له أصدقاء كثيرون، وأعداء حاقدون، وفي جميع أنحاء أوربا سرت الأقاويل والإشاعات المتناقضة والمتعارضة.

ويقول البعض: إنه نشأ في أسرةٍ قديمة ومشهورةٍ في نابولي، واهتم بدراسة الفن والفلسفة، ثم انشغل بالأمور العسكرية، وبرز في العديد من المواقع، ثم فَضَّلَ خدمة الكنيسة على كل شيء، وسرعان ما لمع نجمه في هذا المضمار أيضاً، وعينه البابا بونيفاس التاسع حاكماً على بولونيا والمناطق المجاورة لها التي استطاع أن يحميها من خطر الغزو، والمحافظة عليها تحت سلطة دولة البابا.

والبعض الآخر يقول مؤكداً على أن "كوسا ":كان قرصاناً في شبابه ومارس القرصنة على شواطئ صقلية، وأكسبه ذلك عادة النوم في النهار والصحو في الليل، ثم أصبح طالباً في جامعة بولونيا، وساعدته صفاته على الدراسة والنجاح، وعندما أصبح "كوسا " قسيساً أخذ بونيفاس التاسع الذي يعرف مقدراته ومواهبه في حل العقد وتسيير الأمور يرفعه إلى الأمام بالتدريج ليحتل مراتب أعلى إلى أن أصبح حاكماً لبولونيا، وهنا برزت بصورة خاصة الموهبة العسكرية والإدارية لكوسا، وأصبح مستبداً بكامل السلطات لا يهاب أحداً ولا يحترم أحداً ويعتدي على أملاك وحرمات الآخرين.

ولكن مهما يكن من أمر فإن أصدقاء "كوسا "كانت أصواتهم أقوى بكثير من صيحات أعدائه، وتحت قيادته كان الناس يأملون التوصل إلى تنفيذ القرارات المستقبلية للمجمع وفتح أبواب روما (الواقعة تحت سلطة صديق غريغوري الثاني عشر ملك نابولي) أمام البابا المنتخب. (49-50-53-88).

. . . . . .

في ذلك المساء الربيعي خرج ثلاثة من رجال الدين من مبنى مجمع بيزا (حيث يعقد مجمع الكرادلة وعلماء اللاهوت)، وقد لاحقهم الناس المحتشدون حول مبنى المجمع وبرج بيزا المشهور بنظراتهم الفضولية إلى أن غادروا القصر، وانحدروا على الطريق المؤدية إلى المكان الذي تقع فيه الآن حديقة النباتات، ومن هناك تابعوا سيرهم نحو نهر آرنو.

– يا إلهي ..... كم عدد الناس كثير هنا، قال الرجل الذي يسير على الجانب الأيمن وهو يلتفت إلى الشخص الذي يسير في الوسط ..... يبدو أن أكثر من عشرة آلاف رجل جاؤوا إلى بيزا لكي يتبجحوا فيما بعد بأنهم حضروا انعقاد المجمع .....

فأجابه الأسمر الطويل والجميل الذي كان يسير في الوسط:

– طبعاً يا سيدي رينيري والبسمة الساخرة تعلو وجهه، إن كل واحد سيفخر بأنه كان هنا أثناء انعقاد هذا المجمع التاريخي.

لاح نهر آرنو من بعيد ..... وكان الشخص الذي كان يسير في الوسط ويرتدي ثوب الكاردينال الأحمر هو " بالتازار كوسا " وعلى يساره مرافقه " غوانداتشو ".

أخذ "كوسا " يؤنب " غوانداتشو " بشكل خفيف، ويلوح له بأن ثقته به أخذت تضعف شيئاً فشيئاً، فرد عليه " غوانداتشو ":

– سيدي ..... من يُكِنُّ لك الوُدَّ والولاء أكثر مني؟ ولماذا لم تكن عادلاً على الدوام؟ ومن يخدمك أكثر مني؟

فالتفت إليه "كوسا " غاضباً:

– اسكت ..... خائن، إنك آخر من يحق له التحدث عن الصدق والفضيلة، هل تذكر ذلك اليوم الذي توفي فيه إينوكينتي وكان عليَّ أن أسافر إلى روما؟ ..... ألا تذكر تلك المرأة التي كنت معها أيها الخبيث؟.

فامتقع وجه بوناكورسو وارتعدت فرائصه:

– لا ..... لا ..... قال بوناكورسو متجهم الوجه دون أن يجرؤ على النظر إلى "كوسا " الذي يحدق فيه بغضب.

كان "كوسا " قد توقف في جناحه – مقره – الضخم في بيزا، حيث تجمع الناس واحتشدوا هناك، وغونجي أسقف فانو – صديق كوسا في الدراسة الجامعية وفي القرصنة أيضاً التقى به هناك – وقال له:

– الكل يعرف الآن إنك الشخصية المشهورة الأولى وسط الكنيستين يا بالتازار ... وها هم جاؤوا الآن إليك ليشاهدوك، فهزّ كوسا رأسه معرباً عن شكه في هذا الكلام.

وهَمَّ "كوسا " بالخروج إلى منزله عندما وقعت عيناه فجأةً على شخص يحدق فيه بين الجموع المحتشدة، فاندفع نحو الجمع المحتشد ليشق طريقه بصعوبة والناس ينظرون إليه بعجب وحيرة، وليلحق بامرأة أطلقت ساقيها للريح ظناً منه أنه يعرفها، لكنها كانت تخفي وجهها، فأمسك بها بعنف من ذراعها وعاد بها.

– أنت إيما .....؟ قال "كوسا " باضطراب وقلق، فنظرت إليه بابتسامة صفراء معاتبة ثم رافقها عبر حشود الناس إلى المنزل.

لقد لاحظ بطلنا "كوسا " أن السنوات الماضية لم تترك آثارها على وجه ذلك الجمال البولوني، كان ينظر باهتمام وشغف إلى ملامح وجهها المعبرة، وإلى عينيها البراقتين اللتين تكادان تبوحان بالكثير الكثير، وكانت نظراتها إليه عذبة وحالمة، لذا لاحظ أنها سعيدة بهذا اللقاء، ولا شك أن الحب الصادق لا يزال يحيا في قلب إيما بعد تلك السنوات.

– هل أنت هنا منذ وقت طويل؟ – سألها "كوسا " بصوت خافت، وهو لا يزال يمسك بذراعها بقوة.

– منذ عشرة أيام ..... لكنني كنت أتحاشى اللقاء بكم، ثم ابتسمت بحياء ..... لقد قررنا منذ وقت بعيد القدوم إلى هنا ..... واحمرَّ وجهها عندما قالت " قررنا " بصيغة الجمع.

فنظر إليها "كوسا " قائلاً:

- أنت صاحبة القرار بالمجيء إلى هنا أم هو؟

فأجابته على الفور:

- أنا ..... وهي تنظر بحرج وقلق إلى عشيقها السابق.

ولم يكد يعبر لها عن اعترافه بالجميل ويشكرها على عواطفها النبيلة، حتى شعر أن نظرةً ما وجهت إليه ..... فاستدار إلى الوراء ليرى " ياندرا " واقفة على القسم العلوي من السلم وهي تنظر إليهما بغيظ عظيم.

استدار "كوسا " نحو صديقته القديمة دون حرج أو قلق قائلاً:

- إيما تعالي غداً إلى كامبوسانتو في الزاوية الشمالية اليسرى (كامبوسانتو هي إحدى عجائب بيزا وهي قبة مشهورة هناك بروائع الفن، تقع بجوار ساحة المجمع المسكوني) ثم اصطحبها "كوسا " إلى السلم وصعدا معاً نحو الأعلى لكنه التفت إلى صديقته الغاضبة قائلاً:

- " ياندرا " ..... إنها زوجة جانوبي من ميلانو، وهو صديقي القديم، وبفضل هذه المرأة لا نزال على قيد الحياة.

رمقت " ياندرا " غريمتها بنظرات باردة، بينما اقترب "كوسا " من أسقف فانو الذي لحق بهما مع بوناكورسو، وقال بصوت خافت:

- رينيري عليك الذهاب الآن إلى قصر غامباكورتي الواقع على الضفة اليسرى لنهر آرنو، وقل لهم هناك بأنني قادم للنزول فيه.

وقصر غامباكورتي هو قصر كبير يقع على الضفة الجنوبية من نهر آرنو، ولا يزال محافظاً على طابعه القديم وروائعه الفنية التي يعرفها السواح جيداً، إن السواح يعرفون القصر باسم كومونالي.

لقد أراد "كوسا " أن يستخدم ذلك القصر أيضاً للقاء صديقته القديمة، التي هي زوجة أنولوجانوبي أحد إقطاعيي ميلانو، والذي جاء إلى بيزا بمناسبة مجمع بيزا دون أن يعرف شيئاً عن ماضي زوجته، أتى بها إلى فم الذئب.

. . . . . .

التاريخ / 15 / حزيران / 1409 / والوقت مساءً ويحاول / 24 / كاردينالاً منهم عشرة كرادلة كانوا أعوان البابا بينيديكت الثالث عشر، و / 14 / كانوا أعوان البابا غريغوري الثاني عشر، شقوا طريقهم بصعوبة ومشقة عبر حشود الناس، ثم وصلوا إلى الساحة وتوجهوا إلى قصر الأسقفية ودخلوه.

صعدوا السلم وجلسوا في أربعة وعشرين مقعداً مخصصاً لهم، وكانت الأبواب مغلقة، وبدأ اجتماع رجال الكنيسة الذين يجب عليهم أن يختاروا البابا الأوحد الجديد للكنيسة الغربية، بدلاً من الاثنين المتخاصمين اللذين عزلا عن منصبيها.

لا بد أن القارئ أصبح يدرك الآن على ما يبدو أن من بين الأربعة والعشرين كاردينالاً اثنين فقط قد يقع على أحدهما الاختيار ليتولى هذا المنصب الرفيع:

أولهما: كاردينال المجمع ومطران ميلانو " بطرس فيلارج " اليوناني الأصل، من جزيرة كريت والمعروف بعلمه الواسع وروحه العلمية.

وثانيهما: كاردينال إيفستاف والنابولي المشهور والسفير البابوي وحاكم رومانيا السياسي المحنك والقدير – بطل قصتنا – " بالتازار كوسا "

.

لقد أعرب معظم الكرادلة عن رأيهم في أن "كوسا " هو المفضل ليصبح البابا الجديد، غير أن القرصان القديم الذي نهض من كرسيه بوقار وثبات ليخاطب المجمع بتواضع كبير:

- إخواني ..... إنني لا أستطيع أن أقبل باقتراحكم هذا، لأن بيننا إنساناً آخر هو أفضل مني، وأشار إلى الكريتي، وطالما بيننا مثل هذا الإنسان القدير والنبيل، ورجل الكنيسة الحكيم بيتر (بطرس فولارج) فإنه لا يستطيع أحد أن يقود الكنيسة الغربية سواه، وخاصةً في هذه الظروف العصيبة التي تمر بنا، وأنظار المسيحيين وآمالهم معلقة على مجمعنا هذا، آملاً في التخلص من الجراح الدامية والخلافات المشينة التي تسبب بها الباباوان السابقان، إنه وحده القادر والكفؤ لتولي هذا المنصب الرفيع(96).

وهكذا صَوَّتَ الكرادلة الأربعة والعشرون على اختيار البابا الجديد، وفي السابع من تموز أصبح اليوناني " بطرس فيلارج " بابا الكنيسة الغربية باسم الكسندر الخامس(79).

عندما خرج الجميع من قصر الأسقفية حيث جرت الانتخابات نظر الأسقف فانو إلى صديقه القديم وسأله بحماس وهدوء:

– ما الذي فعلته يا " بالتازار " ؟ وما الذي حدث لك؟

فابتسم "كوسا " ابتسامة الرضا والارتياح، وقال لصديقه:

- رينيري العزيز البسيط ..... وهل تريدني أن أصبح بابا الآن وأوافق على ذلك؟ الآن، في الوقت الذي ينظر الجميع بكل اهتمام إلى مجمعنا؟ أتريدني أن أقدم بنفسي السلاح وأضعه في أيدي أعدائي المكشوفين الذين يسمون بالأصدقاء؟ لا .... إن هذا ليس في أوانه الآن، وفي هذا الظرف يعتبر فيلارج الشخصية المناسبة جداً، فالكل ينظرون إليه جيداً، الذين أيدوا بينيديكت الثالث عشر، والذين أيدوا غريغوري الثاني عشر، على حد سواء، والآن ستقف وراءه فرنسا وبريطانيا، أما بولونيا وبوهيميا وهنغاريا، البلدان التي عمل فيها كرسول بابوي فإنها ستعترف به كَ " بابا " منتخب شرعاً، نعم وحتى في إيطاليا هناك من يؤيده ويعترف به(87).

طبعاً يلاحظ القارئ هنا أن بطلنا وقف موقفاً حكيماً جداً، عندما أرجأ انتخابه لمنصب الكرسي البابوي المقدس، وفي هذا الصدد يقول م. فرانشيلي:(كان باستطاعة "كوسا " أن يصبح بابا منذ فترة طويلة، إلا أنه قرر رفض قبول الكرسي البابوي وفضل وضع بيتر فيلارج تحت الضربة، مدركاً أنه عندما سيصبح بابا سيتحول إلى أداة طيعة في يدي الكاردينال القدير والسفير البابوي في بولونيا، وبعمله هذا كان "كوسا " يهتم بنفسه وبأقاربه، فإخوته الثلاثة الذين كانوا قراصنة من قبل احتلوا مراكز ومناصب عسكرية في دولة البابا، كما أن "كوسا " نفسه ذو قدرة كبيرة وصَوْلَةٍ واسعة، باعتباره مستشاراً للبابا ألكسندر الخامس، لقد أشرف على السياسة الخارجية للكرسي البابوي المقدس، وفي حال وفاة الكسندر الخامس المتقدم في السن سيخلفه حتماً في تولي هذا المنصب.

كان ذلك في مطلع شهر آب / 1409 / وذات مرة توجه بطلنا صباحاً قاصداً عشيقته السابقة التي أصبحت الآن زوجة الإقطاعي جانوبي والتي استعاد علاقته بها من جديد، إلا أن مزاجه كان معكراً هذه المرة لأنه قلق من جانب " ياندرا ديلاسكالا " التي التقت به عندما توجه نحو الضفة الغربية لنهر " آرنو " على جسر دانتي دي ميجو، لكنه قال في قرارة نفسه:

- ليأخذها الشيطان ..... لماذا هي قريبة الآن من إيما؟

أظهرت له " ياندرا " أنها لم تلاحظ شيئاً ..... غير أن "كوسا " لم يكن مطمئناً لها.

هل يمكن أن تكون قد علمت بشيء من هذا القبيل؟ ومن الذي أخبرها بذلك؟ غير رينيري و "غوانداتشو" ولكن ما الذي حدث هناك؟ ولماذا هذا الجمع الغفير من الناس؟ بالفعل كان هنالك جمع غفير من الناس حول قصر غامباكورتي، فشق القرصان القديم وسط الناس ودخل القصر، فوجد في السرير امرأة مضرجة بالدماء، وعن بعد شاهد أربعة رجال يمسكون بالقاتل وفي يد احدهم خنجر ملطخ بالدماء، لقد طعن القاتل كما قال المغدورة أربع ضربات، اثنتان قويتان في الصدر، واثنتان في الرقبة.

طرد "كوسا " المتجمهرين من الغرفة وأخذ القاتل من رقبته:

- من أنت؟ – سأله القرصان وعيناه تلمعان شرراً .....
- ومن الذي طلب منك ذلك؟

غير أن القاتل ظل صامتاً فوجه إليه "كوسا " اللكمات الشديدة فكسر له ثلاثة أسنان وسال الدم من فمه.

– قل لي من استأجرك لهذا العمل؟

صاح به "كوسا "كالوحش الهائج، فنظر القاتل وهو يترنح من شدة الضربات إلى وجه كوسا الغاضب ليتمتم بعض الكلمات المشوشة، ثم سقط مغشياً عليه .....

استدعى بوناكورسو ليحضر أفضل طبيب في المدينة، وأحضرت النسوة لتبديل ثياب الراقدة التي نقلت بعدها إلى المنزل الذي يقيم فيه أنولوجانوبي.

.....

قبل انعقاد المجمع في بيزا كان في أوربا باباوان للمسيحية، والآن أصبح عددهم ثلاثة لأن البابا الجديد الكسندر الخامس لم يعترف به الجميع بعد في كل مكان.

الحقيقة أن الدول الكبرى مثل: فرنسا – وبريطانيا – وبولونيا – وبوهيميا (التشيك) والكثير من الدول والدويلات في ألمانيا وإيطاليا كانت قد اعترفت بألكسندر الخامس، إلا أن البابوين السابقين كان لا يزال لهما أنصار ومؤيدون، فالبابا غريغوري الثاني عشر يسيطر على " ريمين " ومملكة نابولي وبعض دويلات ألمانيا وهنغاريا، أما بينيديكت الثالث عشر فإنه كان لا يزال يهيمن على إسبانيا وسكوتلاندا (4).

لم يقعد الباباوات متفرجين بعضهم على بعض، فكل واحد منهم فعل كل ما في وسعه للإضرار بالآخر، والموقف يتطلب من كل منهم جهوداً أكبر لأن كل واحد سيواجه اثنين في آن واحد.

وجه غريغوري الثاني عشر على الفور لعناته وحرمانه إلى بينيديكت الثالث عشر وإلى الكسندر الخامس، وكان على الأساقفة والقساوسة التابعين له أن يقرؤوا نص الحرمان واللعنة في أيام الآحاد والأعياد وأمام حشود غفيرة من المصلين، وقد تطورت أساليب تلاوة اللعنات ووسائطها ومضامينها لكي تصبح أكثر فتكاً وقوةً.

ولم يقصر بينيديكت الثالث عشر في هذا المجال، فلجأ أيضاً إلى نفس الأساليب، أما الكسندر الخامس فقد قال لبطلنا – وهما لا يزالان بعد في بيزا –:

– وما العمل الآن؟

فأجابه "كوسا ":

– لا تقلق أيها الأب المقدس ..... إنك البابا الشرعي وقد تم انتخابك من قبل المجمع المسكوني في بيزا.

صحيح أن مسيحيي أوربا الغربية كافة لم يعترفوا بك حتى الآن، إلا أنهم سيعترفون بك قريباً، وسترى قريباً صحة قولي، والآن عليك توجيه للعنات والحرمان إلى البابوين المسنَّيْن، لأنك ستكون ذات وزن نظراً للتوقيع عليها من قبل جميع رجال الكنيسة الذين حضروا مجمع بيزا.

وفي الاجتماع الخامس عشر للمجمع أصدر المشتركون في المجمع الحرمان واللعنة على البابوين العجوزين اللذين عزلتهما الكنيسة، وجاء في الحرمان أنهما مجرمان بحق الكنيسة، وتحذير لهما بإنزال أقسى العقوبات المستخدمة في مثل هذه الحالات – ومنها الحرق – إذا هما لم يسارعا إلى التنازل والخضوع لقرارات المجمع.

كما جاء في الخطب التي ألقيت على المصلين، إن جميع اللعنات والحرمانات التي أصدرها الباباوان الخارجان عن الكنيسة تعتبر لاغية.

يقول " دي بوتي " في هذا الصدد:(– لقد كان كوسا – روح المجتمعين في بيزا أثناء انعقاد المجمع هناك وظل يعمل – قوة محركة – للتجمع أو التمحور الثلاثي للكنيسة الغربية المقسمة بعد مجمع بيزا، فهو الذي عمل على زيادة الشقاق، وهو الذي يجب أن يعمل الآن على إنهاء هذا الشقاق وتأمين النصر للكنيسة، فالبابا الكسندر الخامس رجل ضعيف الإرادة وغير حازم، وخاصة بعد أن رأى ما حل بالباباوين العجوزين، إذ لم يحضر المجْمَعَيْن اللذَيْن دعا إليهما الباباوان المعزولان سوى العدد القليل من رجال الكنيسة، وكان الشعب في تلك المناطق التي عقد بها المجمعان غاضباً جداً، وخاصة في فرياوله، حيث عقد مجمع غريغوري الثاني عشر، فعندما شعر غريغوري الثاني عشر بهذا الغضب والعداء رأى أنَّ أسلم وسيلة هي الاختفاء، وبذلك ينجو من العقاب والتنكيل، وبعد أن استبدل ثيابه بثياب عادية كي لا يعرفه أحد توجه إلى لاتيسانا، حيث كان عليه أن يستقل السفينة إلا أن الناس اكتشفوا نواياه وألقوا القبض عليه وصادروا ممتلكاته .(79)

كان الكسندر الخامس يخشى مثل هذا المصير، فهو لا يعرف ما الذي يجب أن يفعله الآن ومستقبلاً، ولذلك فإنه سيعتمد على نصائح كوسا، أضف إلى ذلك أن الوضع المالي للكرسي البابوي المقدس كان صعباً للغاية، ولم يكن في مقدور البابا أن يفعل شيئاً بل يقول أحياناً:

– عندما كنت مطراناً كنت غنياً، وعندما أصبحت كاردينالاً أصبحت أكثر فقراً، والآن أصبحت بابا ..... إلا أنني معدم.

في هذا الوقت العصيب الغامض كان "كوسا " الناصح الوحيد، والدعامة الاقتصادية للبابا الكسندر الخامس، ولكن على الرغم من الأموال الكثيرة التي أغدقها "كوسا " على البابا الكسندر الخامس فإن البابا كان يتألم باستمرار ويشكو من مصيره الذي ألمَّ به (104).

– ما الذي يجب أن أفعله الآن؟ كان هذا السؤال باستمرار؟ ما الذي سنفعله طالما أننا ثلاثة؟ فيطمئنه "كوسا " بقوله:

– ليس لهذا أية قيمة ..... وهل هي أول مرة يظهر فيها ثلاثة باباوات في آن واحد؟

الحقيقة أن الكنيسة الغربية خضعت في يوم من الأيام – قبل هذا التاريخ – لثلاثة باباوات أو حتى خمسة باباوات، وقد حدث ذلك منذ ثلاثمئة عام، وبعد وفاة البابا بينيديكت الثامن، إذ أن أخاه الذي لا يفقه شيئاً بشؤون المنصب البابوي اشترى هذا المنصب، وأصبح بابا باسم يوحنا التاسع عشر، وعندما شعر بدنو أجله أوصى بهذا المنصب إلى ابن أخيه البابا السابق، والذي لم يتجاوز عمره اثني عشر عاماً (وفي بعض المصادر عشر سنوات).

كان لهذا البابا الطفل[1] مساوئ كثيرة بطبيعة الحال، وقد كتب عنه أحد الباباوات الذين جاؤوا بعده " فيكتور الثالث ": لم يكن خليفة القديس بطرس بل خليفة الشيطان، لقد كان سيئاً جداً بحيث لا يمكن وصفه.

عندما أصبح بينيديكت التاسع في الخامسة عشرة من عمره عزله أهل روما عن الكرسي البابوي، وهنا طلب المساعدة من الإمبراطور الألماني "كونارد الثاني " الذي أعاده إلى روما وسلمه المنصب البابوي من جديد، غير أنه لم يقلع عن سلوكه السيئ وعلاقاته بالنساء، فانتفض أهل روما من جديد ضده وطالبوا بعزله والتخلص منه.

يقول البابا فيكتور الثالث: طالب أهل روما الذين أزعجهم تهتكه وانحلال أخلاقه وفساده وأعمال القتل والسلب والاغتصاب التي كانت تتم بعلمه وبأوامر منه بعزله واختيار بابا آخر لهذا المنصب.

وتم اختيار أسقف سافونا ايونا باسم سلفستر الثالث وكان البابا الثاني، ولكن لم يمض ثلاثة أشهر حتى استعاد بينيديكت التاسع القصر البابوي من جديد، وقد ساعده في ذلك أقاربه وأصدقاؤه، وأصدر بينيديكت التاسع اللعنات بحق سلفستر الثالث.

---

[1] – المختص بشؤون وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية ف. إيمار يقول:(لقد تم تعيين فتى في الثانية عشرة من عمره لمنصب البابا لأسباب كثيرة، أهمها: أن أسرة " آل توسكولان " التي كانت تعين الباباوات لم تشأ أن تتخلى عن الذهب وتجود به في سبيل مصالحها الخاصة، فأخذت تضغط على الأشخاص الذين كان يجب عليهم أن يختاروا البابا)، أما معاصر هذه الأحداث المؤرخ الفرنسي " راول غلابر " فقد كتب يقول:(إن رجال الأكليروس بجميع مراتبهم كانوا يتاجرون بالمناصب الكنسية بصورة علنية).

**** يقدم نفس المعلومات عنه الكاردينال باروني ويقول غلابر في مخطوطته:(كانت فترة البابا الصغير فترة لا مثيل لها من العهر والفجور والانحلال بأنواعه).**

غير أنه أدرك أن أيامه ستكون قصيرة جداً في هذا المنصب إذا ما هو ظل يسير في هذا الطريق لأن غضب الشعب أخذ يزداد يوماً بعد يوم، ويقول فيكتور الثالث في هذا الصدد:

– لقد فضل بينيديكت أن يعيش وليس كخادم للكنيسة، فقرر الاستفادة من التنازل عن المنصب البابوي ..... وباعه.

وقد اشترى المنصب البابوي من بينيديكت التاسع قريبة مطران روما –كبير أساقفة روما – يوحنا غراسيان الذي أطلق عليه اسم غريغوري السادس، وكان البابا الثالث ، ويقول " دي بوتي " بأن غراسيان كان شخصية عسكرية أكثر مما هي دينية سيء التصريف للشؤون الكنسية، ولذلك فقد عين أحد رجال الكنيسة كمعاون له في تصريف شؤون البابوية مساعده " الأب الروحي للمسيحية " وهكذا فقد برز الآن باباوان على الكرسي المقدس دفعة واحدة، إضافة إلى الاثنين الآخرين المعزولين وغير المعترفين بهذا العزل غير أن تشكل هذه السلطة الرباعية أثار النقمة لدى أهل روما الذين طالبوا بالقضاء على هذه اللاشرعية[1]، أي اختيار بابا جديد واحد للمسيحية الغربية بأسرها.

لم يلبث أن دبَّ الشقاق والخلاف بين الباباوات، فالبابا غريغوري السادس ومعاونه المتفقان معاً، كانا ضد البابا المنتخب مجدداً، كما أن البابا الجديد حاول من جديد تحرير الكرسي المقدس من مغتصبيه غير الشرعيين، وبدأت الاتهامات وحملات التشهير بين الطرفين دون توقف، إنهم خمسة باباوات (غريغوري السادس ومعاونه، والبابا الجديد المنتخب، وكذلك سلفستر الثالث، وبينيديكت التاسع) يدعون الحق في تولي منصب البابوية في آن واحد، وقسم هؤلاء روما إلى مناطق نفوذ لكل منهم: غريغوري السادس تمركز في منطقة كاتدرائية القديس بطرس، وسلفستر الثالث في سانتا ماري ماجوري، وبينيديكت التاسع في لاتيران، في كاتدرائية القديس يوحنا.

عندما حضر الإمبراطور الألماني هنري الثالث إلى روما للتتويج قام غريغوري السادس بنفسه وهو أكثر الباباوات آنذاك دهاءً وذكاءً باستقباله، وبعد ذلك توَّج هنري إمبراطوراً حسب الطقوس المقررة، وترأس بعدها مجمعاً كنسياً في سوتري، غير أن أحد الكهنة وشى بذلك إلى هنري الثالث حول حقيقة الوضع في روما، فكتب الإمبراطور إليه: لا تسمح باستمرار هذا الوضع غير الشرعي مع الآخرين بينيديكت، سلفستر، وغريغوري، من واجبك أن تفعل ما يمليه عليك الحق والمنصب.

أقر الجميع أن اختيار بينيديكت التاسع وسلفستر الثالث وغريغوري السادس غير شرعي ولا يمكن القبول به، يقول الأسقف بينجون في هذا الصدد:(لقد عزل الإمبراطور الباباوات الثلاثة، واقترح على أهل روما اختيار بابا جديد بإرادتهم، وطالما أنه لم يكن في روما آنذاك الشخص المناسب، فقد اختير أسقف سكسوني بابا جديداً باسم كليمنت الثاني، بعد سنة دس له السم بينيديكت التاسع الذي تولى المنصب البابوي للمرة الثالثة.

بهذه الأحداث التي تعود ثلاثمئة سنة إلى الوراء، يذكر "كوسا " صديقه الكسندر الخامس محاولاً بذلك طمأنته وإزالة المخاوف والأوهام من مخيلته فأجابه البابا:

– نعم ..... في الماضي حدثت مثل هذه الأحداث ولكن الأفضل ألا تتكرر، فالبابا تحدُّ من صلاحياته وسلوكه ممارسات بعض الحكام، فلو أراد الملوك المحافظة على وحدة الكنيسة لزال الانقسام منذ زمن بعيد، لكن العديد منهم يسعى إلى إطالة أمد هذا الانقسام: ملك أرغونا –كاستيليا، والإمبراطور الألماني روبرخت، وخاصة ملك نابولي فلاديسلاف الأشد خطراً، فهذا الأخير يقبع على مقربة منا، لا بل يملك الآن روما.. فأين مكاني؟ أليست روما هي التي يجب أن تكون مقراً لي؟

أدرك "كوسا " أن البابا سيكون في مأمن في حالة واحدة فقط، وهي عندما يطرد ملك نابولي فلاديسلاف من روما (التي باعها إليه غريغوري الثاني عشر).

لقد كانت هذه المهمة الأولى في مخطط "كوسا " وهو يستعد لتنفيذها بحماس منذ وقت بعيد، بذل "كوسا " أقصى جهده ليشكل حول البابا حلفاً قوياً لم تشهد له إيطاليا مثيلاً من أجل الصراع ضد أخطر وأقوى عدو للكرسي البابوي ألا وهو ملك نابولي.

---

[1] – **اللاشرعية: هذا الأسلوب غير عربي وغير فصيح وهو خطأ، وإن كان مستعملاً بكثرة في هذه الأيام مثال: اللاقانوني – اللاديني ..... الخ.**

بعد محادثات طويلة استطاع "كوسا " إقناع حكام فلورنسا – بروفانس – سينا – ودوق لودفيغ أنجو، وغيرهم من الحكام الإيطاليين الآخرين بالعمل معاً ضد فلاديسلاف نابولي والمطالبة بعرشه.

أصبح "كوسا " على رأس قوات الحلفاء التي استولت على ارفيتو فيتيريو، مونتيفاسكوني –كورنيتو وسوتري، وفي آخر يوم من شهر أيلول حاصرت قوات كوسا مدينة روما، وفي الأول من شهر كانون الأول تم الاستيلاء على كاتدرائية القديس بطرس وقصر البابا، وبعد عدة أيام سقطت قلعة سانت أنجلو.

استمر الحصار ثلاثة شهور، وفي الثاني من شهر كانون الثاني عام / 1410 / فتحت بوابات عاصمة المسيحية الغربية أمام قوات كوسا.

تنفس بطلنا الصعداء وأسرع في إبلاغ البابا الموجود في بيستوي بأن قوات فلاديسلاف قد سحقت وتحررت روما، لم يكن تحرير روما هو السبب الوحيد لسعادة الكسندر، بل لقد اعترفت به كبابا شرعي كل من هنغاريا ودويلات ألمانيا التي كانت لا تعترف به في السابق.

أما الدول والمقاطعات التي لم تكن تعترف به حتى الآن فهي: أراغونا –كاستيلا – أسبانيا (حيث كان البابا الشرعي لها بينيديكت الثالث عشر) ومملكة نابولي بزعامة فلاديسلاف المتواطئ مع غريغوري الثاني عشر، والقلق الذي لا يزال يساور الكسندر الآن هو موضوع المال، فالمال لديه شحيح جداً.

يقول الكاتب لسيرة الكسندر الخامس ما يلي:(كان البابا فقيراً، وكان "كوسا " هو المعيل الوحيد له، والمموّبل لأعماله ونشاطاته)(90).

بينما يقول دي بوتي:(كان الكسندر الخامس رجلاً متعلماً ومثقفاً، لكنه ضعيف الشخصية جداً، ولم تكن لديه النقائص والعيوب التي كانت لدى العديد من الكرادلة الآخرين، والأمر الوحيد الذي كان يلام عليه آنذاك هو مشكلة شهيته للطعام).

يقول مؤرخ ميلانو برناديت كوريو بأن:(الكسندر الخامس كان كثير التأنق في مأكله وملبسه، وتستغرق مسألة إعداد الطعام له وقتاً طويلاً، حتى أنه كان يدعو طباخه إليه ليناقشه في كيفية إعداد الطعام، وحسب الأنواع التي يتذوقها وكأنه يأكل ويشرب حسب حمية طبية وهو في الوقت نفسه كان يجيد طهي الطعام).

يشير مؤرخ ميلانو إلى هذه المعلومات المستقاة من مؤلفات أندري بيلوس، ومخطوطة لمعاصر الكسندر الخامس، ويشير كوريو أيضاً إلى أن الكسندر الخامس كانت له نقيصة أخرى وهي: ميله إلى الأبهة والترف والفخامة – غير أن هذه الصفة كانت سائدةً لدى جميع أبناء قومه اليونانيين – يبدو أن هذا المؤرخ الإيطالي يقصد بذلك البيزنطيين، لأن تلك الأحداث كانت تجري في عام / 1410 /.

يقول سيسموندي حول هذا الموضوع:(كان البابا الكسندر الخامس غريب الأطوار، وكان واسع العلم والاطلاع خيراً وكريماً وميالاً إلى التسامح والسلام، لكنه كان مسرفاً يبذر أموال الكرسي المقدس بدون حساب، ويثق ثقة عمياء بالمنافقين والمحتالين، ويصبو إلى الفخامة والطعام الشهيّ، كان مولعاً بالطعام ويستغرق تناول الطعام عنده وقتاً طويلاً، وما أن ينتهي حتى يخلد إلى النوم، ولذلك فإنه ليس من قبيل الصدفة أن ينظر الناس إليه من زاويتين وخاصة بعد موته، فالكثير من كهنة الأديرة في بولونيا يقولون بأن الكسندر الخامس طيب لا بل إنه قديس، بينما يقول عنه أهل روما بأنه مستهتر ولا يصلح للبابوية).

كان "كوسا " يغدق الأموال بسخاء على البابا الكسندر الخامس، وبذلك وضع البابا في قبضته باستمرار وأصبح قادراً على تسيير أمور الكنيسة حسبما يشاء، ولكن هل كان هذا جديداً على البابوية؟

- أرغب في العودة إلى روما، قال الكسندر مخاطباً بطلنا "كوسا " الذي رد عليه قائلاً:
- لا يجوز ذلك.
- لماذا ، قال البابا متعجباً ..... أليست روما محررة؟
- روما في قبضتنا الآن، قال "كوسا " ..... ولكن السفر إليها الآن لا يخلو من المخاطر، لأن ضواحيها لم تُطَهَّرْ حتى الآن،بيروجيا لا تزال في أيدي فيلاديسلاف، والعدو لا يزال يحتل أوستيا دوتيفرلي، لذلك يجب أن نسافر إلى بولونيا، وفي هذا

الموقف الغامض سيكون المكان المذكور مناسباً لك جداً، وأنا وعدت الشعب بأنني سأخفي البابا الجديد في بولونيا إلى أن تتحرر روما وضواحيها بصورة كاملة[1].(79).

ثم أردف قائلاً:

- وكان ينبغي إرسال كتاب إلى لودوفيك لأنه يجب مساعدته في الحصول على العرش، وعندئذ نستطيع أن نتخلص بصورة نهائية من فيلاديسلاف.

أرسل الكتاب (البيعة) وتلي على الجميع، حتى يعرف كل شخص بأن الكنيسة ترغب في نقل مملكة نابولي إلى يد ملك جديد، كما أرسلت نسخة عن هذه الرغبة البابوية، مرفقة بمجموعة من الاتهامات واللعنات إلى فيلاديسلاف، وقد اتهم هذا الأخير بما يلي:

1- على الرغم من الدعوة الموجهة إليه لم يحضر مجمع بيزا، بل اكتفى بإرسال ممثلين عنه.
2- يدعم ويؤيد البابا الفاسد غريغوري الثاني عشر.
3- استولى على العديد من المناطق التابعة لسلطة البابا، بدون حق شرعي.
4- اعتقل وسجن من إخوة " بالتازار كوسا ": ميكيل – وجوفاني – واثنين من أبناء عمومته أولاد غاسبار كوسا.
5- اعتقل وسجن خريستوفر كايتاني بدون حق، وهو أخ الكاردينال، وليستولي على أملاك أسرته.

في هذا الوقت قام الحاكم السابق لـ" فورليمبوبولي " جورجيو ديلاأورديلافي " بحركة تمرد، واضطر "كوسا " إلى التوجه فوراً إلى تلك المقاطعة وتمكن من قمع التمرد، وعندما عاد إلى بولونيا وجد هناك البابا الكسندر الخامس مريضاً، وكان مرضه شديداً، وجسمه ناحلاً وضعيفاً وشهيته للطعام معدومة تقريباً.

ولكن ما الذي استجد أيضاً ..... لقد مرضت " ياندرا ديلاسكالا " أيضاً، والحقيقة أنها مرضت قبل أن يسافر "كوسا " إلى فورليمبوبولي، فبعد أن كانت " ياندرا " تشع حيوية ونشاطاً وسعادةً، لزمت الفراش لمدة شهر ونصف ولم يستطع الأطباء معرفة مرضها.

ولكن هل استطاع هؤلاء الأطباء وأطباء كلية الطب في جامعو بولونيا معرفة نوع المرض الذي أصاب الكسندر الخامس؟ لقد أكد الحكماء على أن مرضه روحاني، ولذلك كان ينبغي على الحبر الأعظم أن يخلد إلى الراحة، ويستمر في تناول الطعام بشكل أفضل فيزول المرض.

لكن البابا لم يشف من علته، وقد تكون العلة نفسها عدم قدرة البابا على تناول أي شيء من الطعام، فها هو البابا الذي كان يجلس أياماً وراء طاولة الطعام، أصبح يتأفف من الطعام ويخلد إلى الفراش دون حراك في الطابق الأول من القصر السابق في بولونيا والذي تحدثنا عنه من قبل.

وهنا استجوب ديوان التفتيش المقدس آنذاك "كوسا " و " ياندرا " ومن ذلك المكان أيضاً اختطف الطلاب البواسل والقراصنة " ياندرا " لقد اتخذ "كوسا " هذا القصر مقراً له.

وهكذا عاش البابا الكسندر الخامس أيامه الأخيرة في الطابق الأول من القصر،وهو يعاني من المرض الذي ألَمَّ به، ودون أن يعلم أبداً بأنه كانت تعيش في الطابق الذي فوقه وبنفس الحالة المرضية العشيقة السابقة للكاردينال العظيم، وهي مستلقية في الفراش الفخم الذي أعده كوسا لها، لقد أصبحت جثة هامدة ..... فجسمها ضعيف منهك لا حراك فيه، والعضو الوحيد الذي لا تزال تنبض منه الحياة لديها هو عيناها الواسعتان والجميلتان المحترقتان بنار الخوف والقلق.

طلبت " ياندرا " المناولة (القربان) وبعد المناولة دعت إليها "كوسا ".

* جلس "كوسا " على كرسي بالقرب من وسادتها وقال لها تحت تأثير نظراتها التي تلاحقه:

- لماذا تنظرين إليَّ هكذا اليوم بنظرات القلق واليأس؟

---

[1] – **يقول في هذا الصدد سيسموندي:(رغب " كوسا " بنقل الكسندر الخامس إلى بولونيا بأي شكل من الأشكال وعلى الرغم من اعتراضات أهالي فلورنسا، فقد أطاع الكسندر سفيره المفوض)، ويشير ف. إيمار أيضاً إلى أن (الكسندر الخامس كان طوال مدة بابويته تابعاً لإرادة " بالتازار كوسا " بصورة كاملة).**

وفجأةً دبت في عروقها الحياة وقالت له:

- لقد اعترفت وتناولت القربان، والآن أنا مستعدة للموت الذي أصبح لا يخيفني، الآن أعترف أني عشت حياتي على ما يرام وعرفت الحب الكبير ... ووجدت فيك الخليل الذي كنت أحلم به وأنا فتاة.

ما أعجب نظراتها إليه .....ووجهها يفتر عن ابتسامة مدهشة يمكن القول عنها إنها كانت ابتسامة سخرية واستهزاء، لولا أنها جاءت من حسناء تحتضر على فراش الموت، ثم تمتمت ياندرا وعلى وجهها ابتسامة غريبة:

- " بالتازار " ..... سأرحل عنك قريباً ..... إنني أرحل الآن ..... ولن أعيش حتى المساء، ولكن قبل أن أغادر حياتك أريد أن أعترف أمامك بكل شيء، يجب أن أقول لك ما لا تعرفه عني ..... فاستمع إليَّ:

حاولت أن تقترب منه، وبصعوبة وعناء تململت في فراشها واقتربت قليلاً من حافة السرير والتقت نظراتها من جديد بنظرات "كوسا ":

- منذ اليوم الأول لتعارفنا، كنت تظن أنني عشيقة وفيّة مخلصة لك ..... لكنني لم أكن كذلك ..... فعندما اكتشفت لأول مرة أنك تخونني، لم يقر لي قرار، وتمزقت روحي حقداً وغضباً، فسلكت الطريق الآخر، ولو لم أفعل ذلك لَمِتُّ غيظاً ..... إنك تذكر – البيرينغو جوسيانو – الذي أصبح قرصاناً ..... أليس كذلك؟ ذات ليلة كنت أتنزه لوحدوي على شاطئ إيسكا لأنسى همومي، وإذ به يقترب مني وهو سكران ودون أن يعلم من أنا .....كَمَّ فمي وضمني ..... ثم قضى وطره.

ثم نظرت إلى "كوسا " لترى ردود الفعل لديه ..... إلا أنه لم تظهر على وجهه أية مشاعر أو ملامح أخرى ..... ثم أردفت بصوت خافت وهي تحتضر:

- منذ تلك اللحظة كنت خائفة مما حصل ..... ولكن قررت فيما بعد ألا أحدثك بما حدث، وخاصة بعد أن شاهدت معك تلك الليلة إحدى الجاريات، وفي اليوم التالي التقيت ثانية مع جوسيانو واستسلمت له من تلقاء نفسي، وفي كل مرة كنت أراك تقبِّل امرأةً كنت أرد الخيانة بخيانة جديدة مع جوسيانو ..... ومع آخرين أيضاً ..... وحتى مع العبيد ..... المسلمين.

ظلت عيناها معلقتين بوجه "كوسا " لترى ما هي الانطباعات التي ستظهر على وجه عشيقها بعد هذه الاعترافات، وظل "كوسا " طبيعياً.

- لقد شعرت روحي بالارتياح عندما خنتك، وساعدني في ذلك على أن أعيش طويلاً، وخلصني من الضياع والحيرة ..... لأنني كنت أعاملك بالمثل، ومنذ زمن بعيد كنت احلم بالانتقام منك ..... وأخيراً انتقمت ..... وعندما كانت تغيظني خيانة واحدة منك كنت أرد عليها بخيانتين ..... أو ثلاث أحياناً.
- " بالتازار "كنت قريبة جداً من رجالك ومن جنود سفنك ومن العبيد، وعندما أصبحت خادم الكنيسة أصبحت قريبة من رجال الدين أيضاً، من القساوسة وحتى الكاردينالات.

وحاولت " ياندرا " عبثاً أن ترى في وجه صديقها، ولو ظِلاً من الألم أو الامتعاض، لكن بقي وجه "كوسا " عاديّاً هادئاً لم تعكر صفوه هذه الكلمات والاعترافات، فتساءلت الحسناء المحتضرة:

- ما هذا؟ وما به؟ هل كان على الدوام منتقماً جباراً؟

لم يُعِرْ "كوسا "كلماتها أي اهتمام، بينما كانت هي قد أعدت العدة بهذه الكلمات لتنتقم منه في آخر ساعة من حياتها ..... ولكن؟

- لقد أقمت علاقات مع جميع أصدقائك ومن يعرفونك ..... أردفت " ياندرا " أتسمع يابالتازار؟ وحتى " غوانداتشو بوناكورسو " وهل تذكر يوم داهمته في منزله ورأيت في سريره امرأة عارية محجوبة الوجه؟ إنها أنا ..... وكان ذلك القرصان الدميم عشيقي ..... وصديقك المخلص والأمين رينيري غونجي أيضاً، عندئذٍ قاطعها "كوسا " بعد صمت طويل قائلاً:

- إنه رينيري الذي قال لك بأن إيما جاءت إلى بيزا أليس كذلك؟

ودون أن تتحرك المحتضرة من مكانها أو تحرك أي عضو فيها أومأت له:

- نعم ..... إنك تحبها ..... إنك تحبها، وهذا ما لم أستطع أن أغفره لك ..... وفي بيزا لم أستطع أن ألحق بها فقالوا لي إن ذلك ممكن في ميلانو، لقد ماتت هي ..... ولأمُتْ أنا أيضاً ..... ولكن لن تكون معك إيما بعد اليوم .....

فقال "كوسا " بهدوء:

- أنت مخطئة ..... فالقتلة الذين اشتريتهم خدعوك ..... وإيما لا تزال حيّة ترزق..... ثم نهض "كوسا " من مكانه ليبتعد عن السرير بضع خطوات ثم عاد إلى مكانه قائلاً:
- الصراحة بالصراحة يا " ياندرا " ..... إنني على علم بكل تصرفاتك وخياناتك هذه منذ زمن بعيد، وأدركت بالتدريج ذلك السلاح الذي تحاربينني به، كدت أن أقتل بوناكورسو لكنه حدثني بجميع مغامراته العاطفية، وعن غونجي أيضاً، إن صراحتك تجعلني أعترف لك بكل شيء، فهل تعلمين أنك تموتين الآن بيدي أنا، لقد دسست بيدي لك السم الزعاف القاتل الذي حضره لك الطبيب من بيروجيا.

عندئذ فغرت " ياندرا " فاها وحملقت بغريمها بعينين جاحظتين من شدة الهول والصدمة، ثم أردف "كوسا " قائلاً بهدوء وبصوت خافت:

- " ياندرا " ..... لم أقدم لك السم لأنتقم من خيانتك، فقد صبرت على تصرفاتك منذ زمن بعيد وحتى رأيتك عارية في سرير بوناكورسو ..... وآنذاك كنت أعلم أنك أنت بالذات المضطجعة عارية في ذلك السرير، علمت ذلك من تصرفات " غوانداتشو " والعلائم التي بدت على وجهه، إن خيانتك لا تزعجني ..... وأنت تموتين الآن لأنك لحقت وقتلت إيما التي لا أحب امرأةً سواها في العالم.

توجه "كوسا " نحو الباب، في حين كانت " ياندرا " تصرخ من شدة الغضب، ثم حاولت النهوض قليلاً من الفراش لكنها سقطت جثةً هامدةً وفارقت الحياة.

اقترب "كوسا " من السرير ليضع يديها المتدليتين من السرير في الوضعية المناسبة وليغمض عيني المتوفاة.

في القاعة الكبيرة التي تحولت إلى مهجع للنوم، كان يتململ في سرير الموت أيضاً البابا الكسندر الخامس، وكان الأطباء والكرادلة وحاشية البلاط ينتظرون وفاة ذلك الكريتي بطرس فيلارج.

وفي الثالث من شهر أيار عام / 1410 / توفي البابا الكسندر الخامس أيضاً، وفي اليوم التالي بكت جماهير الناس البابا الراحل وذرفت عليه الدموع، وسارت في موكب نعشه إلى المقبرة الواقعة في كاتدرائية القديس " فرانسيس – التي تعتبر تحفة من تحف الفن القوطي في إيطاليا، وقد بنيت في مطلع القرن الثالث عشر– حيث أقيم الحفل التأبيني ومراسم الدفن، وغطي قبر الكسندر الخامس بصفائح المرمر النفيس، الذي علقت عليه صورة البابا، وكتبت عليها العبارة التالية باللغة اللاتينية: ((راعي الكنيسة العظيم الكسندر الخامس الكريتي بيتر فيلارج توفي عام 1410))[1].

إن العديد من مخطوطات ذلك العصر ومؤرخي الأزمنة اللاحقة يشيرون إلى أن "كوسا "كان وراء موت البابا الكسندر الخامس.

لقد اتهموا "كوسا " بدس السم للبابا الكسندر الخامس بهدف احتلال منصبه والوصول إلى الكرسي، وتقول مخطوطة بولونيا: لقد نقل " كوسا " البابا الكسندر الخامس إلى بولونيا خصيصاً ليدس له السم هناك.

كما يقول مورللي: تتردد على ألسنة الجميع أقوال مفادها أن البابا مات مسموماً بأوامر من كاردينال بولونيا.

---

[1] – **يقول فازاري: إن شاهدة قبر البابا اليوناني صنعها النحات نيكولو أريتينو الذي لم كبن يرغب في ذلك، ولكنه تراجع أمام الطلب الملح من جانب قريبه ليناردو أريتينو الذي كان سكرتيراً للبابا الراحل.**

ويقول دي بوتي أيضاً: لقد نقل "كوسا " البابا الكسندر الخامس إلى بولونيا، وأعطاه وقتاً ليعد ويرسل الحرمان واللعنات إلى خصميه البابا غريغوري الثاني عشر والبابا بينيديكت الثالث عشر، وبعد أن انعدمت حاجته إلى هذه الأداة الطيعة قرر التخلص منها.

ولكن هل كان هذا حقيقة الأمر؟

لا بد لنا هنا من تذكير القراء بملاحظة بورغات حول نزعة الإيطاليين إلى اعتبار كل حادثة وفاة في ذلك العصر على أنها حادثة قتل.

فالإيطاليون لم يستطيعوا أن يتصوروا رجلاً بمثل هذا المركز الكبير والشهرة يموت ميتة طبيعية، وهم على قناعة تامة بأن كل حادثة وفاة هي ..... قتل.

وفي هذا الصدد لا بد لنا من الإشارة إلى ما يقوله كاتب سيرة البابا الكسندر الخامس: إن اتهام "كوسا " بأنه عجّل في موت الكسندر الخامس بواسطة السم هو اتهام يفتقر إلى التعليل والبرهان، والأكثر من ذلك هو أن ديتريخ فون نيم سكرتير عدد من الباباوات الذين سبقوا كوسا والذين عاصروه، والذي كتب سيرة البابا بطرس يقدم لنا هجاءً بحق البابا، ولا يعتبر كوسا شريكاً فيقتل الكسندر الخامس.

وإذا لم تكن لكوسا علاقة بموت الكسندر الخامس، فإنه من الصعب أن نطلق عليه اسم العميل المقدس البريء.(96).

ففي الثالث من شهر أيار وفي يوم وفاة " ياندرا " والبابا " الكسندر الخامس " أخفى بطلنا تحت عباءته الخاصة عند حلول الظلام خنجرين وتوجه نحو منزل صغير يقع قرب كنيسة القديس دومينيك، تسلق سلم المنزل ودخل غرفة نوم قسيس كان يقطن هناك:

- أنت عدو وخائن ..... " صاح به كوسا " ..... دافع عن نفسك ..... وألقى إليه بأحد الخنجرين ...

فنظر إليه رينيري نظرة تعجب ودهشة، لكن "كوسا " بادره قائلاً:

- لقد أخبرت " ياندرا " بان إيما موجودة في بيزا ..... وهوى بخنجره على صدر صديقه القديم أسقف فانو ليطعنه في قلبه.(2).

ثم قام "كوسا " بزيارة عدد من الكرادلة بكل هدوء ودون أن يحدث شيء يذكر في ذلك اليوم، من أجل الاتفاق على اختيار بابا جديد.

كانت تلك المحادثات ضرورية بالنسبة له من أجل التأكيد على أنه قد أصبح الوحيد الذي سيتم انتخابه لمنصب البابوية خلال بضعة أيام عندما يعقد المجلس الأعلى للكنيسة.

في السابع عشر من شهر أيار وفي ذلك القصر الذي شيعت فيه الجثتان " ياندرا " و " البابا " منذ أسبوعين، عقد المجلس الأعلى للكنيسة.(9).

كان المجلس يضم سبعة عشر كاردينالاً، وعد "كوسا " معظمهم بالأموال والبيوت وكروم العنب أو الأراضي في مختلف مناطق إيطاليا، وبمناصب كنسية عالية إذا هم انتخبوه بابا عليهم.

إن مثل هذه الأساليب والرشاوى كانت ظاهرة مألوفة عند اختيار البابا، وكل كاردينال كان يريد أن يصبح رئيساً للمسيحية كان يعلم مسبقاً أنه في اليوم التالي لانتخابه سيخسر كل الثروة (نِعَم وهبات الله) وكل ما جمعه خلال خدمته في منصب الكاردينالية، ولن يصبح لديه دور ولا أموال ولا أراضي ولا حتى الأدوات والمفروشات المنزلية، والحقيقة هي أن الشعب عندما يعرف من هو الكاردينال الذي (نزلت عليه نعمة الله) سيندفع إلى بيته ليفرغه من جميع محتوياته ونفائسه ومجوهراته وزينته، وقد يستولي الناس على الأراضي التابعة له أيضاً.

وهكذا فإن كل واحد من هؤلاء الكرادلة الذين سيصبحون (خلفاء المسيح على الأرض) كان سعيداً بما سيحدث لبيته وأمواله، عندما يتم اختياره خلفاً للبابا السابق وهذا يعني أن البابا الجديد عليه أن يكون فقيراً عند توليه منصب البابا ويوزع بنفسه ممتلكاته على الآخرين أحياناً.

أما بطلنا فقد قرر القيام بمثل هذه الأعمال من تلقاء نفسه، ولكن لمصلحة الذين سينتخبونه خليفة للبابا الكسندر الخامس، ولكن السلاح الرئيسي لدى "كوسا "، السلاح الحاسم والأقوى من الهواية النفسية المحببة إلى الكرادلة كان يتمثل في قواته المرابطة في بولونيا قلعته الرئيسية.

ومع ذلك فإن "كوسا "كان يخشى من ظهور أولئك الذين قد يتجرؤون على معارضة انتخابه في / 17 / أيار، فبعض الكرادلة كان يفكر طويلاً في مسألة انتخاب "كوسا "، ويتوقع العواقب التي قد تحدث له في حال عدم انتخابه وماذا سيحصل لو أن الشعب علم فجأةً أن خادم الكنيسة الذي يعتبرونه صاحب الخير والفضيلة والمدافع عن وحدة الكنيسة، والمعصوم عن الخطيئة من بين جميع الكرادلة كان قرصاناً وقاتلاً وفاجراً وجلاداً؟

وهكذا راوده الظن بأن الكرادلة الذين حصلوا على الهدايا والرشاوى الثمينة ووافقوا على التصويت لصالحه، يمكن أن يغيروا آراءهم وينتخبوا سواه – أوتون كولونا – مثلاً.

وفجأة نهض "كوسا " من مقعده المخصص له، وتحرك نحو الكاردينال كولونا بكل هدوء، وبعد أن حدق به قال له:

- أوتون ..... لقد ساعدتك في يوم من الأيام، ولم أعترض عندما منحك البابا إينوكينتي رتبة الكاردينال ..... هل تذكر ذلك؟

استل "كوسا " من تحت عباءته خنجره المشهور وغرسه أمام منصة خصمه الروماني (نسبة إلى روما) وحدق بعينه الغاضبين في وجوه الكرادلة الآخرين، موحياً لهم بالتهديد والوعيد[1] إذا ما هم وقفوا ضده.

ونظر "كوسا " ثانية إلى الكاردينال – كولونا – قائلاً بحدّة وغضب:

- أنت ستصوت لي، وإذا لم تفعل ذلك فسوف ترى ما سيحصل لك، فقد قتلت اثنين وسبعين ولا يصعب عليَّ قتْل واحد آخر[2].

لكن "كوسا " أخطأ عندما ساورته الشكوك حول نوايا كولونا الذي نظر إليه بعجب ودهشة ليقول له بعصبية وحرارة:

- ولماذا لا أُصَوِّتُ لك؟ وكيف ساورتك مثل هذه الشكوك؟ ألم أكن على الدوام صديقك المخلص (والحقيقة أن كولونا كان لسنوات طويلة من بين الكرادلة الأكثر إخلاصاً وولاءً لكوسا) إن شكوكك ليست في محلها يا بالتازار، فأنا أرى أنك الرجل الأفضل لخلافة الكسندر الراحل، كما أنني أرى فيك الشخصية المناسبة، وأعتقد لا بل أدرك تماماً أن الجميع يشاطرونني الرأي.

وهكذا فقد أعطى هو وغيره من الكرادلة الآخرين أصواتهم إلى "كوسا " القاتل والقرصان السابق، عن قناعة تامة بأنه لا يوجد بين الكرادلة من هو أصلح منه لمنصب " راعي شمل المسيحية " وانتخب "كوسا " بابا للكنيسة الغربية، وكان ترتيبه بين الباباوات من أصل روماني (من روما) ال / 206 / وتقرر يوم / 25 / أيار عام / 1410 / موعداً لتوليه المنصب البابوي.

ويتساءل كوسا: ما هو الاسم الذي سيطلق عليه؟ وتحت أي اسم سأصبح البابا؟

إن جميع أسماء الباباوات الذين سبقوه لم تلفت انتباهه، فلكل من هؤلاء مثالبه ونقائصه: فبعضهم كان قاسياً مع الشعب ..... والآخر يضطهده بدون شفقة ولا رحمة ..... والبعض الآخر كان قاتلاً ..... وهكذا.

كيف سأدعو نفسي؟ وما هو اللقب الذي يجب أن أحصل عليه؟ وما هو اسم السلف الذي يجب أن أختاره؟ هكذا كان "كوسا " يسائل نفسه.

---

[1] - **دافيوريجو يقول:(لقد كانت لدى " كوسا " قوات كبيرة ومسلحة تسليحاً جيداً، وكانت هذه القوات مستعدة في أي وقت لإجبار الكرادلة على انتخاب " كوسا " لمنصب البابوية).**

[2] – **حدث الكثير من المشادات حتى في اجتماعات المجلس الأعلى، وفي اجتماعات كنسية أخرى أثناء بحث الكرادلة للمسائل المتنازع عليها والتي تهدد مصالح الأطراف المتخاصمة (عندما كانت التكتلات متساوية من حيث العدد) ففي أحد الاجتماعات كانت مجموعة بقيادة الكاردينال تاليران بيريفوري حليف ملك هنغاريا " المجرم " ويقول دي بوتي:(خاض الكرادلة معركة كلامية حامية الوطيس وتبادلوا التهم والشتائم والكلمات النابية ..... واستمر الحال كذلك إلى أن استل بعضهم الخناجر، وكاد ذلك يؤدي إلى سفك الدماء لولا حضور اثنين أو ثلاثة من آباء الكنيسة الحكماء المتعقلين الذين فصلوا بين المتخاصمين).**

يقول دافيوريجو بهذا الصدد:(يقول البعض إن انتخاب " كوسا " لم كين حراً، وبعد ذلك لم يكن في استطاعة البابا أن ينفي عن نفسه هذه التهمة).

بعد أن استذكر أسماء كثيرين من الباباوات، توقف "كوسا" عند اسم الرجل الذي أصبح في الماضي أثراً رائعاً في تاريخ الكنيسة الغربية ..... الرجل الداهية الذي تولى منصب البابوية منذ مئة عام خلت ..... إنه البابا يوحنا الثاني والعشرون.

استطاع البابا يوحنا الثاني والعشرون في حينه أن يصبح أسقفاً ومقرباً لدى البابا بواسطة رسالة توصية مزورة وموقعه باسم الملك روبرت، مع العلم أن الملك المذكور لا علاقة له بهذه الرسالة على الإطلاق.

وبعد أن تولى زمام منصبه البابوي أصدر يوحنا الثاني والعشرون بياناً جاء فيه:

((إن عرش الإمبراطورية أصبح شاغراً بعد وفاة هنريخ السابع، وهو يوحنا الثاني والعشرون باعتباره " خليفة القديس بطرس ووريث السيد المسيح على الأرض " وهو مفوض بأن يأخذ على عاتقه إدارة الشؤون الدينية والدنيوية للمسيحيين ولذلك فإن رعايا مقاطعة البابا ورعايا إيطاليا بأسرها يجب أن تتبع إليه مباشرة، لن تستقيم أحوال أولئك الذين لا يعترفون بصلاحياتي المفوض بها، لأنني سأصدر حرماني ولعناتي إلى الجميع، الذين لا يعترفون بذلك، وحتى إلى الملوك والحكام والقساوسة ورجال الدين والطوائف والجامعات، لإجبار جميع هؤلاء على الاعتراف بي كحاكم وحيد، لقد ورثت التاج الإمبراطوري بعد وفاة هنريخ السابع[1])).

منح البابا يوحنا الثاني والعشرين رتبة الكاردينال إلى ابنه بيرتران، وأرسله إلى إيطاليا كمفوض (سفير) له بعد أن زوده ببيان جاء فيه:(باعتباري الحاكم الأعظم الذي أستمد من الله حق توزيع الخير الديني والدنيوي بين الناس التابعين لإمبراطوريتي، فإنني أرسل ابني إلى إيطاليا باسم الكاردينال بيرتران، وأضع بين يديه السلطة على الجزر التابعة لها، والجبال والسهول، وله مطلق الإرادة في تقسيم أو توحيد الأراضي وتخريب وبناء ما يراه مناسباً وفرض الأنظمة والقوانين التي يراها مناسبة).

من أجل تسهيل العمل على بيرتران في تنفيذ هذه المهمة،أعلن يوحنا الثاني والعشرون عن حملة صليبية وعزز عمل ديوان التفتيش في لومبارديا، ووجه لعناته وحرمانه إلى حكام ميلانو، وغضب الشعب ضد الحكام، أما حاكم لومبارديا فقد اتهمه بالهرطقة والسحر والشعوذة[2].

وقد أصدر البابا يوحنا الثاني والعشرون لعناته وحرمانه أيضاً ضد إمبراطور ألمانيا لودفيغ، الذي اتهمه باغتصاب العرش الذي هو من حق الكرسي المقدس، وكان على لودفيغ – حسب رأي يوحنا – أن يتخلى عن العرش ويسجد أمام البابا مستغفراً.

لقد قام الصليبيون الذين أرسلهم البابا بسلب وقتل سكان إيطاليا، وأحرقوا المنازل، واغتصبوا النساء وسرقوا الأطفال.

بعد أن عاثت قوات البابا فساداً في إيطاليا لبضع سنوات وسفكت دماء الشعب، جمعت الأموال من الشعب بأساليب مختلفة، وهكذا فقد استطاع يوحنا الثاني والعشرون أن يعوض ما خسره من أجل دعم ومساعدة ابنه، وأصبحت ثروته طائلة ووفيرة.

كان البابا يوحنا الثاني والعشرون أول من حصر أموال الكنيسة، وأمر بنقل جميع موارد الكنيسة المتوفرة عن السنة الأولى للخدمة في كل كنيسة إلى خزينة البابا، لقد كان هذا الإجراء يتنافى مع قوانين الكنيسة وظالماً وانتقامياً.

والجدير بالذكر أن البابا يوحنا لم يكن لاهوتياً مشهوراً فحسب، بل كانت له مؤلفات في مجال الطب أيضاً (حول أمراض العيون وحول الروماتيزم وحول نمو الجنين)، وفي مجال الكيمياء .... غير أن معارفه الواسعة لم تمنعه من أن يكون متعصباً ومتزمتاً في خرافاته .... شأنه في ذلك شأن معاصرين آخرين.

---

[1] – يقول دي بوتي بأن: الغطرسة التي كان يحملها بيان البابا استطاعت أن تذهل عقول ألمع رجال العصر آنذاك، كما أن دانتي الذي كان قد أشار في " الكوميديا الإلهية " إلى ممارسات الباباوات المقيتة، وعلم الكثير من مخططات هذا البابا الجديد ألف كتابه "الملكية" الذي يقول فيه بأن الملك لا يجوز أن يخضع للكنيسة عند حل المشاكل السياسية، وفور صدور هذا الكتاب إلى حيز الوجود أسرع الكرسي المقدس إلى إدراجه في قائمة المطبوعات المحظورة التي تؤثر تأثيراً ضاراً على عقول القراء المسيحيين.

[2] – في اللعنة التي أصدرها يوحنا والعشرون اتهم حكام لومبارديا في فيسوكونتي بأنهم لا يؤمنون بقيامة السيد المسيح، ويحتقرون الاعتراف (فليحرم فيسكونتي وأتباعه من الماء وهم في جحيم النار، انفروا منهم كما تهربون من الطاعون، وليحترق فيسكونتي وأصدقاؤه وأولاده وأتباعه وممتلكاته وهم أحياء) كما جاء في البيان أن من يشترك في الحملة الصليبية يحصل على الغفران الكامل للخطايا والذنوب من خليفة المسيح على الأرض(مخطوطات جنوة ومخطوطات إيطاليا عام 1322).

لقد كان مؤمناً كل الإيمان المطلق بوجود الله، غير أنه كان أكثر إيماناً بوجود الشيطان، وكان يعتبر الشيطان عدوه ويخوض ضده صراعاً عنيفاً وأبدياً لم ينته طيلة عشرين عاما، وكان يعتقد أن عليه تقديم الخدمة إلى الشيطان قبل أن يوقعه هذا الأخير بمنزلقات وأفخاخ الخطيئة، ولذلك كان عليه إرضاؤه وكسب عطفه كي يأمن جانبه، وقد تبين من كتاباته ورسائله وحولياته أنه كان يعاني من هوس الملاحقة والترصد وكان يخاف من خطرين اثنين: هما " السم " و " السحر ".

وكان يشعر على الدوام أن الشيطان حاضر بقربه، وأنه لا يرغب أبداً في الابتعاد عنه، وقد حاول البابا التخلص من الصلوات والتعويذات والتهديدات بالمياه المقدسة والبخور، لكن ذلك كله كان عديم الجدوى، وعاده الشيطان مراراً وتكراراً ليبث فيه سمومه وخطاياه.

ذات يوم كتب يوحنا الثاني والعشرين إلى أسقف ري، يقول:(إن السحرة والأطباء حضروا السم ليدسوه لنا – لي ولعدد من الكرادلة – غير أنهم لم يفلحوا في ذلك، ولكن هل تدري ماذا فعلوا بعد ذلك؟ لقد صنعوا شخصيات لنا من قوالب الشمع وقرؤوا عليها الصلوات المخيفة والطلاسم وسكبوا عليها السم، غير أن الله حمانا من كل سوء وأخذ بيدنا ووقعت هذه الشخصيات في قبضتنا، وألقيت السحرة في حفرة مظلمة لا عودة منها على قيد الحياة).

وما إن تخلص يوحنا الثاني والعشرون بصعوبة من أعدائه الشياطين السحرة حتى أرسلوا له شبيهاً آخر، تقمص (اختفى) في خاتم، فذعر البابا وكاد يغيب عن الوعي، ولم تستطع الصلوات أن تزيل عنه هذا السحر، وقد فكر في جميع أنواع العقوبات الرهيبة لإنزالها بالسحرة فوجد أنها غير كافية للقصاص منهم.

وقد واصل صراعه هذا بعناد وإصرار المهووس مع اللجوء إلى أنواع التعذيب والتنكيل والصلوات، وبنتيجة ذلك صب جام غضبه على جميع معارضيه، واتهم كلاً من: روجر بيكون وريمولولي وألبرت الكبير ودانتي وغيرهم من كبار المفكرين بأنهم سحرة ودجالون ومشعوذون.

وهكذا قام البابا الذي خارت عزائمه وهو على حافة القبر، والذي تحول قلبه إلى بؤرة من الحقد بتعذيب كل من استطاع اصطياده وإلقاء القبض عليه، ثم أرسلهم إلى المحرقة.

وبعد إحراق هوغوجيرارد وأضرم نار المحارق في مرسيليا، حيث أحرق أتباع القديس فرانسيس الفرنسيسكان الذين لم يقبلوا بالتخلي عن موعظة " تقديس الفقر ".

كان "كوسا " يفكر (نعم إن اسم هذا البابا يليق بي كلقب بابوي ..... وأنا سأسمّى باسمه).

وفي أثناء حفلة التنصيب لتولي الكرسي البابوي المقدس التي جرت في كاتدرائية القديس بطرس أطلق عليه لقب يوحنا الثالث والعشرون.

وكان على حق في اختيار هذا اللقب.

.....

يقول الأباتي موره في سفره الكبير " تاريخ البابوية ": تجدر الإشارة إلى أن الكرسي المقدس أخذ ينبض بروح دنيوية عندما اعتلاه يوحنا الثالث والعشرون.

كما يقول ل. باستور مؤرخ الكنيسة الغربية المشهور في هذا الصدد:(من بين جميع نتائج مجمع " بيزا " كان انتخاب البابا يوحنا الثالث والعشرون أكثرها حتمية، لم يكن البابا يوحنا الثالث والعشرون غريب الأطوار إلى الحد الذي يصفه به أعداؤه، لكن من المعلوم أنه كان يهتم بالأمور الدنيوية، وأنه كان يفكر في المكاسب المادية الخالصة، وكان سياسياً بارعاً وماكراً، وعنيداً في الوصول إلى أهدافه، وكان محارباً أكثر مما كان خادماً للكنيسة).

لقد كانت التهم الكبيرة التي وجهت إليه بعد خمس سنوات من انتخابه تفتقر إلى البرهان، غير أن الشيء الذي كان لا يقبل الشك هو فسق ذلك السياسي البارع ومجونه، بحيث لم يبق لديه متسع من الوقت لإدارة شؤون الكنيسة والقيام بواجباته الوظيفية، ويقول س.

أنطونيو في هذا الصدد:(كان البابا يوحنا الثالث والعشرون " بالتازار كوسا " غارقاً حتى أذنيه في الشؤون الدنيوية وليس في الشؤون الكنسية[1]).

أما الخطوة الأولى التي قام بها " كوسا " بعد توليته منصب البابوية فهي استرداد الخسارة والأموال التي أنفقها خلال السنة والنصف الأخيرة عندما كان يمول البابا الكسندر الخامس، كما أنه أنفق في حينه أموالاً كثيرةً كهبات وعطايا قدمها إلى إخوانه الكرادلة الذين انتخبوه بابا.

كيف يمكن إصلاح الأمور؟ لقد تاجر " بالتازار " بالوظائف الكنسية سنوات عديدة بالتعاون مع البابا السابق بونيفاس التاسع، واكتسب خبرات جيدة في هذا المجال.

طافت جميع مدن أوربا شخصيات موثوق بها أرسلها البابا لتحمل إلى الناس أكياساً مليئة بصكوك الغفران، وعندما يصل هؤلاء إلى مدينة من المدن ينزلون في أكبر وأجمل المباني فيها، حيث يرفعون عليها رايات تحمل مفاتيح القديس بطرس، ثم يأمرون بقرع أجراس الكنائس.

بعد ذلك يتحول العمل إلى الكنيسة حيث يوضع في وسطها عرش كبير يجلس عليه رسول البابا وتحته تمتد السماء على أربع قوائم، يدعو رسل البابا المؤمنين إلى شراء صكوك الغفران مؤكدين لهم أن أموالهم سوف تستخدم من أجل القيام بحملة صليبية.

- أنفقوا ..... أيها الإخوان – ينادي هؤلاء – ادفعوا بسخاء فإن الحبر الأعظم يُحَضِّرُ لحملة صليبية لمساعدة مسيحيي القسطنطينية، إنهم في خطر والأتراك يطوقونهم.

لا تضنّوا بالمال في هذه الحياة الدنيا، فبهذه الأموال لا يتم إنقاذ مسيحيي القسطنطينية فحسب، بل وإنقاذكم أنتم أيضاً، تدفعون القليل فيغفر من خطاياكم الكثير، خلصوا أنفسكم من التهلكة التي تنتظركم يوم الحساب ..... أنقذوا أرواحكم وأرواح أقاربكم، لقد كان هؤلاء " رسل البابا " في منتهى الصدق والإلحاح، ولم يفكر أحد في صحة ادعاءاتهم، فإذا راود الشك بعض الناس وجد الجواب جاهزاً لدى هؤلاء الرسل على النحو التالي:

- الأب المقدس ..... سيد أرواحكم ..... أرسلنا إليكم وما نحن إلا خدمه الأوفياء الطيعون، فهل تشكون به؟ إذن أنتم كفرة ومرتدون وهراطقة فاسدون ومتمردون.

يقول ديتريخ فون نيم بهذا الصدد:(كنت أسمع شخصياً صياح هؤلاء أحياناً وهم ينادون بصوت عال: إن القديس بطرس نفسه لو كان حياً لما استطاع أن يحقق لكم هذه الخدمة ويخلصكم من الخطايا كما يفعل الآن البابا يوحنا).

لقد بلغت مبيعات هذه الصكوك حتى في القرى الصغيرة جداً ثمانية آلاف فلورين ذهبي، ودفعت مدينة ألمانية واحدة " لوبيك " عشرين ألف قطعة ذهبية، واستطاع أن يجمع رسل البابا من ألمانيا أكثر من مئة ألف قطعة ذهبية، ومن أجل زيادة عدد المدن والقرى من أجل بيع صكوك الغفران فيها، قام " كوسا " فور تسلمه الكرسي البابوي بإجراءات محادثات مع أولئك الحكام، الذين لم يؤيدوا قرارات مجمع بيزا واستطاع أن يقنعهم بالاعتراف به بابا باسم يوحنا الثالث والعشرين.

من المعلوم أن " كوسا " كان سياسياً لامعاً، وهذه الصفة ساعدته في تحقيق الاتفاق ليس مع ملك هنغاريا وبوهيميا وسيغيزموند فحسب ..... بل والبدء في المفاوضات مع العدو القديم واللدود للكرسي المقدس ملك نابولي، وقد اتسعت رقعة الأراضي وازداد عدد السكان الواقعين تحت التأثير الروحي لبطلنا، وتسرب عملاء يوحنا الثالث والعشرين الذين يبيعون " مغفرة الخطايا القديمة والجديدة " إلى جميع بلدان أوربا الغربية تقريباً، وأصبح بالإمكان مساعدة هؤلاء في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبولونيا وبوهيميا وهنغاريا والبلدان الأخرى، وهم ينادون الشعب: اشتروا أيها الخطاة إذا كنتم مؤمنين ... اشتروا وطهروا أرواحكم من الآثام .. اشتروا فالثمن رخيص والمفعول كبير.

لم يأبه الشعب بالجوع والحرمان، لأن الحروب المستمرة أذاقته الكثير منها، لذلك كان يقبل على شراء هذه الصكوك وسط نداءات باعة صكوك الغفران[1].(65).

---

[1] – **يقول باستور:(ينبغي القيام بدراسات خاصة لأعمال يوحنا الثالث والعشرون إذا ما أردنا الفصل بين الحقيقة والكذب، اللذين يتشابكان إلى حد كبير في وصف هذه الشخصية)، أرغينرو رايموند، هيغيل باستور، وأيرلر يقفون منه موقف الرضا، غير أن التهمة الوحيدة التي يوجهها هؤلاء ضد شخصية البابا يوحنا الثالث والعشرون هي تهمة الدعارة.**

- أيها الخطاة الكفرة بالله ..... أعطوا كل ما لديكم ثم موتوا جوعا .... ذلك خير لكم من أن تهلكوا بعد الموت، حيث تضرعون إلى ربكم ليطهر أرواحكم ولكن دون جدوى .... فإذا لم تشتروا صكوك الغفران فلا شيء هناك يشفع لكم حتى ولو صليتم ساجدين أياماً عديدة.

وصل رسل يوحنا الثالث والعشرين إلى كل مكان ليجمعوا الأموال بكثرة من بسطاء الشعب، وقد وصلوا إلى القرى النائية في مختلف بلدان أوربا، غير أنه وصلت إلينا أدلة مكتوبة تشير إلى أن أعمال هؤلاء الرسل لم تكن تسير على ما يرام في كل مكان وبدون مصاعب، وأنهم كانوا يبذلون بعض الجهد ليحصلوا على ضالتهم المنشودة، وإليكم رسالة من إحدى القرى:(استطعنا أن نجمع مئة سكود إلا أننا دفعنا عشرة منها لقاء وليمة على شرف قس القرية ليساعدنا).

على ضوء المخطوطات المتبقية عن العديد من رجال الكنيسة في ذلك العصر يمكن أن نحدد الصورة والانطباع الواضح عن جباة رسل البابا يوحنا الثالث والعشرين والباباوات الآخرين.

لقد كان هؤلاء الجباة رسل الباباوات من بين المنافقين الماكرين، الذين كانوا يعرفون كيف يصطادون عامة الشعب، ويتلاعبون بالألفاظ ويتهددون ويتوعدون:

- ادفعوا ونحن نلتمس لكم الغفران[2].

ولكي يبعد عن نفسه محاولات الخداع والغش من جانب رسل البابا ورجال الدين الآخرين المتعاونين معهم فقد ابتدع "كوسا " الأسلوب التالي:

- أمر بطبع صكوك غفران جديدة مستقلة لكل نوع من أنواع الخطايا، ولكل صك ثمن محدد حسب نوع أو خطورة الخطيئة، ومن يدفع القيمة المحددة للصك تغفر خطيئته، حسب التسعيرة، وبذلك استطاع يوحنا الثالث والعشرون تحديد قيمة الإيرادات بدقة.

كان رسله يستلمون عدداً محدداً من صكوك الغفران، ويسلمون بالمقابل قيمة محددة أيضاً من الأموال التي جمعوها لقاء هذه الصكوك، وبذلك وضع "كوسا " حداً للتلاعب والسرقات في بيع الصكوك.

---

[1] – من الجدير بالذكر أن هذه الطريقة لابتزاز الأموال من بسطاء الشعب لصالح الكنيسة الغربية لم تكن من اختيار البابا.

فالقارئ يذكر جيداً كيف أن البابا بونيفاس التاسع باع صكوك الغفران على نطاق واسع، وهو لم يكن أول من أوجد هذه البدعة لأنها ظهرت قبله بزمن بعيد، ففي عام 1032 استطاع رهبان دير قديم في كاسافرا إن يقنعوا إحدى الأسر الغنية جداً بضرورة تخصيص مبلغ معين لترميم الدير، إذ قال الرهبان لأفراد هذه الأسرة:

- **يجب أن تدفعوا هذه الأموال لتنقذوا أنفسكم من العقاب العسير الذي ينتظركم مقابل خطاياكم التي ارتكبتموها، وإلا فإنكم ستذهبون إلى عالم آخر، ويلقى بكم في نار جهنم، حيث ستعذبكم الشياطين بلا شفقة ولا رحمة، وذات مرة حضر رهبان الدير إلى المركيز مالفريدو الإقطاعي الغني من دير يقع في جزيرة تريميتي، وقالوا له بأنه لا مفر أمامه من غضب الله، إلا إذا غفرت خطاياه العديدة فسألهم بخوف وهلع:**
- **وما الذي يجب عليّ أن أفعله؟ فقالوا له:**
- **هناك طريقة واحدة ناجحة فقط، وهي أنه قبل موتك عليك أن تحسن إلينا، وتكتب وصية تذكر فيها أن الدير يجب أن يرث كل أملاكك وأراضيك، وبذلك تخلص روحك من العذاب وبالفعل نفذ هذا الطلب.(75).**

[2] – أيام الباباوات كليمنت الرابع ونيكولاي الثالث وأوربان الخامس كان يسمح بغفران ثلث الخطيئة للشخص الذي يحضر، إذا ما قام شخصياً بدفع مال إلى الكاهن الراهب فرانسيسكاني أو بعد موته يمكن أن يدفع عنه أقاربه، وهذه قيمة تخصص ثمناً للكفن، بينما تصبح أملاكه من ممتلكات الكنيسة.

*** يحدثنا اللاهوتي توما ألاكويني عن رسل الباباوات على النحو التالي:(كانوا يتسلقون الجبال ويجتازون الأنهار وينهبون الفقراء والبسطاء ويأخذون منهم حتى أبسط الأشياء الضرورية التي يحتاجون إليها، ولكي لا تعترضهم المصاعب في تنفيذ عملياتهم هذه كانوا يتفقون سراً مع القساوسة ورجال الدين المحليين على النحو التالي: إذا كنت تجمع لنا بنفسك من رعايا القرية في الساحة فإننا نخصص لك ثلث الأموال التي نجمعها وستأكل على نفقتنا ومعنا ما تريد، وتشرب ما تشتهي عن صحة أولئك الذين سيدفعون لنا) ويردف توما ألاكويني قائلاً: لقد كان القساوسة في غالبيتهم متملقين وفاجرين ومستعدين = = =**

= للقيام بأي عمل في سبيل الحصول على المال والطعام، وكما أنهم كانوا يتواطؤون مع رسل الباباوات ويساعدونهم في بيع صكوك الغفران، ومبدؤهم في العمل: اليوم اشرح صدري وآكل وغداً آخذ صكوك الغفران لتوزيعها وتغفر جميع خطاياي. (88).

وقد حصلنا على معلومات عن تعرفة صكوك الغفران هذه، فوجدنا أن ثمن التخلص من الخطيئة كان زهيداً: فمثلاً الرجل الذي يقتل أمه أو أباه أو أخته كان يستطيع أن يتخلص من خطيئته هذه بدفع دوكاً واحداً لصك الغفران، والشخص الذي يقتل زوجته ويتزوج أخرى كان عليه أن يدفع دوكاتين، ومن يقتل قسيساً عادياً يدفع أربعة دوكات، ومن يقتل الأسقف يدفع تسعة دوكات ويتخلص من العذاب في جهنم.

لم يكن دس السم خطيئة كبيرة وثمن غفرانها دوكاً فقط، وإن أعلى ثمن لهذه الخطايا فهو تسعة دوكات لقاء الإخلال بتعهدات أو التزامات معينة، والرهبان الذين يمارسون العنف داخل الدير أو خارجه يجب أن يدفعوا لغفران هذه الخطيئة ثمانين دوكاً، وثمن خطيئة الشذوذ الجنسي مع الحيوانات / 12 / دوكاً والراهبات اللواتي يرتكبن الخطيئة داخل الدير أو خارجه يستطعن التخلص من الخطيئة لقاء تسعة دوكات ويحتفظن بحقهن في البقاء في الدير، وإذا كانت الراهبة رئيسة الدير مثلاً فإنها تبقى على رأس عملها[1].

في ذلك الزمان كانت صكوك الغفران وتعرفتها تتنوع وتختلف مع تجديد البابا، فخادم الكنيسة كان عليه أن يدفع ثلاثة دوكات ثمناً لخطيئة الزنا، ولكي ينقذ روحه كل من يضاجع أمه وأخته أو ابنته أو إحدى قريباته كان عليه أن يدفع دوكاتين، ومن يعتدي على فتاة يدفع أيضاً دوكاتين لتغفر خطيئته، ومن يخل بقواعد صيام الفصح ويأكل خلال الصيام بيضة أو قطعة لحم أو زبدة يدفع / 2.5 / دوكات ثمن صك الغفران.

ومن سبق له أن سرق أو أحرق أو قتل ..... يستطيع أن يدفع دوكاتين ليدفع عن نفسه الخطيئة، ويشير " دي بوتي " إلى أن بعض صكوك الغفران كان باهظ الثمن، إلى حد أن شراءه كان وقفاً على الأغنياء فقط، والفقراء كانوا يموتون دون أن يتمكنوا من شراء هذه الصكوك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مجمع تريدان كان في عام / 1560 / قد وضع هذه التعريفات ضمن قائمة الكتب المحظورة، غير أن الملك الأسباني المتعصب فيليب الثاني أمر بإتلافها، ويشير دي بوتي إلى أنه كانت هناك أساليب أخرى لمغفرة الخطايا تحدد على أساس القوانين الكنسية، وتدخل ضمن قائمة التعرفة.

فمثلاً: .....كان بالإمكان التخلص من خطيئة معينة عن طريق الصوم، الذي تحدد مدته الكنيسة يوم / شهر / سنة ..... / وهكذا، لكن الخاطئ يستطيع دفع البدل النقدي إلى خزينة الكنيسة إذا أراد.

وهكذا كان الأغنياء يدفعون بسخاء للتخلص من خطاياهم، ثم يرتكبون الآثام من جديد ثم يدفعون ..... وهكذا إلى أن تحولت العملية إلى مصدر وفير للدخل المالي الذي تجمعه السلطات الكنسية وتستخدمه بمهارة وعلى نطاق واسع.

لقد قام رجال الكنيسة بتسديد العقوبات وجعلها أكثر إيلاماً وإيذاءً، زادوا من إيرادات شراء صكوك الغفران، إن مبيعات صكوك الغفران والمدفوعات لقاء الخطايا " الخاصة " وفرت للبابا يوحنا الثالث والعشرين مبالغ ضخمة، الأمر الذي مكنه من إدارة دفة الأمور بحزم وصرامة، ودعا من جديد لفتح صفحة جديدة من المحادثات مع ملك نابولي فلاديسلاف، العدو اللدود للكرسي البابوي في روما.

كتب "كوسا " إلى هذا الملك يقول:(إذا كنت لا تؤيد غريغوري الثاني عشر وتعترف بسلطة البابا في روما فإني أدفع لك مئة ألف فلورين ذهبي .....).

وما كان من فلاديسلاف الذي كان يعاني من أزمات مالية إلا أن قبل بهذا العرض، ودعا بطارقة مملكته إلى عدم الاستمرار في تأييد غريغوري الثاني عشر، وطلب منهم الاعتراف بالبابا يوحنا الثالث والعشرين كبابا وحيد للكنيسة الغربية ففعلوا ذلك دون تردد، وكتب هؤلاء جميعاً إليه: إننا نعترف بك بابا شرعياً وحيداً لجميع بلدان الكنيسة الغربية بما في ذلك مملكة نابولي.

لقد دفع "كوسا " مئة ألف فلورين ذهبي إلى فلاديسلاف، بينما طلب هذا الأخير من غريغوري الثاني عشر الذي ينزل عنده ضيفاً في غيتا، أن يغرب عن وجهه حالاً، وقد كتب إلى البابا السابق:(قبل حلول شهر تشرين الأول يجب عليك أن تغادر مملكتي).

---

[1] – **يقول دي بوتي في هذا الصدد بأن:(هذه التعرفة كانت تضم / 385 / بنداً، من بينها تعرفة خاصة بمن يقتل أباه أو أمه أو زوجته، وأخرى خاصة بالقس الذي يصلي على ميت لعنته الكنيسة " إذا كان يعرف ذلك مسبقاً "**

اضطر غريغوري مع ثلاثة من الكرادلة الذين ظلوا معه إلى مغادرة ذلك الملاذ الأمين عشية حلول فصل الشتاء، لقد توجه إلى الميناء حيث استقلَّ سفينةً من السفن التابعة للبندقية، وفي ذلك البحر المكشوف كان ينتظره الكمين الذي نصبه له غاسبار كوسا الذي أخبر " بالتازار " برحيل غريغوري، لكن القدر أشفق على البابا العجوز، واستطاعت سفينته التخلص من السفن التي كانت تطاردها في بحر الأدرياتيك والوصول بسلام إلى ريميني، حيث كان " شارل مالاتيست " حاكماً لمقاطعة هناك صديقاً للبابا غريغوري.

بعد أن قدم يوحنا الثالث والعشرون إلى مملكة نابولي، أصدر على الفور الحرمان واللعنة بحق غريغوري الثاني عشر الذي حرم من ملجئه عند فلاديسلاف والبابا بينيديكت الثالث عشر الذي كان يعيش في أسبانيا.

لم يستسلم غريغوري الثاني عشر على الرغم من أن يوحنا أصبح الآن زعيم المسيحية الغربية برمتها تقريباً ورد اللعنة باللعنة.

لكن "كوسا " لا يخيفه شيء الآن، فسلطته قوية ومعترف بها بالإجماع، واستطاع أن يعيد النظام إلى بولونيا التي كانت تجتاحها حرب مدمرة بين الملك والصليبيين – رسل البابا السابق – فقد اجتاحت البلاد أمواج من المتطرفين والمغامرين الذين كانوا يرغبون في خدمة الكنيسة الغربية وينهبون الشعب.

أرسل يوحنا الثالث والعشرون كبير أساقفة بياشينا سفيراً له إلى ملك بولونيا واستطاع هذا السفير أن يعقد راية السلم بين الملك والصليبيين[1].

ومضت الأيام وتتالت الأحداث لصالح "كوسا "، واعترفت جميع بلدان أوربا الغربية به كبابا شرعي وحيد، وأصبح الآن في مقدور "كوسا " أن يحقق حلمه – وهو الدخول المظفر إلى عاصمته الحقيقية – إلى المدينة الخالدة، وكانت الجموع الغفيرة من سكان روما تصطف على جانبي الطريق لتحيي البابا يوحنا الثالث والعشرين.

بعد أن استقر في روما، حاول "كوسا " – في أول الأمر – أن يعوض خزينته ويستدرك ما دفعه من أموال لتنفيذ مخططاته ..... فَعَيَّنَ عدداً من الكرادلة الجدد لهذه الغاية، وتوجه برسالة إلى البابا غريغوري الثاني عشر:(اعترفَ بي الجميع بابا وحيداً ..... وتنازلْ وعُدْ إلى رشدك لأن ذلك يؤدي إلى انقسام الكنيسة، افعل خيراً واعترف بي بابا، إذا وافقت على ذلك فإنني سأعينك في منصب الكاردينال الأول مع مبلغ خمسين ألف فلورين).

لكن غريغوري لم يكن يفكر بالمال بل بالبابوية، ولذلك كان جوابه لعنة جديدة إلى يوحنا الثالث والعشرين، وأجابه الأخير بلعنة وأخذ يحضر للمجمع الذي كان من المقرر أن يحل تلك المسائل التي طرحت في مجمع بيزا.

وفي عام / 1413 / عقد في روما المجمع الكنسي الذي حضره ممثلون عن جميع دول أوربا الغربية (فرنسا – ألمانيا – قبرص – نابولي – مملكة سينا ....) وغيرها، وأدلى الخطباء الذين تحدثوا أمام المجمع اهتمامهم نحو إدانة نظرية الهرطقة التي جاء بها " ويكليف " وتسربت إلى قارة أوربا، لقد طالب ويكليف البروفيسور اللاهوتي الكبير خريج جامعة أكسفورد بإصلاح الكنيسة قبل التوتر ب / 150 / عاماً، ووقف ويكليف بحزم إلى جانب حق الكنيسة البريطانية، وأية كنيسة وطنية أخرى في الدفاع عن استقلالها ضد تطاول وتدخل الكرسي المقدس.

وكان هذا اللاهوتي الكبير يرى منذ ذلك الحين أن أملاك الكنيسة هي في الوقت نفسه أملاكاً للدولة، وإذا ارتكبت الكنيسة أي نوع من الأعمال الفاضحة وغير الشرعية فإن باستطاعة الدولة مصادرة أملاك الكنيسة، كما أنه طرح الفكرة بضرورة نقل وترجمة الإنجيل عن اللغة اللاتينية إلى جميع اللغات الأخرى لكي يفهمه الجميع ويصبح في متناول الجميع[2].

---

[1] – يقول دافيوريجو:(على الرغم من التفوق العددي لدى الفرسان الصليبيين التوتونيين فقد تكبدوا خسائر جسيمة أمام قوات الملك فلاديسلاف ياغيلو، وبعد أن دخل يوحنا الثالث والعشرون حكماً بين الأطراف المتحاربة، انحاز إلى جانب الفرسان الصليبيين بشكل عام).

ويقول فوستر:(وافق فلاديسلاف على الهدنة بشرط أن يعيد الفرسان جميع ما سرقوه ويدفعوا أيضاً / 600 / ألف فلورين إلى الملك، وقد نفذت هذه الشروط).

[2] – حتى عام / 1381 / كان ملك بريطانيا وكبار الإقطاعيين يؤيدون موقف " ويكليف " لأنهم كانوا يحسدون الكنيسة على غناها وثروتها، ويحاولون الاستيلاء على أملاكها، غير أن انتفاضة الفلاحين التي حدثت في عام / 1381 / أوقفت جميع أصحاب السلطات عند حدودهم وعزلتهم بمن فيهم

استمر انعقاد المجمع لمدة شهرين في روما بدعوة من البابا يوحنا الثالث والعشرين، وعندما شارف المجمع على الانتهاء، اتضحت لدى " كوسا " معالم الخطة للصراع ضد هؤلاء البريطانيين ومكافحتهم، واتفق مع الكاردينال " جامبيا ريلو " بأن يخطب أمام المجمع، ويتقدم باتهام رسمي ضد هؤلاء، فقال الكاردينال:(لقد استطاع هؤلاء الملعونون نقل الشقاق والخلاف والفتنة إلى قارة أوربا، وتحدثت عنهم كتب كثيرة، ونشروا الكثير من الكتب التي تحمل سموم أفكارهم ووبائهم الوبيل، وضد هذا الوباء لا يوجد إلا علاج واحد فقط وهو " إحراق الكتب " وكل من عمل على نشرها وتوزيعها).

استمع الآباء – المقدسون والمحترمون أعضاء المجمع والضيوف الذين اجتمعوا في الفاتيكان عند مقر القديس بطرس – إلى الخطاب الحماسي لهذا الكاردينال بكل شغف واهتمام، وأعربوا عن موافقتهم على معاقبة " المخلين بالأمن والهدوء " الذين يحاربون ضد الكنيسة ... وإحراق جميع الكتب، وعندما انطلقت آخر كلمة لعنة بحق هؤلاء الهراطقة على لسان الكاردينال، نهض البابا يوحنا الثالث والعشرون، وخرج من المجمع ونزل السلم إلى الساحة حيث اشتعلت النار التي يقف حولها عدد من القساوسة والخدم وفي أيديهم كتب الهراطقة، فأخذ البابا منهم هذه الكتب وألقى بها إلى النار لتلتهمها.(74).

وبعد أن نفذ هذا " العمل العظيم " رأى الآباء المقدسون أن اللحظة الآن أصبحت مواتية، فاقتربوا من الحبر الأعظم وطلبوا منه بعزم وإصرار بأن يكون أكثر ثباتاً وألا يقوم من الآن فصاعداً بإعمال وأفعال لا تليق بمركز الكنيسة.

لقد طلب الكرادلة والأساقفة بتواضع وتوسل من البابا يوحنا الثالث والعشرين بأن يغير مسلكه الذي لا يتلاءم مع مقامه، وأن يوقف الأعمال المستهترة والتسيب داخل نظام الكنيسة الذي يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم.(79).

تلقى البابا مثل هذه التوسلات والدعوات في السابق من ممثلي الأكليروس الفرنسي، وخاصة من جامعة باريس ومن محكمة الكنيسة العليا في باريس، غير أن ذلك كله عديم الجدوى، ولكن ما الذي جاء في هذه الدعوات؟ وما هي المطالب والتهم التي وجهت للبابا؟ وهل كانت النداءات والمطالب تتعلق بشخصه بالذات فقط؟ طبعاً كان الجميع يرغبون في أن يكون البابا أكثر حزماً في ردع نفسه عن تلك الأعمال، ومن الطبيعي أيضاً أن تثير تجارة صكوك الغفران ردود فعل غاضبة لدى هؤلاء المتمسكين بتعاليم الكنيسة، غير أن أسلاف البابا الحالي كانوا قد تاجروا بها أيضاً، إذن السبب يكمن في موضع آخر ..... أليس كذلك؟ ومما أثار النقمة أيضاً هو أن زعيم المسيحية الجديد كان يتعامل بالربا، إنه يسمح لنفسه بذلك علانية ودون التقيد بالتعاليم الكنسية، لا بل يتقيد بقواعد مغلوطة وضعها هو لنفسه، لقد كان التعامل بالربا مصدراً رئيسياً له لجمع الثروة، وهو لم يكتف بجمع الأموال للتعويض عن نفقاته بل جمع المزيد من الأرباح، وبالسير على هذا النهج الذي جدده بنفسه استطاع هذا المرابي الخبير في نهاية المطاف أن يفتح " بنكاً " مصرفاً وفروعاً له في المدن الكبرى والصغرى التابعة لسلطة البابا.

وتوجه الأغنياء والفقراء على حد سواء وكل من يحتاج إلى الأموال، إلى هذا البنك وفروعه حيث لا يتورع عن سلخ جلود هؤلاء لقاء القروض التي يحصلون عليها، والجدير بالذكر أن الشعب كان مضطراً للتوجه إلى بنك البابا وفروعه فقط لأنه – أي البابا – كان قد لاحق المرابين دون هوادة، وهكذا استطاع أن يحتكر أعمال الربا في دولته لوحده.

يقول ديتريخ فون نيم في هذا الصدد:(بفضل المهارة في القيام بمثل هذه الأعمال، استطاع يوحنا الثالث والعشرون أن يجمع ثروة طائلة).

ويكليف أيضاً، وأدينت نظريته واتهم بالهرطقة، كما أنه هنري الرابع الذي وصل إلى العرش من سلالة لانكستر كان بحاجة إلى تأييد الكنيسة له (أصبح في الواقع أداة طيعة في يد الكنيسة) وبدأ حملته ضد أنصار وأتباع نظرية ويكليف.

وفي عام / 1401 / اتخذ مجلس الطوائف قراره ضد الهراطقة، وقد جاء في ذلك القرار (إن الخطباء الأنذال وأعمالهم المنبوذة تدفع الشعب إلى التمرد). ورجال الكنيسة لا يعرفون كيف يتصدون لهم ويصطادونهم ويعاقبونهم، إن المبشرين بالأفكار الجديدة يجوبون البلاد بحرية دون الخوف من تعليمات الكنيسة، ومنذ الآن يحق للأساقفة اعتقال الهراطقة وسجنهم، وإذا واصلوا بث أفكارهم السيئة، فإن الكنيسة تحولهم إلى يد السلطات الزمنية لفرض العقوبات الصارمة بحقهم ..... سيحرق الهراطقة بالنار ويشنقون على مرأى من جماهير الناس ليتعظوا بهم ويقلعوا عن أفكارهم ونظرياتهم، كما أن الملك الجديد لاحق أصحاب هذه البدع دون شفقة ولا هوادة، وقد اتهمهم الملك هنري الخامس بأنهم ينظمون المؤامرات ضد بريطانيا وبدأت أعمال التنكيل بهم واعتقالهم وقتلهم.

لقد كانت تهمة الربا من بين التهم الكبيرة الموجهة إلى بطلنا، بغض النظر عن بيع صكوك الغفران على نطاق واسع في العديد من مناطق العالم المسيحي، إن من بين الآثام والذنوب الكبيرة التي ارتكبها البابا يوحنا الثالث والعشرون والتي أثارت موجة النقمة والغضب بين صفوف الشعب ..... ضعفه أمام النساء، وفساده، وأعمال الانتقام الدموية، وأفكاره واتجاهاته الهرطقية.

ففي الوقت الحاضر وبعد أن أصبح راعي روما المسيحية ظلت نزوته المتأججة إلى النساء الحسان كما كانت في الماضي عندما كان قرصاناً، ثم عندما أصبح طالباً في جامعة بولونيا أي أنه لم تتغير طباعه إلا قليلاً، وكان من كرسي البابوية يراسل الحكام موصياً إياهم بالإدارة الصالحة والحياة النزيهة وعدم ترك طريق الاستقامة والخير " الطريق التي حددها لنا السيد المسيح " أما هو فعلى النقيض من ذلك تماماً.

لقد رأى أهل روما أن هذا " الراعي الروحي " وحامي الأخلاق والقيم " الذي كان يدعو في بياناته وكتبه ومراسلاته إلى الاحتشام والتوبة وكبح جماح الشهوات، كان في الوقت نفسه يتحول إلى ذئب يسعى إلى مآربه الدنيئة.

إلا أنه وبعد أن أصبح " بابا "كان عليه أن يتخلص من معارضيه، لأن منصبه يسهل عليه ذلك، وإمكانياته في هذا المجال كانت تتصاعد عاماً بعد عام، ففي الوقت الحاضر لم يعد قساً عادياً ولا مطراناً للكنيسة بل هو " أب روحي للمسيحية " لا يستطيع أحد مراقبته والإشراف عليه، ولا يستطيع أحد الآن أن يقف في طريق أهوائه وفجوره ..... وعلاقاته مع النساء – العاهرات أو الفتيات اللواتي يفسدهن بنفسه ثم يتركهن لمصيرهن الأسود – كانت لا تنقطع.

وفي هذه الفترة بالذات بدأت علاقته بـِ " دينورا شيريتامي " من بيروجيا، والقراء يتذكرون أن بطلنا كانت له علاقة في نابولي مع فتاة صغيرة كانت تدعى "كونسانتسيا " عندما كان قرصاناً آنذاك، وبعد بضع سنوات أي عندما أصبح كاردينالاً لدى البابا بونيفاس التاسع أقام كوسا علاقة مع ابنة "كونسانزا " مع أنه اقتنع بأن هذه الفتاة كانت ابنته، وها هو الآن يصبح عشيقاً لحفيدته – دينورا – التي حملت لقب شيريتامي، إذ أن "كوسا "كان آنذاك قد تزوج محبوبته الشابة أم دينورا من شيريتامي البرجوازي الحكيم والعالم وصاحب الصيدلية في بيروجيا[1].

كان عمر دينورا / 14 / عاماً، وكانت أمها " جيلدا " تقول لبطلنا أحياناً بأنها ابنتها وابنته (أي أمها كونستانزا كانت مقتنعة آنذاك، بأن جيلدا ولدت منه)، غير أن يوحنا الثالث والعشرين تظاهر بأنه لا يثق بذلك ويقهقه معتبراً ذلك نكتة أو مزاحاً، واستطاع إغراء الفتاة، كما أن أم وجدة الفتاة كانتا قد قالتا ذلك ليوحنا من باب المجاملة واللياقة فقط، وتظاهر رب الأسرة شيريتامي بالامتعاض، غير أنه لم يكترث بذلك بعد أن قدم إليه "كوسا " الخدمات الجليلة، أما بالنسبة للفتاة فقد راحت تتملق اهتمام ذلك الشخص ذي المركز الكبير وتقول له بمكر مبتسمة:

– " بالتازار " ..... هل صحيح أنك أبي وجدي؟ وتكتفي بالمباهاة أمام أمها وجدتها: الآن أنا شخصية مهمة، لأن بابا روما نفسه فقد عقله أمامي وأصبح مسحوراً بجمالي.(2).

من الجدير بالذكر أن المرأة والفتاة في ذلك العصر كانت ترى أنه شرف عظيم لها إذا هي أقامت علاقات غرامية مع كبار رجال الدين، ويقول بترارك في " رسائل بلاغون " بأن هناك أمثلة عجيبة على رغبة الفتيات في أن يصبحن عشيقات الكرادلة[2].

---

[1] – تفيد مخطوطات كثيرة بأن شيريتامي كان يضع ويقدم إلى " كوسا " السموم التي قتل بها الكثير من خصومه ومناوئيه.

[2] – بما أن المجال هنا لا يتسع للحديث عن تلك الرسائل فإننا نكتفي بسرد رسالة واحدة منها وهي الرسالة السادسة عشرة التي تتحدث عن أخلاقيات رجال الدين في ذلك العصر.

(تحدث أحد المقربين إلى أحد الكرادلة مع فتاة شابة ومع أسرتها طالباً إليها الحضور إلى الكاردينال،وطالما أن الحديث كان يدور حول هذه الشخصية الدينية الكبيرة، فقد وافقت الفتاة بكل سعادة وسرور، ولكن كم حز في نفسها الألم عندما التقت بعجوز أصلع فقد أسنانه ويرتدي اللباس الكنسي " خصيصاً للقاء الغرامي " فقد ظنت الفتاة أنهم نصبوا لها فخاً، وأن هذا العجوز ليس كاردينالاً بل هو مخادع أو ممثل، وأخذت تبكي وتهدد وتذرف الدمع أمام ذلك العجوز الذي جاء بدلاً من " الأمير الروحي " الذي وعدوها ووعدوا أسرتها به، عندئذ أيقن الأب المقدس أنها لن تقبل به إلا إذا رأته بكامل لباسه – لباس الكاردينال وعظمته وهيبته – فاضطر للخروج وارتداء القبعة الحمراء الرسمية المميزة، وعندما عاد قال لها: والآن هل تصدقين أنني كاردينالاً؟ .... إنهم لم يخدعوك بل قالوا لك الحقيقة ..... ألا تصدقين).

من الطبيعي أن يميل " بالتازار كوسا " الشاب الوسيم والقوي إلى حب الفتيات والنساء الشابات، ففي كل يوم كان يختار الجميلة من بين خمسة أو عشرة نساء جميلات، وفي فلورنسا وبولونيا، والآن في روما كان غالباً ما يطلب إلى صديقه الحميم بوناكورسو قائلاً له:

– " غوانداتشو " ..... ابحث عن فتاة في الدير ..... كذا ..... كذا .....

وهكذا دواليك ... وكانت رئيسات الأديرة يبذلن كل ما في وسعهن لإرضاء رغبات " الأب الروحي الأكبر ".

هكذا يصف واقع الأديرة آنذاك " ب. أريتينو " ..... قد لا يكون هذا المؤرخ صادقاً في أقواله هذه، وقد يكون مبالغاً إلى حد ما بغرض إثارة شكوك القراء ..... غير أن الحقيقة هي أن أخلاقية الأديرة في تلك الحقبة من تاريخ الكنيسة الغربية كانت متدنية إلى حد كبير، مما أثر بالتالي على سلوك أفراد الشعب وتصرفاتهم العامة والخاصة.

. . . . . .

خلال إقامته في روما كان للقرصان السابق خليلات داخل قصر الفاتيكان ذاته، وداخل قاعات القصر القديم الذي بناه البابا نيكولا الثاني في عام / 1275 / م، وفي قصر لاتيران أيضاً، وفي دير القديس أونوفري.

وبطبيعة الحال لم تتوفر لدى قصر الفاتيكان، ولا لدى قصر لاتيران وسائل الراحة الكافية لإقامة البابا فيهما خلال تلك الفترة الماضية، أي في حينه، لأن القصر الحالي – أي في عهد ما بعد كوسا في الفاتيكان – كان قد شُيِّدَ في القرن السادس عشر، ولذلك فقد فضل البابا الجديد الإقامة في دير القديس أونوفري الواقع على سفح تل جميل وغير بعيد عن نهر التيبر، وفي الطرف المقابل لمدينة روما، وفي الوقت الحاضر توجد كنيسة مكان ذلك الدير، وقد بنيت في عام / 1440 / ميلادي، أي بعد / 25 / عاماً من هذه الأحداث التي نحن بصددها.

لقد أعجبت "كوسا " تلك المنطقة البديعة، فمن عَلٍ تطل التلال الخضراء على لوحة روما الواسعة والضواحي المحيطة بها، كان ذلك منظراً رائعاً حقاً.

كان ذلك الدير نظيفاً ومرتباً أحسن ترتيب ..... وكيف لا؟ وجميع العاملات فيه يحظين بحب ورعاية البابا وهداياه وعطاءاته التي لا تنضب،أضف إلى ذلك أن الراهبات كن يعلمن حق العلم أن من تستأثر بقلبه وعطفه وحنانه ستحصل على غير ما هو معلوم من الهدايا والمغامرات ..... أي أنها ستحصل على منصب رئيسة دير في مكان آخر.... ولذلك كن يتسابقن لإرضائه ولتحويل الدير إلى قطعة من " الفردوس ".

ذات صباح كان "كوسا " في سرير إحدى الراهبات وتدعى " أنيزيا " وقد أرهقه السهر الطويل في مضجعها لأنها كانت لا تدري كيف تتصرف معه أو ترضيه نظراً لصغر سنها وحداثة عهدها في الدير.

وفجأة سمعت أصوات خطوات تقترب، ثم صرير المفتاح في الباب الخارجي، ففتح "كوسا " عينيه وقفز من السرير مسرعاً ساحباً وراءه الغطاء من فوق جسد عشيقته ..... وكم كانت دهشة الخليلة عظيمة عندما سمعت "كوسا " يدعو الزائر إلى الدخول[1].

كانت تقف في الباب جثة ذلك الأعور العملاق والقرصان السابق، الذي أصبح اليد اليمنى لبطلنا " بالتازار كوسا " لقد نظر بهدوء إلى السرير ومَنْ عليه ... إلى ذلك المنظر الذي أصبح مألوفاً لديه، بادره كوسا قائلاً:

---

[1] – **يجب ألا ينسى القارئ بأن هذا الأب الروحي العجيب يوحنا الثالث والعشرين كان قد اتهم من قبل معاصريه ووجهت إليه تهمة " المغتصب " و " الزاني " وقد ألصقت به هذه التهم بشكل رسمي من قبل أساقفة الكنيسة وزعمائها الذين حضروا المجمع الكنسي بهذا الشأن.**

- " غوانداتشو " ..... أي دير قريب منا يحتاج إلى رئيسة؟ مشيراً برأسه نحو الفتاة المستلقية على السرير التي غطت نفسها خجلاً وحياءً ..... ادرس الموضوع ثم أخبرني[1]، ثم أردف قائلاً: ..... أو الأفضل أن تقول لباسكالي كي يهتم هو في هذه المسألة.

كان باسكالي بالإضافة إلى عمله كأسقف .... العميل الذي يبحث عن العشيقات وينظم المغامرات لسيده البابا.

وقد جاء في الاتهام بحق يوحنا الثالث والعشرين أثناء انعقاد المجمع أن "كوسا " أي البابا كان قد عين باسكالي كمراقب أو مفتش على الأديرة لكي يسهل على نفسه مهمة البحث عن الخليلات والاتصال بهن فيما بعد ..... ولكن لماذا كان على " غوانداتشو " في ذلك الوقت غير المناسب أن يقلق راحة سيده القرصان سابقاً، وسيده الأب الروحي حالياً؟ ولماذا كان هذا اللص القديم " والقس الحالي " يتلعثم أمام سيده بكلمات واضحة لم يفهم من مضمونها إلا ..... وفاة الأب المقدس؟ .....

فصرخ في وجهه "كوسا ": وتتأفف من جديد يا غوانداتشو ..... كم قلت لك بأنني لا أستطيع الصبر على هذا التذمر والتأفف؟ فتمالك العملاق القديم أعصابه قائلاً:

- أبي المقدس ..... لا يجوز إرسال رفاة القديس يوحنا إلى فلورنسا.

فصاح به "كوسا ":

- ولماذا؟ – وعيناه تمطرانه شرراً وغضباً – ..... لماذا؟ إنك حقير ..... لقد أخبرت بعضهم بما أنوي عمله ..... أليس كذلك؟

الحقيقة أن "كوسا "كان يرغب في أن يبيع سراً رفاة القديس يوحنا.

وقد كانت هناك أماكن كثيرة مقدسة لهذا الرفاة منها اثنان رئيسان في أوربا الغربية أحدهما في ألمانيا والآخر في فرنسا، وهذا هو المكان الثالث الذي ينوي "كوسا " إحداثه الآن، فقد أرادت فلورنسا شراء الرفاة بمبلغ / 50 / ألف فلورين ذهبي، (يتحدث حول هذه المسألة ديتريخ فون نيم وكذلك لانفاق في كتابه " مجمع كونستانسا ") ومؤرخون آخرون، إذ كان يوحنا الثالث والعشرون يحاول سرقة الرفاة من روما وبيعها لقاء الذهب.

أمر "كوسا " خادمه الأمين بالكف عن الهراء، مشيراً إلى أنه سيشرح له الأمر فيما بعد، قال " غوانداتشو ":

- لقد ثار أهل روما ..... ويبدو أن أحداً أخبرهم بما تنوي عمله، وأنا لم أقل لأحد أبداً حول هذه المسألة ..... حتى أنني في الحلم لم أقل ولم أنبس ببنت شفة، وعلى الرغم من كل ذلك فقد علم هؤلاء ..... لقد علموا بالأمر والشعب تجمهر حول الكاتدرائية ولا يسمح لأحد بالدخول، والشعب يهتف " لن يمس أحد رفاة الأب المقدس، إنه سيظل هنا ..... والقديس يوحنا نفسه قال لنا: ما أنتم فاعلون ..... لا ..... لا .... ستبقى الرفاة هنا ..... في روما".

استمع يوحنا الثالث والعشرون بهدوء إلى أقوال " غوانداتشو " وهو يتلقى الضربة، ثم قال:

- لقد خسرت / 50 / ألف فلورين ذهبي، ولكن الذي يهمني الآن أن أعرف كيف علم هؤلاء بهذه الخطة، وأنت أيها الحقير ..... إذا ثرثرت أكثر من ذلك فإنني سأقتلك .....
- حاضر يا سيدي ..... ولكن أريد أن أقول لك أيضاً بأن السنيورة " دينورا " ومعها السنيورة " جيلدا شيرتامي " والسنيورة "كونستانتسا " قد وصلن، فسأل كوسا على الفور: أين هن الآن؟ لقد أرسلتهن إلى هناك ..... وأشار " غوانداتشو " بيده صوب الفاتيكان.

---

[1] – لم يكن منصب رئيسة الدير ذا قيمة شريفة أو معنوية فقط بل كان منصباً يدر على صاحبه الكثير ... الكثير من الأرباح، وكان عدد الذين يحملون في هذا المنصب – من ذكور وإناث – كبيراً جداً، ولا يستطيع الوصول إليه إلا أولئك الذين لهم صِلاتٌ وثيقة مع كبار رجال الكنيسة، وليس أعداء الفاتيكان وحدهم هم الذين اتهموا البابا يوحنا الثالث والعشرين في مجمع كونستانتسا بتوزيع هذه المناصب على خليلاته من راهبات الأديرة أو غيرهن، بل انضم إليهم أيضاً أعلام الفكر وعلماء الكنيسة.

غادر بطلنا على الفور " الراهبة " الفتاة التي قضى ليلته معها، وتوجه نحو النسوة الثلاث اللواتي جئن إليه من بيروجيا، ولم يكن يشعر بالمزيد من الأحاسيس والعواطف نحو عشيقاته السابقات (لاكونستانتسا التي تذكره بأيامه السابقة عندما كان قرصاناً، ولا جيلدا التي تَعَرَّفَ عليها عندما كان قساً، إلا أنه كان متعلقاً بالفتاة الصغيرة، حفيدته من الأولى وابنته من الثانية، كل شيء فيها كان يشده إليها: جمالها ..... ذكاؤها ..... عذوبتها ..... حيويتها.

عندما رأت الفتاة الصغيرة "كوسا " ألقت بنفسها إليه واحتضنته بشوق وحماس غريب بالنسبة لمثيلاتها في هذه السن، فهمست في أذنه:

– عزيزي ..... حبيبي ..... سأظل الآن معك إلى الأبد .....

ونظرت إليه بشغف بالغ:

– سنبقى نحن الجميع هنا ..... أنا وأمي وجدتي ..... وأبي سيظل في بيروجيا.

. . . . . .

وانقضى ما يقارب العامين ..... وها نحن الآن في عام / 1414 / وأصبحت " دينورا " في سن السادسة عشرة من عمرها، وقد اكتملت خبراتها ومواصفاتها كخليلة تليق بالبابا.

لقد تعلمت الكثير في كنف يوحنا الثالث والعشرون، ولم تقتصر معارفها على شؤون الحب فحسب، بل خاضت مجالات كثيرة أخرى، أصبحت قادرة وذكية ..... وتتفهم الأمور بسرعة ..... وتتكيف معها بخبرة وحنكة، كما أن يوحنا كان غالباً ما ينظر بغبطة وإعجاب إلى حفيدته، عشيقته الذكية والجميلة وخفيفة الظل، ولذلك أخذ يسأل نفسه:

– إن هذه الفتاة قد تستطيع مساعدتي الآن ..... والآن بالذات.

ماذا كان يعني؟ وما هي الفائدة التي تستطيع أن تقدمها له فتاة في السادسة عشرة من عمرها؟ في السنة الأخيرة ساءت العلاقات بين يوحنا الثالث والعشرين وملك نابولي فلاديسلاف العدو الدائم واللدود للبابوية، والذي كان يحاول على الدوام توسيع رقعة مملكته على حساب الأراضي التابعة لدولة البابا، وكان كوسا قد اختلف معه وأعلن حملة صليبية ضده، وخرج منها منتصراً وكاد يقضي على فلاديسلاف، وبعد ذلك – كما يذكر القارئ – أصبحا صديقين، واعترف الأخير بكوسا كبابا، وحين تنكر للبابا الآخر، غير أن غريغوري الثاني عشر الذي أقام في ريميني بضيافة صديقه حاكم المقاطعة لم يكف عن إرسال اللعنات وطلقات الحرمان ضد غريمه يوحنا الثالث والعشرين، وكان كوسا في أمس الحاجة إلى إلقاء القبض على غريغوري وتقديمه إلى المحاكمة ليبرهن للجميع بأنه هرطيق وفاسد.

وقد طلب من فلاديسلاف بأن يساعده في هذه المهمة، إلا أن فلاديسلاف لم يبد أية رغبة في اصطياد البابا غريغوري الثاني عشر، مما أدى إلى إثارة غضب كوسا وحقده على ملك نابولي الذي كان يشتمه[1]:

– إنه حمار[2] ..... "كان يشتمه يومياً " .... إنني سأرسله إلى المحرقة وأتخلص منه إلى الأبد، إنه يقف مني هذا الموقف لأنه يريد القضاء عليَّ، وابتلاع دولة البابا كلها بدءاً من روما، إنه لا يكتفي بنابولي، أبوليا، كلامبرا، كابيتاناتا، وغيرها من المناطق الأخرى، بل يريد أن يضم إيطاليا كلها إلى مملكته.

لقد أقلقت كوسا الاستعدادات العسكرية التي قام بها فلاديسلاف، الذي استطاع أن يحشد جيشاً قوياً وأسطولاً كبيراً، إلا أنه لم يكن في مستوى كوسا بالحنكة السياسية والخداع، كان يوحنا الثالث والعشرون يدرك تماماً عواطف شعب روما وإيطاليا، وكان يعرف ما يعاني منه أهل روما بالذات ..... إنها الضرائب الكثيرة التي أثقلت كواهلهم ..... ولذلك رأى كوسا أن الفرصة سنحت الآن لاستدرار عطف

---

[1] – **أي كوسا يشتم فلاديسلاف.**

[2] – **المقصود بالحمار هنا هو فلاديسلاف.**

ومشاعر سكان روما، فأصدر أوامره وتعليماته بإلغاء الكثير من هذه الضرائب (إنني ألغي هذه الضرائب حباً بأهل روما وتقديراً لهم)(79).

وفي اليوم التالي أي في الخامس من حزيران صدر عن الكرسي البابوي أمر آخر (نزولاً عند رغبات أهل روما فإنني أعيد إليهم جميع الحقوق والحريات التي كانوا يتمتعون بها من قبل انتخابي للكرسي المقدس، ومنذ هذه اللحظة سيدير روما ويحكمها حكام ينتخبهم الشعب).

واستطاع "كوسا " عن طريق اتخاذ إجراءات أخرى أن يحشد ثلاثة آلاف جندي، غير أن قوات فلاديسلاف زحفت بسرعة وأصبحت على مشارف المدينة الخالدة، كما أن أسطوله المؤلف من / 44 / سفينة وصل إلى مصب نهر تيبر غير البعيد عن روما، أما فلاديسلاف نفسه فإنه زحف على رأس قواته البرية واستولى على فروزينوني الواقعة قرب أسوار روما مباشرة، غير أن الشعب الذي خرج إلى الشوارع يهلهل للبابا ويرحب بإجراءاته الجديدة لم يكن يعلم بعد بهذه الأحداث.

. . . . . .

حدث ذلك في ليلة الثامن من حزيران ، عندما دخل " غوانداتشو " مخدع "كوسا " وهو يبكي قائلاً:

- سيدي ..... لقد ..... دخلت قوات فلاديسلاف روما.

نهض البابا مذعوراً من سريره على أصوات سكان روما التي تهتف:(عاش الملك فلاديسلاف).

أمر كوسا دينورا التي كانت تغط في نوم عميق بالنهوض، وخرج بها ومن ورائهما " غوانداتشو " يبحثون عن ملجأ أمين لهم في القصر، ولكن يا للهول ..... المفاجأة عندما لمح "كوسا " ومن معه امرأة تهرول في بهو القصر ..... إنها إيما ..... فسألها "كوسا " مرتبكاً ..... أين زوجك؟ لم يعد لدي زوج أجابته بصوت خافت.

أمر البابا دينورا ومن معها بالذهاب عبر الممر السري الموصل إلى ضفة نهر تيبر، لقد عبروا جميعاً النهر واستتروا في قلعة أركانجل الآمنة.

التفت "كوسا " إلى دينورا قائلاً بصوت خافت:

- أريدك أن تبقي هنا لوحدك في روما وتلتقي مع فلاديسلاف وتتظاهرين بأنك تحبينه، وتصبحين عشيقته، ثم تقتلين ذلك الوغد بالسم، أو بأية وسيلة أخرى.

والتفت إلى إيما ليقول لها بأن دينورا هذه هي ابنته غير أن الشكوك أخذت تساور المرأتين معاً.

وأمر "كوسا " " غوانداتشو " بأن يأخذ معه / 500 / فلورين ورسالة من باسكالي في بيروجيا وتسليمها مع المبلغ إلى شيرتامي الصيدلي وزوج إيما السابق.

عندما رأى "كوسا " أن سكان روما خانوه وغدروا به خرج مع إيما وعدد من أقاربه وأصدقائه من قلعة أركانجل وتوجهوا إلى فيتيربو ومنها إلى سينا، وكان " غوانداتشو " قد توجه بكيس من المال والرسالة إلى بيروجيا وسلمها إلى شيرتامي، لقد طلب البابا في هذه الرسالة بأن يحضر له شيرتامي السم المناسب ليقتل به فلاديسلاف عن طريق دينورا.

غير أن "كوسا " المعروف بخبرته ودهائه ومكره لم يعتمد على السم ومكيدة دينورا فقط بل قرر الدخول في مفاوضات مع الملك سيغيز موند، الذي كان قد طلب من البابا السابق عقد مجمع عام للكنيسة للقيام ببعض الإصلاحات وحل المشاكل التي توجهها الكنيسة، غير

أن بطلنا لم يأبه لذلك في حينه، لكن الوقت حان الآن، فالشعب أخذ يتململ ويطالب بهذا الإصلاح وتطهير الكنيسة من الأدعياء والدخلاء عليها، أضف إلى ذلك أن أهل روما الذين اعتمد عليهم كوسا خانوه في ذروة محنته.

فلاديسلاف يواصل زحفه في أرجاء مختلفة من إيطاليا، ولذلك وجد يوحنا الثالث والعشرون نفسه مرغماً على القبول بدعوة هذا المجمع المسكوني على مضض لكي يكسب سيغيز موند إلى جانبه، غير أنه لم يحدد زمان ومكان عقد هذا المجمع المقدس المقترح.

وما الذي حدث للفتاة العشيقة دينورا الآن؟ الحقيقة أنها وقعت أسيرة في يد فلاديسلاف وأغوته فوقع في حبها أيضاً، إلا أنها أصبحت أسيرة حبه أيضاً، ولم يعد في استطاعتها التخلص منه أو حتى الابتعاد عنه، وأخذت تنتقل معه معظم حملاته العسكرية وأرسلت إلى ذلك الصيدلي لكي يصنع لها الطلب الذي يجعل الملك فلاديسلاف أكثر تعلقاً بها، وما كان هذا الأخير – الصيدلي – إلا أن اتخذ قراره العجيب:

لقد صنع لها ذلك الدواء الذي ساعد على قتلها " موتها " ثم موت الملك فيما بعد لأن الصيدلي شيرتامي كان يدرك جيداً أطماع الملك الفاسد الفاجر ودينورا العزيزة على قلبه، فأراد أن يتخلص من الاثنين معاً بعد أن أصبحت الفتاة الصغيرة مَطِيَّةً لمآرب سياسية وانتقامية.

. . . . . .

كان "كوسا " بطل قصتنا قد غادر سينا إلى فلورنسا البعيدة عن العاصمة المحتلة، ليراقب منها الأوضاع عن بعد، غير أنه أراد أن يستبق الأحداث دون أن يدري، ما الذي حصل للملك أو لعشيقته السابقة دينورا؟ فبدأ المفاوضات مع الملك سيغيز موند الذي كان يريد من البابا يوحنا الثالث والعشرين أن يتوّجه إمبراطوراً، وأن يوافق في المجمع المقدس على تخليص الكنيسة من أمراضها وعللها التي ابتليت بها.

ووجه "كوسا " يوحنا الثالث والعشرون إلى سيغيز موند ثلاث سفراء لإجراء المفاوضات معه، وسلمه رسالة إلى الملك يبدي فيها موافقته على دعوة المجمع إلى الإنقاذ ولتتويج الملك سيغيز موند إمبراطوراً.

وفي اليوم نفسه بلغ كوسا النبأ بوفاة ملك نابولي فلاديسلاف وأن سكان روما طردوا أنصاره وجنوده من المدينة وخرجوا إلى الشوارع وهم يهتفون " يعيش البابا يوحنا الثالث والعشرون ".

وكم كان غضبه شديداً عندما عاد سفراؤه الثلاثة من مهمتهم الدبلوماسية وأخبروه بأنهم أبرموا الاتفاق مع سيغيز موند حول عقد المجمع المقدس في نهاية ذلك العام، وفي مدينة كونستانتسا الألمانية الصغيرة.

لقد وقع هذا النبأ على رأس بطلنا وقوع الصاعقة لأنه أدرك خطورة ذلك الفخ الذي نصبه لنفسه بسبب تسرعه فسأل سفراءه الكرادلة:

- أين سيعقد المجمع .....؟
- في ألمانيا ..... في كونستانتسا ..... أيها الأحمق ..... من قبل بهذا الاتفاق المهين؟ والله لو أن بوناكورسو عميل مغامراتي أرسل بهذه المهمة لما وقع في مثل هذا الفخ اللعين.

فرد عليه سفراؤه المفوضون قائلين:

- لماذا هذا الاعتراض، وأنت الذي أمرتنا بذلك؟

وأخذ القرصان القديم يزرع القاعة جيئة وذهاباً، ثم توقف فجأةً ليقول:

- أيها الأنذال: إنكم بذلك تقضون عليَّ وعلى الكنيسة معاً ..... فهل يستطيع رجل واحد بمفرده أن يقف أمام المئات من كبار رجال الكنيسة والآباء اللاهوت والعلماء الذين سيحضرون المجمع واضعين نصب أعينهم هدفاً واحداً هو تدميرنا؟

ضاق الخناق حول عنق " بالتازار كوسا " فماذا يفعل ذلك النابولي – نسبةً إلى مدينة نابولي – الوحيد في الشمال (في آخر الدنيا) في تلك المدينة الألمانية الباردة المسَوَّرَة والمتواضعة، وعندما طفح به الغضب قال:

- هكذا يصطادون الثعالب ..... ولكن على الرغم من ذلك ليس أمامنا إلا الذهاب الآن ثم نفكر فيما بعد كيف سنعمل في حينه.

وصل الملك سيغيز موند إلى لومبارديا، وكان على البابا يوحنا الثالث والعشرين (كوسا) أن يكون هناك للقاء به هناك.

تحرك كوسا مع عدد من الكرادلة وصديقته إيما، التي أصبحت لا تفارقه، إلى شمال إيطاليا للقاء مع سيغيز موند، وأصدر "كوسا " تعليماته إلى رئيس ديوانه ليعد الدعوة إلى المجمع في كونستانتسا ويرسلها إلى جميع رجال الكنيسة الغربية، وكان الملك سيغيز موند وجه أيضاً مثل هذه الدعوة باعتباره (إمبراطور) ألمانيا كما أن حكام جميع البلدان التابعة للكنيسة الغربية دعوا لحضور المجمع المقدس.

.....

حدث ذلك في السادس عشر من شهر تشرين الثاني عام / 1414 / وفي العاصمة الألمانية كونستانتسا آنذاك، كان حشد الناس غفيراً في تلك المدينة الألمانية الصغيرة بحيث لم يسبق له مثيل في أي مجمع من المجامع الكنسية الأخرى، وقد وصل عدد الحاضرين في تلك المدينة المتواضعة التي لا يزيد عدد سكانها الأصليين على بضعة آلاف إلى أكثر من / 150 / ألف نسمة مع حوالي ثلاثين ألف فارس كحرس شرف وحماية.

يقول المؤرخ " مالي " في هذا الصدد:

- لم تعرف المسيحية حتى ذلك التاريخ مجمعاً مقدساً بمثل تلك الهيبة والوقار.

كما يقول المؤرخ " هيغل " مؤرخ الكنيسة الغربية:

- وكان أول مجمع مسكوني يعقد في ألمانيا، إنه حدث طارئ وغير عادي وذو أهمية بالغة ..... شارك فيه العديد من الكرادلة والأساقفة، واللاهوت، والقساوسة، والمطارنة، والرهبان، وكان كل منهم يحمل في جعبته المقترحات حول الإصلاح، ويستعد لإلقاء الخطب والكلمات الحماسية دفاعاً عن وجهة نظره في حماية الكنيسة من الانقسام والانحلال وإصلاح شؤونها، كما حضر إلى تلك المدينة خلال فترة هذا المجمع العديد من التجار والحرفيين، والفنانين، والموسيقيين، والعاطلين عن العمل والمغامرين والفاسدين.

تحرك يوحنا الثالث والعشرون ..... بالتازار كوسا إلى كونستانتسا في موكب مهيب تحيط به مجموعات من الفرسان وسط مظاهر البهجة والحذر والترقب، وكانت تسير أمام الموكب مجموعات من خدم الكنيسة وحملة الأقواس والرمّاحة، الذين كانوا يحملون على وسائد مزركشة القبعات الحمراء للكرادلة الذين يرافقون يوحنا الثالث والعشرين، وكان البابا يقول لمرافقيه بين الحين والآخر: لست مرتاحاً لهذه الرحلة، ولا أعرف من أولئك الذين سألاقيهم هناك، فإنني أخشى ما قد يحدث لنا بعيداً عن إيطاليا وعن أهلنا، حتى أنه لم يُخْفِ شكوكه هذه عن صديقته " إيما " التي كان يقول لها باستمرار " إنهم يدبرون لي مكيدة " ..... لكنها كانت تطمئنه باستمرار.

يقول مؤرخ الكنيسة الغربية " التسوغ " في هذا الصدد:

على طول الطريق كان البابا يوحنا الثالث والعشرون يشعر بعدم الثقة والارتياح وبأنه يقود نفسه نحو الفخ ..... ويردد على الدوام عبارته المشهورة التي قالها في روما:

- هكذا يصطادون الثعالب في ألمانيا.

لم تكن الأيام الأولى مكفهرة في نظر بطلنا البابا يوحنا إلى هذا الحد، بل كانت تبعث الارتياح إلى حد ما نظراً لأن المندوبين الذين حضروا افتتاح المجمع المقدس كانوا في غالبيتهم من بين الإيطاليين الموالين له.

لقد تم افتتاح المجمع المقدس في بناء كبير قرب بحيرة جميلة، وكان قد بني منذ فترة وجيزة عام / 1388 / كمخزن للبضائع.
نهض كوسا بجلال وخشوع من وسط الحاضرين وسار حتى وسط القاعة المكتظة بالحاضرين، حيث تلا مقطوعة الصلاة، ثم رفع يديه مباركاً الحضور، وبعدها أمر بأن يرفع الكرسي المخصص للجلوس عليه إلى الأعلى، وقال للحضور سأرأس المجمع المقدس بنفسي أي إنني أعلن نفسي رئيساً للمجمع.
وكان يقول في قرارة نفسه: " بهذا الأسلوب فقط سيستمعون إليّ " ولكن ما إن أنهى عبارته الأخيرة حتى عم الضجيج والصخب القاعة بأسرها ..... إنهم يطالبون بأن تكون اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية لإلقاء الكلمات والخطب، كما أن الجميع تقدموا بقرار لم يفهم منه كوسا إلا القليل، وقد جاء فيه: بالإضافة إلى الكرادلة ورؤساء الأساقفة، ورؤساء الأديرة، يمنح حق التصويت الحاسم لعلماء اللاهوت ومشرعي الحقوق والقوانين المدنية.
بعد أن انتهت الجلسة الأولى وعاد كوسا إلى استراحته قال لنفسه:

- على أي أساس يحصل هؤلاء على هذا الحق؟ وكيف تجرأ هؤلاء على المطالبة بذلك؟ وعلى تقديم مثل هذا الطلب؟ ..... وطالما أن حق التصويت هو ملك الكنيسة ..... فإن هذا من صنع ذلك الفرنسي اللعين[1].

عندما وصل " بالتازار كوسا " البابا، إلى قصر استراحته شاهد جمعاً من الناس أمام المدخل، وفجأةً تقدم منه رجل مستعطفاً إياه ويتحدث بالإيطالية، فنزل "كوسا " من عربته ليستمع إلى الرجل الذي يرجوه بإلحاح:

- أرجوك أن تعيد لي زوجتي .....

فيرد عليه " بالتازار " قائلاً:

- وإذا كانت هي لا تريد ذلك فماذا أفعل أنا؟ وهل وجدتني مرتاح البال الآن حتى جئتني بهذا الطلب؟ اذهب الآن .....

ثم التفت البابا إلى " غوانداتشو " قائلاً بغضب:

- كيف تسمح لهذا الرجل أن يصل إليّ من بين الحراس بهذه السهولة؟

فبادره " غوانداتشو " قائلاً:

- سيدي إنه جانوبي زوج إيما .....

فلزم البابا الصمت ودخل القصر، غير أن جانوبي لحق به على السلم، وتجمهر الناس هنا وهناك ليسمعوا ويروا بشغف واهتمام.
أخذ جانوبي يتوسل بذل بين يدي "كوسا " راجياً منه أن يعيد إليه زوجته، ويقول له بأنه يحبها منذ عشر سنوات، وإنه لا يطيق الحياة بدونها.
ثم سجد أمامه ليقبل قدميه ..... لكن "كوسا " أنهضه وصفعه على وجهه قائلاً:

- إذا كانت هي لا ترغب في العودة إليك فهذا شأنها، وإذا كنت تحبها منذ عشر سنوات فأنا أحبها منذ ثلاثين عاماً، وقد وقفت إلى جانبي في أيام محنتي، وهي زوجتي الآن.

واحتدم النقاش ساخناً وبصوت عال وجماهير الناس ترى وتسمع كل ذلك، كما رأت جماهير الناس كيف أن إيما ألقت بنفسها على كوسا والدموع في عينيها راجية إياه أن لا يعيدها إليه.
خلال ساعات معدودات عم الخبر جميع أرجاء المدينة، وتلقى هذا الخبر أيضاً أولئك الذين يستطلعون مثل هذه المثالب، كما أن المشاركين في أعمال المجمع المقدس علموا بهذه القصة المثيرة.
في اليوم التالي اتخذ المجمع المقدس قراراً آخر أزعج "كوسا " وزاد من قلقه وقد جاء فيه:

- لكي تصبح قرارات المجمع المقدس سارية المفعول وملزمة للجميع اتفق الحاضرون على مراعاة المبدأ القومي في التصويت، أي أنه قبل أن يقدّم أي مشروع قراراً إلى المجمع يجب أن يدرس من قبل ممثلي كل مجموعة قومية على حِدَة.

---

[1] – **الحقيقة هي أن أسقف كامبري بيير دي الي هو الذي تقدم بهذا الاقتراح واستطاع إقناع الجميع بالموافقة عليه.**

وقد صَوَّتَ إلى جانب القرار هذا كل من: فرنسا – وإيطاليا – وبريطانيا.

(كانت فرنسا تمثل أيضاً مصالح اسكوتلاندا، ومصالح كنيسة سافو، وألمانيا تمثل مصالح كنيسة بولونيا وهنغاريا) وبذلك لم يعد المندوبون الإيطاليون قادرين – ولو كانوا كثيري العدد – على التأثير على سير أعمال المجمع المقدس، إذا لم توافق فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأسبانيا التي انضمت إلى المجمع فيما بعد على هذه المقترحات أو تلك.

وقد أخل ذلك بميزان القوى لغير صالح يوحنا الثالث والعشرين، كما أن " بالتازار كوسا " لاحظ أن الإمبراطور سيغيز موند قد تغير كثيراً نحوه، فبعد أن تَوَّجَه بنفسه إمبراطوراً وعاد إلى ألمانيا استقبل البابا ببعض الفتور، أضف إلى ذلك أن " بالتازار " علم أن الإمبراطور وقع تحت تأثير كبار الإقطاعيين الفرنسيين مثل (جيرسون – وبيردي آلي) وشجع موقفه العدائي من يوحنا الثالث والعشرين.

غير أن " بالتازار كوسا " المعروف بمكائده وخططه المحكمة لم يقف مكتوف الأيدي، فدعا إليه خادمه المطيع " غوانداتشو " وقال له:

– عليك الآن بالذهاب إلى دوق النمسا، وقل له بأن يحضر إليّ.

توجه " غوانداتشو " العملاق الأعور القبيح إلى قصر فريدريك دوق النمسا ليقدم إليه دعوة البابا، والجدير بالذكر أن فريدريك هذا كان قد استقبل يوحنا الثالث والعشرين بحرارة أثناء مرور الأخير في تورينتو متوجهاً إلى كونستانتسا، وعلم منه أنه على خلاف شديد مع سيغيز موند، وعلى الرغم من أنه لم يكن أكثر من دوق، إلا أنه كانت تتبع إليه مقاطعات وأقاليم كثيرة وواسعة وتدين له بالولاء، ومن بينها أراضي تقع في جنوب ألمانيا وقريبة جداً من كونستانتسا مقر المجمع المقدس.

استقبل كوسا – البابا يوحنا الثالث والعشرين – فريدريك دوق النمسا بحرارة وودّ، ثم عرض عليه طالباً المساعدة لقاء الوعود الكثيرة، مثل المناصب الكنسية الرفيعة وأكياس الذهب .....الخ.

كان ذلك في الأيام الأخيرة من شهر شباط عام / 1415 / الذي شهد تلك العاصفة التي أخذت تنذر بطلنا كوسا بأشد العواقب والسقوط، وقد قام المندوبون الإيطاليون الذين لا يكنون الولاء الحقيقي للبابا، وأبلغوا زملاءهم في المجمع المقدس بكل شيء عن سلوك كوسا ومغامراته وأعماله السوداء التي قام بها، وخاصة بعد أن عمت الحادثة التي وقعت مع زوج إيما أرجاء المدينة والمجمع، والجدير بالذكر أن كوسا كان يعرف بكل أعمال وتحركات أعوانه عن طريق العيون والعملاء الذين جندهم لهذه الغاية.

وضاق الخناق حول عنق كوسا وسط المجمع، وبلغ السيل الزبى، فلم يبق أمام بطلنا البابا يوحنا الثالث والعشرين إلا أن يلعب الورقة الأخيرة وهي اللعب بعواطف أعضاء المجمع، فقال لهم:

– إخواني ..... إنني مستعد للتخلي عن الكرسي المقدس في سبيل توفير الأمن والسلام للكنيسة، إنني مستعد للتنازل قبل غيري إذا طلبتم مني ذلك ودون انتظار غريغوري الثاني عشر وبينيديكت الثالث عشر ..... إخواني ..... أبنائي إنني مستعد للتنازل عند أول كلمة أو إشارة منكم.(77).

حدث ذلك في الأول من آذار عام / 1415 / ومنذ لك الحين لم ينعم بالهدوء ..... فلقد قال له أعضاء المجمع المقدس:

– ولماذا لا تتنازل الآن؟ لقد وعدتنا بذلك وأنت صاحب هذا الاقتراح فافعل ذلك إذاً.

عندما ضاق الخناق حول عنق " بالتازار كوسا " وفَقَدَ أعصابه ونفذ صبره، طلب البابا يوحنا الثالث والعشرون من " غوانداتشو " بأن يذهب إلى فريدريك النمساوي ويقول له:

– لم يعد البابا يحتمل أكثر من ذلك وقد نفذ صبره ..... ولماذا لم تنفذ ما اتفق عليه؟..... هل ستنفذ الخطة غداً أم لا؟

وبعد وقت قصير عاد " غوانداتشو " ليخبر سيده:

– قال لي: غداً فقط.

وفي اليوم التالي نفذ الدوق فريدريك خطته المرسومة بالاتفاق مع " بالتازار كوسا " والتي تهدف إلى اختطاف البابا يوحنا الثالث والعشرين، وبذلك يكون قد أصاب عصفورين بحجر واحد: خلص البابا من المأزق الذي أقحم نفسه فيه، وعطل أعمال المجمع المقدس بسبب غيابه

عنه باعتباره رئيساً له من جهة، وأثار عطف غالبية الكرادلة ورجال الكنيسة المحايدين وبعض الذين يقفون ضد البابا، إضافة إلى إثارة غضب المؤيدين له واتهام الإمبراطور الألماني بتدبير المؤامرة ضده أو بالتقصير في حمايته على الأقل من جهة ثانية.

ساد الهرج والمرج جو المجمع المقدس في صباح اليوم التالي عندما علم الناس جميعاً وأعضاء المجمع ما حدث للبابا، وتعالت صيحات التنديد والاستنكار بهذا العمل، والضرب بحديد على أيدي أولئك الذين يعبثون بسمعة ومكانة الكنيسة ورئيسها الأكبر.

وفي / 29 / آذار أعلن ممثلوا الكنيسة الفرنسية والألمانية والبريطانية عن إيقاف أعمال المجمع في كونستانتسا، أو نقله إلى مكان آخر، غير أن الإمبراطور الألماني سيغيز موند لم يأبه لذلك، وفي اليوم التالي طاف الإمبراطور على رأس مجموعة من خيالته في شوارع المدينة يدعو الناس ورجال الدين قائلاً:

- اطمئنوا سأعيد لكم البابا ومن معه إلى كونستانتسا، وسيجري كل شيء على ما يرام، وسوف ترون ذلك قريباً، وبذلك أنقذ الإمبراطور المجمع المقدس من الانهيار، وخاصة بعد أن علم من رجاله أن البابا مقيم في شافهاوزن تحت حماية دوق النمسا.

أراد الإمبراطور الألماني أن يقطع أمام البابا جميع سبل المناورة والذرائع والحجج فأرسل إليه عدداً من سفرائه الكرادلة والأساقفة ليستطلعوا أمره ويدعوه إلى حضور المجمع المقدس، أو ليؤكدوا ما إذا كان البابا مصراً على تنفيذ وعده بالتنازل أم أنه أعاد النظر في هذه المسألة.

استقبل البابا يوحنا الثالث والعشرون " بالتازار كوسا " سفراء الإمبراطور وهو مستلق على سريره، فقال له السفراء:

- لا أنتم ولا أي بابا آخر يستطيع إيقاف أعمال المجمع إلا إذا هو نفسه وبكامل أعضائه قرر ذلك، إن مجمعنا مستمر وكل السلطات تابعة وخاضعة له على الرغم من فراركم، والجميع بما فيه أنتم مضطرون للقبول بقراراته وتنفيذها، لأنه – أي المجمع المقدس – هو الكنيسة (كانت تلك العبارة من أقوال اللاهوتي الفرنسي المشهور – جيرسون والتي اعتمدها المجمع المقدس في حينه).

ابتسم البابا يوحنا الثالث والعشرون ثم أجاب:

- أنتم تفكرون كالهراطقة، لأن مثل هذه الأفكار التي تبتدعونها تتنافى مع مفاهيم الكنيسة ولن يقبل بها أحد، فالجسم يكون سليماً عندما تكون جميع أعضائه سليمة، والرأس هو جزء من الجسم الذي لا يمكن الحياة بدونه، ولكن لا وجود للرأس بدون هذا الجسم، هكذا لأمر بالنسبة للكنيسة تماماً، فالكنيسة هي جسم متكامل رأسها السيد المسيح الذي يمثله البابا " أنا " ولذلك فإن قراراتكم سوف تتناقض مع قوانين الكنيسة.

واستمر الحوار ساخناً بين الطرفين، وقدم كل منهما الحجج والبراهين دون أن يقنع أحدهم بالآخر، مع العلم بأن سفراء الإمبراطور كانوا أقوى حجة وإقناعاً، حتى أنه عندما سألوه:

- لماذا لا تفي بوعودك للمجمع المقدس بالاستقالة في سبيل إنقاذ سمعة الكنيسة وحمايتها من الانقسام؟

قال لهم بأنه:

- كان مرغماً على ذلك وإعطاء مثل هذا الوعد تحت التهديد بالقوة .....

وعندما اتضح للسفراء الكرادلة أنه لن يقتنع بآرائهم ولا يرغب بالاقتناع وجدوا أنه لا مجال في الاستمرار بالمحادثات، والأفضل لهم أن يعودوا أدراجهم، كما أنهم أصبحوا على قناعة تامة بأن خير وسيلة لإنقاذ الكنيسة هو إقناع الإمبراطور باستخدام السلاح ضد البابا وحاميه الدوق فريدريك، وقد عاد السفراء الكرادلة وأبلغوا المجمع المقدس بنتائج محادثاتهم مع البابا، فما كان إلا أن وجه الحرمان واللعنة إلى فريدريك وجرده من جميع الحقوق (لأنه خدع الإمبراطور وعمل ضد مصلحة الكنيسة).

كان الحرمان يعني أن أفراد الشعب والحاشية الذين أقسموا معاهدين الدوق على الولاء له وحمايته، أصبحوا الآن في حِلٍّ من هذا القسم، كما أن الدويلات المتاخمة لحدود وأملاك الدوق أمرت بمهاجمة فريدريك والاستيلاء على أراضيه بعد أن وعدها الإمبراطور بتوزيع أملاك الدوق فيما بينها.

لقد نظم سيغيز موند الحملة تنظيماً جيداً ضد البابا وأعوانه، وحشد له حشداً جراراً قاده عدد من قادة جيشه الأقوياء والمحنكين، واستطاعت قوات الإمبراطور مع القوات السويسرية أن تجتاح بالتعاون مع قوات المقاطعات الأخرى والدويلات الأخرى المتاخمة مساحات واسعة وتتقدم بسرعة نحو شافهاوزن معقل فريدريك والبابا، وخلال مدة قصيرة أخذت المدن تتساقط الواحدة تلو الأخرى.

وعندئذ فر يوحنا الثالث والعشرون مع حاميه فريدريك من شافهاوزن التي دخلتها قوات الإمبراطور، وفي الوقت الذي كانت فيه قوات الإمبراطور تزحف نحو معقل البابا " بالتازار كوسا " والدوق فريدريك، وتكتسح المقاطعات والأمارات شرقاً وغرباً رافعة أعلام الإمبراطور في كل مكان، كان أعضاء المجمع المقدس يعدون العدة لوضع قائمة الاتهام ضد البابا يوحنا " كوسا ".

لقد أهمل المجمع الكثير من الفضائح والتهم الموجهة إلى " بالتازار كوسا " واعتبرها ضارة بسمعة الكنيسة ورجالها على حد سواء، ولذلك فقد تستر المجمع على بعض هذه الفضائح والذنوب التي ارتكبها بطلنا " كوسا "، هذا وقد ضمت لائحة الاتهامات الكاملة / 54 / فقرة، وقد تلاها غوبيانوس بصوته الجهوري:

1- المتاجرة بالمناصب والرتب الكنسية.

2- بيع المنصب الكنسي لأكثر من شخص واحد وفي آن واحد.

3- عزل رجال الدين عن مناصبهم وبيعها إلى من يدفع أكثر.

4- محاولة بيع رفاة القديس يوحنا إلى فلورنسا بمبلغ / 50 / ألف فلورين ذهبي.

5- السماح لأفراد علمانيين بإصدار الحرمان ضد آخرين لقاء مبلغ معين من المال.

6- نفي وجود الحياة الآخرة.

7- لم يؤمن ببعث الموتى يوم الآخرة.

8- الزنا بامرأة أخيه.

9- مضاجعة ابنته وحفيدته.

10- اتخذ الأم وابنتها عشيقتين له في آن واحد.

11- أفسد مئات الفتيات العذارى.

12- أقام علاقات مع مئات النساء المتزوجات.

13- عاشر الراهبات في الأديرة.

14- في بولونيا وحدها كانت له / 300 / محظية.

15- عاشر أبناء جنسه.

16- اضطهد الفقراء وطردهم من أراضيهم وديارهم.

17- خالف جميع الشرائع والقوانين.

18- كان يساند الفاسدين والأشرار عديمي الأخلاق.

19- شجع على الرذيلة.

20- كان معبود السيمونيين.

21- كان عبداً للجسد.

22- كان أكبر الخطاة.

23- حارب الفضائل.

24- كان بؤرة للرذائل والفساد.

وهكذا حتى الفقرة الرابعة والخمسين والتي تقول: إنه تجسيد للشياطين.

وأجل أعضاء المجمع المقدس اجتماعاتهم ومحاكماتهم للبابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي كان لا يزال غائباً وبعيداً عن متناول أيديهم هو وحاميه فريدريك النمساوي.

بعد ذلك الهجوم المفاجئ – الذي شنته القوات الإمبراطورية على دويلة الدوق فريدريك واستيلائها على العديد من المدن والمقاطعات – شعر معظم حكام وأمراء تلك المدن والمقاطعات بمرارة الهزيمة التي جرها عليهم يوحنا الثالث والعشرون " بالتازار كوسا " وشروره العالقة به، فقرروا استرداد ما خسروه عن طريق المفاوضات وشكلوا وفداً بقيادة فريدريك نفسه ليقابل سيغيز موند الإمبراطور الألماني.

فاستقبل الإمبراطور دوق النمسا فريدريك ومرافقيه، واستمع إلى اعتذاراتهم راجين منه الصفح والمغفرة أمام المجمع المقدس، وعدم معاقبة أي من الحكام والأمراء بما فيهم الدوق فريدريك الذي أخطأ أيضاً، وهم مقابل ذلك يسلمونه البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي توارى عن الأنظار.

قَبِلَ الإمبراطور وأعضاء المجمع المقدس بهذه الشروط وأبقى سيغيز موند الدوق فريدريك رهينة لديه ريثما يتم تنفيذ هذه الشروط، وانطلق القائد فريدريك هوهينسوليرن بأمر من الإمبراطور على رأس قوة سريعة الحركة بحثاً عن البابا الذي اختبأ في فرايبورغ.

درس فريدريك الأرض دراسة جيدةً وقطع جميع الطرق من وإلى تلك المدينة الصغيرة، ثم قام باقتحامها واستطاع أسر البابا " بالتازار كوسا " ونقله إلى مدينة صغيرة بالقرب من كونستانتسا.

حدث ذلك في السابع عشر من شهر أيار / 1415 / وكان المجمع المقدس قد عقد جلسة خاصة قبل ذلك بثلاثة أيام / 14 / أيار، وقرر مصير البابا يوحنا الثالث والعشرون وجرده من جميع حقوقه، والآن أصبح بمقدور الأعضاء محاكمته دون خوف أو وجل منه.

في / 29 / من شهر أيار عام / 1415 / دعي المجمع لعقد جلسة أخرى خاصة لإعلان القرار النهائي، وصعد المنبر أحد الأساقفة وهتف بصوت عالٍ:

– اليوم يتقرر مصير العالم المسيحي، واليوم سيعزل رئيس الكنيسة عن الكرسي المقدس.

ثم بدأ بتلاوة محضر الاتهام الحافل بأعماله المنافية لجميع الشرائع والقيم والأخلاق، ولذلك فقد أطلق على "كوسا " اسم " صاحب الخطيئة التي لا تغفر ".

اقتيد بطلنا إلى قلعة " غوتلبين " الواقعة في تورغاو (سويسرا) وأودع هناك السجن في غرفة ضيقة ومظلمة، حيث لم يسمح لأي كان التحدث معه، ومرت أيام السجن الرهيب ثقيلة وطويلة، وفي ذات يوم شاهد "كوسا " من غرفة السجن كيف أن الحراس يقتادون رجلاً متوسط العمر ذا وجه هادئ عريض ولحيته طويلة.

- من يكن هذا السجين الجديد؟ فكر كوسا في قرارة نفسه، حاول أن يعرف ذلك من حراسه الثلاثة الذين لا يغادرونه لحظة واحدة ..... لكنهم لم يجيبوه بكلمة واحدة لأنهم لا يتكلمون الإيطالية.

وفي ذات ليلة تسللت إلى غرفته عشيقته " إيما "كي تطمئنه وتشد من عزيمته، لقد عرف منها أن اسم ذلك الرجل العظيم ذي اللحية الطويلة الذي أودع السجن، إنه " يان غوس " اللاهوتي البوهيمي (التشيكي) الكبير، لقد كان هذا تلميذ ويكليف، وعالماً تخرج من جامعة " براغ " وذا شعبية واسعة بين أوساط الكنيسة والشعب معاً، اشتهر بمعارضته لمسلك رجال الدين الكاثوليك وبأفكاره الإصلاحية النيّرة، وكان لهذا العالم اللاهوتي تلميذ بوهيمي آخر لا يقل عنه شأناً وشهرةً هو " إيرونيم " وقد اعتقل هذا الأخير مع أستاذه في كونستانتسا.

كان غوس وإيرونيم قد دُعِيا لحضور مجمع كونستانتسا المقدس للمشاركة في أعماله بعدما قدمت إليهما الضمانات من قِبَل الإمبراطور الألماني، وبعد أن فرغ المجمع من قضية بالتازار كوسا تناول بالدراسة والتحليل أفكار هذين اللاهوتيين، فأدان أفكارهما واتهمهما بالإلحاد والهرطقة والعمل على نشر الأفكار الهدامة، وعقوبة جريمة الهرطقة في تلك الأيام كانت الإعدام حرقاً بالنار طبعاً، وأصدر المجمع قراره بحقهما.

وعندما علم لودفيغ الثالث المسؤول عن السجن وعن قصر كوسا بالذات، اتفق مع لودفيغ – عن طريق إيما – على أن يطلق سراحه لقاء مبلغ / 38 / ألف فلورين ذهبي، وذات ليلة خرج كوسا خلسة من القلعة متخفياً بلباس أحد الحراس وتوجه مع إيما من منطقة الألزاس إلى بورغونديا ومنها إلى سافو ..... ثم إلى إيطاليا (مقاطعة ليفورنيا) وأقام هناك (لم تعرف حتى الآن المدينة التي أقام فيها) وقد علم كوسا أن البابا أوتون كولون الذي أطلق عليه لقب البابا مارتين الخامس موجود في فلورنسا، فكتب إليه رسالة، وأرسلها مع إيما إلى فلورنسا لتسلمها إلى أحد الإقطاعيين الكبار من أسرة ميديتشي، وتطلب إليه التحدث مع البابا بشأن مصير كوسا، وقد جاء في رسالته التي بعث بها إلى آل ميديتشي:(اذهبوا إلى مارتين الخامس وقولوا له بأنه من الأفضل له أن يعيش معي بسلام ..... ولذلك يجب أن يتفق معي).

انتهز جوفاني كبير أسرة ميديتشي فرصة وجود البابا مارتين الخامس في فلورنسا فالتقى به لهذه الغاية، وأسفر هذا اللقاء عن لقاء آخر بين " بالتازار كوسا " البابا يوحنا الثالث والعشرين سابقاً، والبابا مارتين الخامس، وقد توسل كوسا إلى البابا مارتين وارتمى على قدميه طالباً الصفح والغفران، فرقّ له قلب مارتين الذي أعاد إليه قبعة الكاردينالية باسم (الكاردينال بالتازار كوسا).

لا توجد مصادر تاريخية موثوق بها عن هذه الفترة الأخيرة من حياة بالتازار كوسا، لكن من المؤكد أنه عاش بقية حياته في قصر فخم من قصور فلورنسا مع صديقته إيما ..... حتى وافته المنية في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول عام / 1419 /.

كما أنه ليس لدى المؤرخين مصادر موثوقة عن مصير أملاكه وأحواله وعن مصير صديقته إيما التي يبدو أنها ظلت تعيش في القصر حتى وافتها المنية ..... ودون أن يعلم المؤرخون شيئاً عن تفاصيل حياتها الخاصة في تلك الفترة.

شيع جثمان بالتازار كوسا في موكب متواضع جداً، وقد ثبتت على شاهدة قبره المرمرية لوحة من البرونز كتب عليها العبارة التالية:

((هنا يرقد جثمان " بالتازار كوسا " البابا السابق يوحنا الثالث والعشرون)).

أليس الواجب الآن حذف تلك العبارة عن شاهدة القبر (البابا يوحنا الثالث والعشرين).

.....

الخاتمة

هكذا طويت الصفحة الأخيرة من حياة وأعمال هذه الشخصية العجيبة شخصية بالتازار كوسا التي تعرف القارئ من خلالها على فترة الانحطاط والضعف التي شهدتها الكنيسة الكاثوليكية الغربية خلال القرون الوسطى وحتى عصر النهضة.

إن قصة الكسندر باراديسيس هي قصة تاريخية بكل ما لهذه الكلمة من معنى، لأن جميع الأحداث التي يقدمها لنا المؤلف تعتمد على شواهد ووثائق وأدلة تاريخية غربية في معظمها.

كما أن قصة حياة وأعمال " بالتازار كوسا " البابا يوحنا الثالث والعشرين هي واحدة من آخر مؤلفات الكسندر باراديسيس التي كتبها خلال الأربعين عاماً من حياته ككاتب وكصحفي لامع.

الكسندر باراديسيس كاتب يوناني الأصل، ولد عام / 1899 / في أسرة بورجوازية صغيرة تقيم في مقاطعة " أزمير " التركية، وفي عام / 1923 / تخرج من كلية الفلسفة – جامعة أثينا – ومنذ ذلك الحين عمل في مجال الصحافة لدى عدد من الصحف الأثينية والأجنبية وككاتب أَلَّفَ العديد من الكتب والقصص التاريخية.

إن أهم مؤلفات الكسندر باراديسيس:

- نيرون.
- بالدم والذهب.
- نجمة صقلية.
- الصليبيون.
- الأدميرالات – القراصنة.
- الملكات – الحاكمات – الأميرات – المغامرات – الفاسدات.

.....

.....

.....

.....

...

.

ثبت المراجع:

1. **A g r i p p a v. Nettesheim, Do incertitudino et vanitato omnlum scientiarum, et artium, *1622.***
2. **Alberghini (Filippo), B. Cossa, Bologna, 1825.**
3. **Al m eras (Henri d), Un proces d'envoütement au Moyen-Age, Paris, 1287.**
4. **A 1zog (Johannes Baptist), Lehrbuch der Universalkirchcnge.. schichte, Paris, 1881.**
5. **A m m i r a to. (Scipione), Istorie Fiorentine, Firenze, 1848.**
6. **Aretino (pietro), Ragionamenti, 1532—1534.**
7. **Aretjno (Leonardo), Rerum suo tempore in Italia gestarum commentarius ab anno 1378 usque ad annum 1440, Milano, 1731.**
8. **A r t a u d, Italic, Paris, 1852.**
9. **Baed,ker (Karl), Italie Septentrionale, Leipzig, 1913.**
10. **B a 1 u z e, Vitae Paparum avenionensium, Paris, 1693.**

11. **B an dello (Matteo), TuLLe le opere, Milano, 1934.**

12. **B a ron ll, Annales ecc!csiastici a christo nato ad annum 1198, Luccae, 1738.**

13 B a s (Le), Allemagne, Paris, 1838.

14 Be Ig r a n o (L. j.), Della vita privata dei Genovesi, Genova, 1875.

15 Bernareggi, I Papi, Bergamo, 1940.

16 Bollandus, Acta sanctorum Antverpia., 1643.

17. **B on nea u (Alcide), Nouvelles choisies do Masuccio, Paris, 1890.**

18 Bo r romeo (Carlo), costituzioni e Regole del Monastero de San Paolo di Milano, Milano, 1628.

19 Bo t t a (Carlo), Histoire des Peuples d'Italie, vot3, Bruxelles, *Sm*

20. **Br a c c loll n i (Poggio Fiorentino), Facezie, Milano (6.a lam,).**
21. **B u r c k h a r d t (Jacob), The Civilization of the. Renaissance in Italy, London, *1950.***
22. **Ca1met (Augustin), Histoire ecclésiastique et civil. do Lorraine, voL 2, Nancy, 1728.**
23. **Cantü (Cezare), Storia Universal., vol. IX—X1I1, Torino 1S84~**
24. **Capponi (Gino), Storia della Republica di Firenze, 1875.**
25. **C a z a 1 (Edm.), L'inquisition en Italie, Paris, 1924.**
28. **Challamel, Les Corsaires et Ia guerre maritime, Paris, 1904.**
27. **C h é r u e 1 (Adolphe), Dictionnaire historique des institutions, moeurs et coutumes de la France, p. 1—2, Paris, 1874.**
28. **Chronique du religieux de Saint Denys, vol. III, Paris, *1841.***
29. **C l e m a n g I (Nicol.), Liber de corrupto ecclesiae statu, Leyden, 1613.**
30. **C o n t r e r a s (Alonso de), Memoires (Confession du Corsair. inconnu). Bulletin de 1'Acad€mie de Madride, 1900.**
31. **C o r i o (Bernardino), Historia di Milano, Milano, 1855—1857.**

32. **Co r y a t (Thomas), Crudities Hastily goblet up in five Months Travels, London, 1905.**
33. **Co x e (Will), History of the House of Austria, 1807; Histoire de Ia maison d'Autriche, I, Pans.**
34. **Cronica di Bologna, Bologna, 1903.**
35. **C y pr i a n i (sancti), Opera; Episto.a 62 ad Pompon; De habit. virgin., Paris, 1726.**
36. **D a n t e (Alighieri), Comedia Divina.**
37. **D i d i e r (saint), La yille et Ia Rêpublique de Venise, Den Haag, 1685.**
38. **D u c h e s n e (Louis), Ed., Liber Pontificalis, Paris.**
39. **Durant (Will), Tbe Age of Faith, vol. 27, New York, 1950.**
40. **E s t i e n n e (Henri II), Apologie pour Herodote, Genève, 1556.**
41. **F a n c e l l i (Em.), L'Antipapa Firenze, 1934.**
42. **Flodoardo, Annales (919—966).**
43. **F o r s t e r (K.), Pologne, Paris, 1840.**
44. **F r a t i (Lodov.), La vita privata di Bo.ogna nel Medio Evo¸ FLrenze, 1898.**
45. **Fr o i a a a r t (Jean), Chronique do Franc., d'Mgleterre~ 4'Ecosao et d'Espagne, Paris, 1892.**
46. **G a r d n e r (James), The Faiths in the World, voL II, London-Edinburgh.**
47. **G i a n n o n e (P.), Storia civil. del regno di Napoli, voL IV, 1723.**
48. **G o b e l I n u s (Persona), Cosmodromii, Aetas.**
49. **G o a z a d i n i, Nanne Gozzadini e Baldassare Cosaa, Bologna, 1889.**
50. **G r e g o r o v I u s (Ferdinand), Geschichta der Stadt Rorn im Mittelalter, 1859—1872.**
51. **H a r d o u i n (Jean), Collectio, Conciliorurn, Paris, 1715.**
52. **H a y m a r d (Fer.), Histoire des Papes, Paris, 1929.**
53. **H e f e 1 e (Karl Josef v.) Konziliensgeschichte nach den Quellen bearbeitet, Freiburg in Brisg.**
54. **H o d k i n (Thomas), Passing of the ago of chivalry and the Papal supremacy restored (from Harmsworth "History of the Word"), vol. V, London, 1909.**
55. **Horn o (L), Paris, 1934.**
58. **H u b a c (Pierre), Les Barbaresques, Paris, 1949.**
57. **K u h a e r (Hans), Dictionnaire des papo; do saint Pierre I Jean XXIII, Paris, 1958.**
58. **L a b b e (Philippe), Collection Gén6rale den Saints conciles (Conciliorum collectio), Paris, 1671.**
59. **L e a (Henri Charles), A History of the Inquisition, 1888.**
60. **L e n f a n t (Jacques), Concile do Constance, Amsterdam, 1714.**
61. **L e n f a n t (Jacques), Histoire du concile do Pise, Amsterdam,1724.**
62. **Li u t p r a n d (di Cremona), Antapodosis (ove sqno narrate le vicende dell Impero e dell' It. dall' 888—950).**
63. **L l o r e n t e (Juan Antonio don), Historia critica do ia inquisicion do Espafla, Paris, 1815—1817.**
64. **M a b i l lo n (Jean), Vetera analecta, Paris, 1675.**
65. **M a i l l a r d (Olivier), Opera (Quadrageslmale opus), Paris, 1512.**
68. **M a 1 o t (A), XIV Siècle, Paris, 1929.**
67. **M a n si (Giov. Dom.), Sacrorum Conciliorum nova et amplissima collectio, vol. XXIX (do 1509), Venotiis, 1788.**
68. **Ma s u c c i o (Cuardato Tom.), il Novelino 1476.**
69. **Miscellanea di Storia Italiana, vol. VIII, ser. I.**
70. **M o r e l l e (P.), Histoire do la Sorcellerie, Paris, 1946.**
71. **M o r e 11i (Giovanni), Ricordi nelle. delizi, degli eruditi Toscanl Roma, 1900.**
72. **M o u r r e t (Fernand), Histoiro Generale do 1'EgIise (V. La Renaissance et la Reforme), Paris, 1929.**

73. M u l l e r (Johann), Geschichte der schwoiz. Eidgenossenschalt, bd. 2,leipzing, 1786; do a conllderstion Suisse, Paris, 1837.
74. M u r a to r i (Lodovico Antonio), Rerurn Italicorum scriptores, Milano, 1723—1738.
75. M I r a t e r i (Lodovico Antonio), Antiquitates Italicao medil aevl, Milano, 1738—1742.
76. M u r a to r I (Lodovico Antonio), Annali d'Italia, Roma, 1744— 1749.
77. N i m e n s i s (Theodoric, Dietrich von Niem Niebeim), Historia de vita Johannis XXIII, Frankfurt, 1620 (Meibonii, Return Germnicarum Scriptores. vol. I).
78. N i m e n s i s (Theodoric, Dietrich von Niem Nieheim), Do schismate papistico, Leipzig, 1890.
79. p a s c h i n i (Pio), Roma nel Rinascimento. Istituto di Studi Romani, Bologna, 1940.
80. P a s t o r (Ludwig v.), Storia dei Papi dalla fine del Medio, Roma, 1910.
81. p e t r a r c a (Francesco), Epistolae do rebus familiaribus et variae Firenze, 1859.
82. P e t r a r c a (Francesco), Opera, Basileae, *1581.*
83. p i e II (Aeneas Sylvius Piccolomini), Lettres, Lyon, 1505.
84. P i z z i c h i, Viaggio per l'alta ltalia, Firenze, 1820.
85. P o I n it z: (Charles Louis, baron de), Mémoires, Lyon, 1734.
86. Po n t a n o (Giovanni), La vie do Benois XIII, Paris, 1903.
87. P o t t e r (L. .j. A. do), L'histoire du christianisme, Paris, 1836.
88. R a e m o n d (Florimond de), Histoire do l'herasie, Paris, 1610.
89. r a y n a 1 d i (Odor), Annales ecclesiastici, Luaccae.
90. R e n i e r i (Marcos), *1881.*
91. R o d o c a n a c h i (E.), La femmo Italienne, avant, pendant et aprês la Renaissance, Paris, 1922.
92. S a c c h e t t i (Franco), La Novelle, Firenze, 1925.
93. S a 1 v a t o r e l l i, Storia d'Italia, Torino, 1939.
94. S a n s o v i n o (Mat.), il destino di Gregorio XII, Bari, 1871.
95. S c h o e l i (M. S. Fr.). Cours d'histoire des états europeens, depuis le bouleversement do l'Empire Romairr d'Occident jusqu'en 1789, Paris, 1830—1834.
96. S i s m o n d i (J. C. L. Sirn. do), Histoire des rèpubliques italiennes du moyen-age, Paris, 1840.
97. S t r a n o (Titin.), Ginevra Benrivoglio, Milano, 1937.
98. Taxae cancellaniae apostolicae et sacrae penitontiariae, Sylva Dciels, 1706.
99. Touring-Club, „Toscano", Milano, 1934.
100. T r e v e s, Roma, 1912.
101. T r e v i s a n i (C.), Storia di Roma nel Medio oevo, Torino, 1895.
102. V a s a r i (Giorgio), Vite de' piu celebri pittori, scultore architetti (Vita di Nic. di Pier. Aretino).
103. Vie et Mémoires do Scipion do Ricci, ëvque do Pistoie, Paris,1826
104. V i o r e g g I o (Primo Camillo da), Vita de' Ponteficl, Napoli, 1753.
105. W I l l I a m of M a l m s b u r y, Gesta rerum Anglorum (Acta of the Kings of the English), transl. "Chronicle", London, 1847.
106. Z e l l e r (Jules-Sylvain), Histoire de l'ltalie depuis l'invasion des barbares jusqu a nos jours, Paris, 1853.